مُنْيَةُ الطَّالبين

في

تفسيرِ القرآنِ المُبينِ

تفسير علمي أدبي يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتأريخية وروائية

المجلد العشرون

الفقيه المُحقّق

الشيخ جعفر السُّبحاني

دار جواد الأئمة

الفهرس

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين الجزء العشرون
الجزء العشرون ويشتمل على تفسير السور التالية: الشعراء، النمل، القصص
تفسير علمي، أدبي، يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتاريخية وروائية
تأليف الفقيه المحقّق جعفر السبحاني
نشر مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)
(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ) الحجر: ١.

المقدمة

الحمد لله على آلائه، ونشكره على نعمائه، ونستعينه ونهتدي به ونتوكّل عليه؛ ونصلّي ونسلّم على نبيّه الخاتم الذي أرسله بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى آله الطيبين الطاهرين الّذين هم قرناء الكتاب وأساس الدين وعماد اليقين، صلاة دائمة ما دامت السماوات والأرضين.

أمّا بعد:

فهذا هو الجزء العشرون من تفسيرنا المسمّى بـ « «منية الطالبين في تفسير القرآن المبين» وقد اشتمل على تفسير السور الثلاث: الشعراء، والنمل، والقصص، وهي من السور المكّيّة، ومن الجدير بالذكر أنّه بإلقاء نظرة سريعة على مجمل آيات القرآن الكريم يتّضح أنّ الوحي الإلهي بذَلَ حيال مسألة التوحيد الأُلوهيّ و الرُّبوبيّ من العناية ما لم يبذل مثلها حيال أيّة مسألة أُخرى من المسائل العقائدية والمعارف العقلية، بل حتى قضية «المعاد» والبعث في يوم القيامة التي تعدّ من القضايا المهمة جداً في نظر القرآن بحيث لا يمكن لأي دين أن يتجلّى في صورة «عقيدة سماوية» ومنهج إلهي دون الاعتقاد بها، كما لا يمكن لذلك المنهج أن ينفذ إلى الأعماق والأفئدة بدونها.

ويجدر بالذكر أنّ عناية القرآن تركّزت أساساً على إبلاغ وبيان «أُصول الدين»و بذر بذورها في الأفئدة؛ والعقول أكثر من العناية ببيان المسائل الفرعية العملية.

ويشهد لذلك أنّ الآيات التي وردت في القرآن حول موضوع «المعاد» تقارب (٢٠٠٠) آية، في حين يبلغ مجموع الآيات الواردة حول الأحكام المبيِّنة لفروع الدين (٢٨٨) آية أو يتجاوزها بقليل.

وهذا هو بذاته يكشف عن الاهتمام الواسع والعناية الفائقة التي يوليها القرآن الكريم للمسائل الفكرية والقضايا الاعتقادية.

والحمد لله رب العالمين

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)

٥ رجب المرجّب ١٤٣٧هـ ق

سورة الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ

أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا
بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ
فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ
(٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
(٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ
(٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا
بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ
فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ
حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا
نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ
(٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ
مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ
الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ
قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨)
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا
إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا
عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ
أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ
(٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي
خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ
جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى
اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ
اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ

(٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ
(١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا
أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ
الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧)
فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ
(١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ
أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ
(١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ
(١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
(١٤٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ
(١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
(١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ
الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ
بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ
عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥)
وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧)
قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ
(١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
(١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ (١٩١) وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)
خصائص السورة
تسمية السورة
سُمّيت السورة في المصاحف بسورة «الشعراء» لورود هذا اللفظ في ثنايا آياتها، وهو لم يرد في غير هذه السورة.
عدد آياتها ومحلّ نزولها
عدد آياتها مئتان وسبع وعشرون آية في عدّ الكوفي والشامي والمدني، وستّ وعشرون في عدّ الباقين. ومن خصائص هذه السورة أنّها تعتبر أكثر السور بعد سورة البقرة من حيث عدد الآيات، وإن كانت أقصر من كثير من السور من حيث عدد الكلمات. عدد كلماتها:(١٢٧٧) كلمة. وعلى سبيل المثال، يبلغ عدد آيات سورة آل عمران:(٢٠٠) آية، وعدد كلماتها:(٣٤٨٠) كلمة، وعدد آيات سورة النساء:(١٧٥) آية، وعدد كلماتها:(٣٧٤٥) كلمة، وعدد آيات سورة الكهف:(١١٠) آية، وعدد كلماتها: (١٥٧٩) كلمة. والسورة مكيّة بشهادة صياغتها ومضامينها، وقد جاء فيها قصص عدد من الأنبياء وهم: موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب(عليهم السلام)، وجاءت قصة الأوّلين على وجه التفصيل، والباقين على وجه الإيجاز، وهذا أفضل دليل على أنّ السورة مكيّة. نعم استثنى بعضهم الآيات الخمس التي في آخرها، أعني قوله تعالى: (أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) الشعراء:١٩٧، وسيوافيك الكلام في هذا المورد.
أغراض السورة
إنّ الغرض العام من سرد قصص الأنبياء السبعة هو تسلية النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)عمّا كان يلاقيه من أذى وإعراض من قومه، وأنّ سبيله في ذلك سبيل من مضى من الأنبياء مع أُممهم. وفي أوّل السورة يثني تعالى على كتابه المجيد، وفي ثنايا القصص يذكر منطق المكذّبين الواهي، ويختمها بالإشارة إلى إهلاكهم بعد إنذارهم وإقامة الحجج عليهم.

ثمّ إنّه سبحانه يذكر في آخر السورة الشعراء ويذمّهم، ولعلّ المراد بهم الشعراء الذين كانوا يهجون النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) كعمرو بن العاص، وأبي عَزّة الجُمَحي، وغيرهما. وسيوافيك أنّ المراد أيضاً أُولئك الشعراء الذين هم على شاكلة هؤلاء لا مطلق الشعراء، فإنّ للشعر الهادف في الإسلام وزناً وقيمة، وإنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)والأئمّة(عليهم السلام) بعده كانوا يحترمون الشعراء الذين يصدعون بالحقّ، ويقدّمون لهم الهدايا.

الآيات: الست الأُولى(طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ... فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

المفردات

باخعٌ: هالكٌ من وُجْد(شدّة الحزن).

فظلَّتْ: فدامتْ.

أعناقهم: العُنُق عضو معروف في الإنسان، وخضوع الأعناق كناية عن خضوع أصحابها.

خاضعين: الخضوع: الذُّلّ والانقياد.

مُحْدَث: جديد.

التفسير

١. (طسم):

من الحروف المقطَّعة، والكلام فيها هو الكلام ذاته في سائر الحروف المقطَّعة الواردة في أوائل عدد من السور، والرأي السائد المنصور هو أنّ الغاية من الإتيان بها في مطالع السور هو الاستدلال على أنّ القرآن منزّل من الله سبحانه، وليس لأحد غيره جلّ شأنه يدٌ في صياغته.

ومن يتصوّر خلاف ذلك فالقرآن مؤلَّف من هذه الحروف والجميع في متناول الفصحاء والبلغاء، فإن كانوا يزعمون أنّ القرآن من صنع النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)فليقوموا ويأتوا بمثله. وسيوافيك تفصيل الكلام في ذلك في تفسير أوّل سورة الأحقاف.

وربّما يحتمل أنّ هذه الحروف، هي إشارة إلى أسماء الله تعالى، فالطاء إشارة إلى ذي الطَّول، والسين إشارة إلى القدّوس، والميم إلى المَلِك، كما يحتمل أنّ اللفظ قسَم، وجوابه قوله تعالى: (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً). الشعراء:٤.

وكلا الاحتمالين لا يخرجان عن الادّعاء الذي لا يسنده دليل.

وأضعف منهما ما ذكره الرازي من أنّ الطاء إشارة إلى طرب قلوب العارفين، والسين سرور المحبين، والميم مناجاة المريدين. تفسير الرازي:٢٤/١١٨.

ويُرجّح ما اخترناه، الآية التالية حيث جاء فيها الكلام عن آيات الكتاب المبين، الأمر الذي يُشعر بوجود صلة بين هذه الحروف وهذا الكتاب المبين.

٢.(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ):

قوله: (تِلْكَ) إشارة إلى آيات هذه السورة، والإشارة بلفظ البعيد مع قربها، للتكريم.

ثمّ وصَف سبحانه المشار إليه بقوله:(آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) فقوله:

(الْمُبِينِ) من أبانَ بمعنى ظهر، أي الكتاب الظاهر الواضح نزوله من الله العزيز، أو الواضح في مفاهيمه ومعانيه، أو البيّن صدقه. ويحتمل من أبانَ متعدّياً، أي المُوضِّح لطرق الهداية.

٣. (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ):

هنا ينتقل السياق من ذكر الكتاب إلى خطاب النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي كان يحزّ الأسى في نفسه حتى ليكاد يُهلكها بسبب إصرار قومه على التكذيب بآيات الكتاب المبين، وعدم الإيمان برسالته، كما يقول:(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ): أي هالك وقاتل نفسك حزناً وألماً (أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ).

والغاية من هذا الخطاب، هي تسلية النبيّ، ونظير هذه الآية التي تتجلّى فيها إنسانيّة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)وروحه الخيّرة التي يُمضّها الألم لجحد الجاحدين وضياع مصيرهم، قوله تعالى:(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) الكهف:٦.، وقوله:(فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَات) فاطر:٨.. والآيتان متقاربتان لفظاً ومفهوماً.

٤. (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ):

كان النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) حريصاً على هداية قومه من جانب، ومن جانب آخر كان هؤلاء على درجة عظيمة من العناد، ولو أراد سبحانه أن ينزّل عليهم آية مخوّفة حتى يؤمنوا تحت ضغطها ـ كما فعل ذلك بقوم موسى حيث نتق الجبل فوقهم حتى صار كالظلة، فخضعوا لها اضطراراً ـ لفعل، ولكنّه سبحانه لا يفعل ذلك بمشركي عصر الرسالة، لماذا؟ لأنّ هذا النوع من الإيمان لا قيمة له، بل القيمة للإيمان النابع عن وعي واختيار، وأمّا أنّه لماذا فعل ذلك بقوم موسى(عليه السلام)فربما يقال: إنّ بني إسرائيل كانوا مؤمنين بموسى(عليه السلام)وبما جاء به، فلم يكن إظهار الآيات لهم لأجل دفعهم نحو الإيمان، بل كان لزيادة تثبيتهم، نظير قول إبراهيم(عليه السلام): (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى) البقرة:٢٦٠..

قوله تعالى: (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً) فقوله:(إِنْ نَشَأْ) جملة شرطية حذف جوابها أي لفعلنا، ومعنى الآية: لو شئنا أن ننزّل عليهم من السماء آية تلجئهم إلى الإيمان لفعلنا ذلك. وعندئذ (فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ): أي فدامت أعناقهم، والمراد أصحابها (لَهَا) للآية النازلة (خَاضِعِينَ): أي منقادين قسراً لهول ما يَرون من تلك الآية المخوّفة.

وإنّما خصّ الأعناق بالذكر مع أنّ الخاضعين هم أصحابها، لأنّ العُنُق مظهر الخضوع، كما أنّ العين هي الآلة التي ينحصر بها تشخيص الحقيقة عن غيرها، ولذلك نسب السّحر إلى الأعين وقال: (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ). الأعراف: ١١٦.

٥. (وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْر مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَث إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ):

هذه الآية دليل على أنّ قوم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا غير خاضعين للدليل والبرهان بشهادة أنّهم كانوا يعرضون عن آيات الله إذا تليت عليهم آناً بعد آن، فإعراضهم عن الآيات بعد سماعها من دون تدبّر هو الدليل الواضح على أنّهم لا يؤمنون، كما قال: (وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْر مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَث): أي ما يأتيهم ذكر من الرحمن مستمرّاً متجدّداً وقتاً بعد وقت إلاّ تولّوا عنه ولم يكترثوا له، كما قال:(إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ). ونظير ذلك قوله سبحانه:(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْر مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَث إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ * لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ) الأنبياء:٢ و٣..

بقي سؤالان حول الآية:

١. نسَب الذّكر في الآية إلى (الرَّحْمَنِ) وقال:(ذِكْر مِنَ الرَّحْمَنِ) مكان أن يقول: ذكر من الله أو من الرحيم، وكأنّه إشارة إلى أنّ منزّل الذّكر هو الذي تعمّ رحمته المؤمن والكافر لِما ثبت من أنّ الرحمن أوسع أثراً من الرحيم لشمول الأوّل للكافر دون الثاني، وبما أنّ التنديد والتوبيخ متوجّه إلى الكافر ناسب ذكر الرحمن.

٢. ما هو الغرض من وصف الذكر بكونه (مُحدَث)؟

ربما يُتوهَّم أنّ الآية بصدد بيان أنّ القرآن حادث وليس بقديم، ولكنّه بعيد لأنّ مضمون الآية يُلهم أنّها ناظرة إلى أمر آخر، وهو التركيز على عنادهم وأنّهم يعرضون عن كلّ ذكر أتاهم قديمه وحديثه من غير فرق بين السابق واللاحق. وبتعبير آخر: كلّما تجدّد

نزول آية، تجدّد منهم العناد والإعراض.

٦. (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ):

لمّا تقدّم في الآية السابقة أنّهم يُعرضون عن كلّ ذكر يتلى عليهم، عاد البيان القرآني إلى تفسير هذا الإعراض وأنّهم قاموا بتكذيب الذكر والاستهزاء بما جاء فيه من أنباء الوعيد، فكم من فرق بين الإعراض المطلق والسكوت، وبين التكذيب مقروناً بالاستهزاء بآيات الله، ولذلك أعلن سبحانه أنّهم سيواجهون ما كانوا يتصوّرون أنّه كذب وقال:(فَقَدْ كَذَّبُوا) بلغوا النهاية في التكذيب (فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا): أي الشيء الذي (كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)، فـ(مَا) في قوله: (ما كانُوا)موصولة وأُريد به ما أخبر عنه القرآن من العقوبات العاجلة أو الآجلة، فهؤلاء سيلاقونها في الدنيا (كغزوة بدر) أو في الآخرة.

بقي الكلام في مسألة كلامية وهي كون القرآن حادثاً أو قديماً.

بحث في خلق القرآن

ذهب جمع من أهل الحديث من أتباع مدرسة الخلفاء إلى أنّ القرآن ليس بمخلوق، يقول أحمد بن حنبل في كتاب «السنّة»:

والقرآن كلام الله ليس بمخلوق، فمن زعم أنّ القرآن مخلوق فهو جهميّ كافر، ومن زعم أنّ القرآن كلام الله عزّ وجلّ ووقف ولم يقل مخلوق ولا غير مخلوق فهو أخبث من الأوّل، ومن زعم أنّ ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقة والقرآن كلام الله، فهو جهميّ، ومن لم يكفّر هؤلاء القوم كلّهم فهو مثلهم. كتاب السنّة:٤٩.

أقول: كان اللازم عليهم السكوت وعدم النبس ببنت شفة في هذه المسألة، لأنّ البحث فيها محرّم طبقاً لأُصولهم، سواء أكان الموقف هو قِدَم القرآن أم حدوثه، لأنّه لم يرد فيه نصّ عن رسول الله، ولا عن أصحابه، ولكنّهم ـ مع الأسف وقفوا منها ـ وفي مقدّمهم أحمد بن حنبل ـ موقف الإيجاب وكفّروا المخالف.

ويظهر أنّ هذه المسألة قد تسرّبت إلى أوساط المسلمين من المسيحيين حيث كانوا يقولون بقِدَم الكلمة أي المسيح بن مريم، وقد صرّح بذلك الخليفة العباسي المأمون في كتابه الذي بعثه من الرقّة إلى رئيس شرطة بغداد إسحاق بن إبراهيم، يقول فيه: وضاهَوا به قول النصارى في ادّعائهم في عيسى بن مريم أنّه ليس بمخلوق إذ كان كلمة الله. تاريخ الطبري:١٩٨/٧، حوادث سنة ٢١٨هـ.

قال أبو زهرة: إنّ النصارى الذين كانوا في حاشية البيت الأموي وعلى رأسهم يوحنّا الدمشقي وغيرهم، كانوا يبثّون الشكوك بين المسلمين، فقد جاء في القرآن أنّ عيسى بن مريم كلمة الله ألقاها إلى مريم، فكان يبثّ بين المسلمين أنّ كلمة الله قديمة، فيسألهم: أكلمته قديمة أم لا؟ فإن قالوا: لا، فقد قالوا: إنّ كلامه مخلوق، ولعلّ القائل يريد مختلق ومفترى من باب المغالطة وإلاّ فالقول بأنّه مخلوق لله لا إشكال فيه. وإلاّ يصير إلهاً ثانياً كما قاله الإمام علي (عليه السلام).وإن قالوا: قديمة، ادّعى أنّ عيسى قديم. تاريخ المذاهب الإسلامية:٣٩٤/٢.

والحقّ، أنّ هذه المسألة لم تطرح في جو هادئ حتى تعالج بروح علمية، وإلاّ فهي أوضح من أن يختلف فيها اثنان، فماذا يريدون من قدم القرآن؟ هناك احتمالات:

١. الآيات التي تلاها أمين الوحي(عليه السلام)، أو النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) أو ما يتلوه القرّاء كلّ يوم.

٢. قدم معانيه والمفاهيم الواردة فيه.

٣. قدم علمه سبحانه بهذه المفاهيم.

أمّا الأوّل: فكيف يمكن أن يوصف بالقِدَم؟ فإنّ الكلام المؤلَّف من حروف مترتّبة متدرّجة، بعضها قبل وبعضها بعد،ولا يوجد في القدم تقدّم وتأخُّر، وإلاّ لكان المتأخِّر حادثاً والمفروض أنّه قديم، وعلى هذا فالحروف المؤلَّفة الدالّة على معنى تامّ بالوضع، لا

يُتصوَّر فيها قِدَم. الميزان في تفسير القرآن:١٤/٢٧٠.

وأمّا الثاني ـ أعني قِدَم المعاني والمفاهيم ـ : فإن أُريد به مصاديقها كالمغازي، والحوارات، والنزاعات الحاصلة بين النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)وأهل الكتاب، فلا شكّ أنّها حادثة غير قديمة.

وأمّا الثالث: فإن أُريد به علمه سبحانه بهذه المصاديق في الأزل فهذا يرجع إلى الاحتمال الثالث، فلا شكّ أنّ علمه قديم عين ذاته وليس حادثاً، وليس له صلة بقدم القرآن المتلوّ المكتوب.

وأمّا ما هو الحق فهو أنّ كلام الله تعالى محدَث، وبذلك جاءت الآثار عن آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، والمراد أنّ القرآن كلام الله ووحيه... ويمنع من إطلاق القول عليه أنّه مخلوق. وبهذا جاءت الآثار عن الصادقَين(عليهما السلام)وعليه كافّة الإماميّة إلاّ من شذّ. أوائل المقالات:١٨ـ ١٩.

ولعلّ المنع من إطلاق لفظة (مخلوق) على القرآن لأجل ما ربّما يوهِم كونه كذباً وافتراءً، حيث كان المشركون يصفونه بالاختلاق ويقولون (إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ) سورة ص:٧. ولو كنّا آمنين من وقوع هذا الوهم لقلنا بأنّ القرآن مخلوق لله سبحانه وليس بقديم وإلاّ للزم تعدّد القديم، وهو نفس القول بتعدّد الواجب.

يُشار إلى أنّه حتى ابن تيمية الذي قال بأنّ التكلُّم من صفات ذاته، ذهب إلى أنّ نوع التكلُّم قديم ومصاديقه حادثة، قال: وسابعها: قول من يقول: إنّه لم يزل متكلّماً إذا شاء بكلام يقوم به وهو متكلّم بصوت يُسمع، وإنّ نوع الكلام قديم وإن لم يجعل نفس الصوت المعيّن قديماً. وهذا هو المأثور عن أئمّة الحديث والسنّة، وبالجملة أهل السنّة والجماعة أهل الحديث. منهاج السنة:٢/٣٦٢.

ولا يخفى ما في كلامه من أنّ تكلّمه سبحانه قديم نوعاً، إذ تتوجّه إليه هذه المحذورات:

أوّلاً: إذا كان التكلّم الذي هو واقع وجوده الحدوث والتجدّد قائماً بالذات (كما هو المفروض في كلامه من أنّ التكلُّم من صفات الذات)، فلازم ذلك حدوث الذات، لأنّ حدوث الجزء يلازم حدوث الكلّ، إلاّ أن يرجع التكلّم إلى صفة الفعل، كما عليه العدلية من المعتزلة والشيعة.

ثانياً: كيف ينسب مختاره إلى جمهور المسلمين، مع أنّ جمهور المسلمين هم الأشاعرة والماتريدية والإمامية والمعتزلة، والجميع يتبرّأون من تلك النسبة، بل هم بُراء منها براءة يوسف ممّا اتّهم به، وهذا هو أبو المظفر الإسفرائيني(المتوفّى ٤٧١هـ) شيخ الأشاعرة في عصره يقول(عند بيان عقائد أهل السنّة والجماعة): وأن تعلم أنّ كلام الله تعالى ليس بحرف ولا صوت، لأنّ الحرف والصوت يتضمّنان جواز التقدّم والتأخّر، وذلك مستحيل على القديم سبحانه. التبصير في الدين:١٦٧، تحقيق كمال يوسف الحوت، طبعة عالم الكتب، بيروت.

ثالثاً: لو كان تكلّمه سبحانه مع كلّ فرد من المكلّفين بالحروف والأصوات، فلا يكون أسرع الحاسبين بل أبطأهم مع أنّه سبحانه يقول: (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) الأنعام:٦٢..

ثمّ إنّ الشيخ أبا الحسن الأشعريّ لمّا فسّر كلامه سبحانه بالكلام النفسي القائم بذاته سبحانه، قال: المسموع هو الكلام القديم، وكما أنّ ذاته تعالى لا تشبه سائر الأشياء، مع أنّ الدليل دلّ على أنّها معلومة ومرئيّة، فكذا كلامه منزّه عن مشابهة الحروف والأصوات مع أنّه مسموع. لاحظ : تفسير الرازي:٢٤/١٢١.

يلاحظ عليه: أنّ الجمع بين كون النداء من مقولة الكلام النفسي مع كونه مسموعاً لموسى، جَمْع بين الضدّين، فإنّ القائم بالذات ليس من مقولة الحروف والأصوات، والمسموع من تلك المقولة، فكيف يجمع بينهما؟! فيا لله وللوعي.

الآيات: السابعة إلى التاسعة(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ... لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ):

المفردات

أو لم يروا: أي أو لم ينظروا، بتضمين مفهوم النظر في الفعل بشهادة تعديته بحرف الجرّ «إلى».

زوج: الزوج: النوع أو الصنف، نظير قوله سبحانه: (وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) الرعد:٣. ، ونظيره أيضاً قوله: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى).(طه:٥٣.)

كريم: يحتمل أن يراد به المرضيّ في حسنه وجماله، أو فيما يتعلّق به من المنافع، أو النفيس من نوعه.

التفسير

٧. (أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ):

تحدّثت الآية الخامسة عن إعراض المشركين عن آيات الله، فناسب إراءة آية محكمة تدلّ على أنّه المدبّر وفي الوقت نفسه تدلّ على إمكان البعث، ولكنّهم بدل أن يتأمّلوا فيها ويستدلّوا بها على توحيده وربوبيّته كانوا يُعرضون عنها بل يكذّبون ويستهزئون، وبذلك صار وصفهم بالإعراض مقروناً بالدليل والبرهان، ولأجل ذلك ابتدأ الآية بالاستفهام الإنكاري وقال: (أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ): أي أو لم ينظروا إلى الأرض حتى يشاهدوا (كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا): أي في الأرض (مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ): أي صنف جامع للصفات الحسنة النافعة.فهذه هي الأشجار الخضراء المثمرة بأنواع مختلفة يشبه بعضه بعضاً، وهذه هي الأزهار التي تفغم الأنوف بشذاها، وأريجها العَبِق.

ونعم ما قال الشاعر في وصف النرجس:

تأمّل في رياض الورد وانظر *** إلى آثار ما صنعَ المليكُ
عيون من لُجَين شاخصات *** على أهدابها ذهب سبيكُ
على قُضُب الزّبَرجد شاهدات *** بأنّ الله ليس له شريكُ

وقال صفيّ الدين الحلّي:

رعى اللهُ ليلَتنا بالحِمى *** وأمواه أعينه الزاخره
وقد زين حسنُ سماء الغصون *** بأنجم أزهارها الزاهره
وللنّرجس الغضّ ما بيننا *** وجوه بحضرتنا ناضره
كأنّ تَحَدُّقَ أزهارها *** عيون إلى ربّها ناظره

كلّ ذلك يدلّ على أمرين:

١. أنّ المدبّر واحد، وهو الله سبحانه، ولا مدبّر غيره وإلاّ للزم التخلّف في التدبير بتعدّد المدبِّر.

٢. إمكان البعث وإحياء الموتى، فالله سبحانه يُحيي الأرض الميتة في كلّ سنة. فلو نظروا إلى هذه الآيات بعيون باحثة فاحصة، وقلوب مفتوحة للحقّ، لرجعوا عن كفرهم وضلالهم كما يقول:

٨ . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ):

إنّ الرؤية العلمية الفاحصة إلى المزارع والحقول تورث الإيمان بوحدة المدبِّر وإمكان البعث، كما يقول:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) وتنكير

آية للتعظيم، ولكنّ المشركين ـ يا للأسف ـ لا يؤمنون بهذه الآيات كما يقول: (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ): أي لا يصدّقون ولا يعترفون بها عناداً وتقليداً أعمى للأسلاف.

إنّما الكلام في موضع (كَانَ) فذهب سيبويه إلى أن (كَانَ) هنا مزيدة وتقدير الكلام: «وما أكثرهم مؤمنين». والأَولى أن يقال: إنّها للتأكيد. وقد نسب عدم الإيمان إلى الأكثر لأنّ بعضهم يؤمنون في المستقبل، ومعنى الفقرة أنّهم لا يؤمنون بهذه الآية ونظائرها.

ثمّ إنّ الآلوسي فسّر قوله سبحانه: (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) بقوله: أي وما كان في علم الله تعالى ذلك. روح المعاني:١٩/٦٢.

يلاحظ عليه: بأنّ ما ذكره على خلاف السياق، لأنّ الآية ناظرة إلى مشركي عصر الرسالة بشهادة قوله:(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا...)(الشعراء:٧.) فالإخبار عن سبق علمه سبحانه بعدم إيمانهم، في الأزَل، على خلاف السياق، فالقول بأنّ لفظ «كان» جاء للتأكيد، أفضل.

٩.(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ):

أي إنّ ربّك أمام هؤلاء المشركين قويّ لا يُغلب، ومع ذلك فهو عظيم الرحمة بعباده إن انتهوا عن كفرهم وظلمهم. وقدّم العزيز على الرحيم لاقتضاء المقام، فإنّ الكلام في مقابل المشركين، فالأنسب أن تذكر العزّة قبل الرحمة، والقدرة قبل الرأفة لئلاّ يُتوهَّم عجزُه عن عقوبتهم.

الآيات: العاشرة إلى السابعة عشرة(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ... أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ).

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ).

المفردات

نادى: يطلق النداء ويراد به الصوت المجرّد دون المعنى الذي يقتضيه تركيب الكلام. ويطلق أيضاً على المركّب الذي يُفهم منه المعنى انظر: المفردات في غريب القرآن:٤٨٦، مادة «ندا».، وهو المراد هنا. ونداء الله موسى عبارة عن الوحي إليه بكلام سمعه من غير واسطة مَلَك.

يضيق: الضيق: ضدّ السّعة، ولعلّه أراد الغضب.

ذنب: تَبِعة.

التفسير

١. قصة موسى (عليه السلام) وقومه

ذكر سبحانه قصة موسى(عليه السلام) على وجه التفصيل وهكذا قصة إبراهيم(عليه السلام)، كلّ ذلك تسلية للرسول وتحريضاً له (صلى الله عليه وآله وسلم) على الصبر، وليكون على ثقة مؤكّدة أنّه سبحانه سيؤيّده، وقال:

١٠ و١١. (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ):

قدّم سبحانه قصة موسى على إبراهيم(عليه السلام) مع سبق زمان الثاني وتأخّر زمان الأوّل، إمّا لأجل كون المشركين قريبي العهد بقصة موسى مع فرعون إضافة إلى وجود أتباعه(عليه السلام) (أعني: اليهود) في يثرب وخيبر وغيرهما، وإمّا لأجل وجود شبه كبير بين آل فرعون (الذين أُرسل إليهم موسى(عليه السلام)) وقوم نبيّنا الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) من حيث الأمراض الخلقية... تكبّراً وصلفاً وغطرسة، وإصراراً عنيداً على التكذيب بالمعجزات الباهرات التي زوّد الله تعالى بها كلا النبيّين(عليهما السلام).

قوله سبحانه: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى): أي اذكر إذ نادى ربّك موسى، والشاهد على تقدير «اذكر»، قوله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) الشعراء:٦٩.. ثم قال: (أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) هذا هو مضمون النداء، وعبّر في المقام بلفظة إئت، وفي مورد آخر: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) طه:٤٣.ولكلٍّ وجه، أمّا الأوّل فباعتبار أنّه سبحانه يرصد ظلم الظالمين فينادي موسى(عليه السلام) ويقول:(أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) وأمّا الأمر بالذهاب فباعتبار كونه مقتضى مقام الآمرية حيث إنّ الآمر يخاطب المأمور في هذه الموارد بقوله: إذهب. ثم إنّه سبحانه يركّز على عنوان الظالمين ويقول: (أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) تبييناً لعلّة الأمر بالإتيان ثم يعرّفهم بقوله: (قَوْمَ فِرْعَوْنَ) ثم يتمّ الآية بقوله:(أَلاَ يَتَّقُونَ)كلام مستأنف قاله سبحانه للإنذار وتسجيلاً عليهم بالظلم، أي أما آن لهم أن يتّقوا ويدفعوا عن أنفسهم عذاب الله تعالى؟ نظير قوله سبحانه: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ) الحديد:١٦..

١٢ و ١٣ و ١٤. (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ):

قرأ الجمهور قوله:(وَيَضِيقُ)و(وَلاَ يَنْطَلِقُ) بالرفع فيكونان عطفاً على (أَخَافُ) وقرأ غيرهم بالنصب فيكونان عطفاً على (يُكَذِّبُونِ)، فيكون المعنى: أخاف أن يكذّبون، وأخاف أن يضيق صدري ولا ينطلق لساني عندئذ، وبما أنّ السبب في طرح هذه العوائق التي تحول دون إنجاز ما كُلّف به على أكمل وجه، هو طلب تشريك أخيه هارون معه في الأمر كما سيوافيك، فعلى القراءة بالنصب يكون السبب في قوله:(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقَ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقَ لِسَانِي)أمراً واحداً، وهو الخوف من التكذيب الذي يترتّب عليه ضيق الصدر وطروء العقدة على اللسان في تلك الحالة(حالة إبلاغ الرسالة)، فيكون المعنى: ويضيق صدري من حين يكذّبوني ولا ينطلق لساني. وعندئذ يصبح موافقاً لما في سورة القصص حيث صار السبب أمراً واحداً، وهو خوف التكذيب فقط كما قال: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) القصص:٣٤..

هذا كلّه على قراءة النصب.

وأمّا على قراءة الرفع فيكون كلّ من التكذيب وضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان سبباً مستقلاً لما يطلبه، وعندئذ يكون معنى قوله: (وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي)هو عدم الانطلاق الموجود في لسانه منذ طفولته، لا عدم الانطلاق المترتّب على الخوف واستيلاء الغضب.

وعلى كلّ تقدير، فلأجل هذه العوائق قال(عليه السلام) مخاطباً ربّه: (فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ)قال موسى ذلك وهو في طريقه إلى مصر ـ و هارون كان في مصر ـ والمراد: أرسل ملَكاً بالوحي إلى هارون ليكون معي. انظر: التحرير والتنوير:١٩/١٢٢.

ثم أشار إلى عائق رابع وقال: (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ)إشارة إلى قتل القبطيّ في مصر الذي صار سبباً لخروجه من مصر ونزوله (مَدْين)، ووصفه بالذنب لأنّه بمعنى التَّبعة، فخاف(عليه السلام) من الشرّ الذي سيترتّب على فعله، بأن يقتصّوا منه، كما قال: (فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ).

وبما أنّه جعل الخوف من الاقتصاص منه عائقاً رابعاً أو ثانياً (على اختلاف القراءتين)، فهو يدلّ على أنّ العوائق الثلاثة التي قدّمها أيضاً لم تكن خوفاً من قتله بل خوفاً من عدم التمكّن من تأدية الرسالة، كما أنّ خوفه من القتل لم يكن خوفاً على نفسه بل خوفاً على فوات مصلحة الرسالة وانتشار أمرها، ولذلك نرى أنّه سبحانه يخاطب الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)بقوله: (وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)حتى يكون على ثقة من عدم قتله.

١٥. (قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ):

لمّا تقدّم قلق موسى(عليه السلام) من فوات مصلحة الرسالة، وافاه الجواب من الله سبحانه بأنّه يدفع عنهما شرّ الأعداء وقال: (قَالَ) سبحانه (كَلاَّ): أي ليس الأمر كذلك (فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا): أي المعاجز والدلائل الباهرة (إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ) يفسّره قوله سبحانه: (قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرى)، طه:٤٦. والخطاب في قوله: (مَعَكُمْ) لموسى وهارون مع أنّهما اثنان علّله سيبويه بأنّهما(عليهما السلام) لشرفهما وعظمتهما عند الله تعالى عوملا بالخطاب معاملة الجمع.(انظر: البحر المحيط:٨/٧ .)

ويمكن أن يقال: إنّ الاثنين وما فوقهما جماعة، ولا خصوصية لموسى وهارون (عليهما السلام)بشهادة أنّ ضمير التثنية تكرر في قوله: (فَاذْهَبَا)، (فَأْتِيَا)، (فَقُولاَ).

ثمّ إنّ المراد من المعيّة هي المعيّة القيّومية، فالله سبحانه مع عامّة المخلوقات بلا دخول فيها ولا خروج عنها تماماً، يقول سبحانه: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَة إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) المجادلة:٧. وسيأتي فيها مزيد بيان حول هذا الموضوع. وبما أنّ المجسّمة ومن يذهب مذهبهم تصوّروا أنّ الله سبحانه على العرش فوق السماوات، فسّروا المعيّة هنا بالمعيّة العلميّة.

١٦.(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ):

أفرد سبحانه الرسول ولم يقل: رسولا رب العالمين، وذلك باعتبار كلّ واحد منهما، وربّما يقال: بأنّ الرسول قد يكون في معنى الجمع، كما قال أبو ذؤيب الهذلي:

أَلِكْني إليها وخير الرسو *** ل أعلَمهم بنواحي الخبرْ

أي «وخير الرسل». التبيان في تفسير القرآن:١١/٨.

١٧. (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ):

بعد أن كلّفهما سبحانه بالذهاب إلى فرعون، أمرهما أن يبلّغاه هذا الأمر: (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا): أي أطلق (بَنِي إِسْرَائِيلَ) من إسارك واستعبادك لنذهب إلى فلسطين. قالوا: إنّ بني إسرائيل قد استُعبدوا أربعمئة سنة، وكانت عدّتهم حين أُرسل موسى(عليه السلام) ستمئة وثلاثين ألفاً.

وهذا القول فيه مبالغة واضحة، فلا ينبغي التعويل عليه.(انظر: تفسير المراغي: ١٩ / ٦٧ .)

الآيات: الثامنة عشرة إلى الثانية والعشرين(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا... أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ).

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ).

المفردات

نربّك: التربية تنشئة الشيء حالاً بعد حال.

وليداً: الوليد يقال لمن قرب عهده بالولادة، فإذا كبر الولد سقط عنه هذا الاسم.

تمُنّها: المِنّة :النعمة الثقيلة.

عبّدتَ: قال الراغب: عبّدت فلاناً إذا ذلّلته وأخذته عبداً.

التفسير

إنّ أُسلوب القرآن الكريم في نقل القصص هو حذف ما يُعلم من القرائن، ومثله المقام، فلمّا أمر الله سبحانه رسوليه بالذهاب إلى فرعون، فطبع الحال يقتضي أنّهما قاما بما أُمرا به، فعلى هذا فتقدير الكلام أنّهما أتيا فرعون وبلّغاه الرسالة على ما أمرهما الله تعالى به، فعندئذ قال فرعون مجيباً لموسى(عليه السلام) تاركاً مخاطبة هارون.

١٨. (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ):

طبع الحال يقتضي أنّ موسى أتمّ عليه الحجّة ولم يجد فرعون في مقارعة الحجّة إلاّ بشيء يرجع إلى ماضي موسى(عليه السلام) وإنعامه عليه، فذكر أُموراً ثلاثة:

الأوّل: (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا): أي ألم نحضنك وليداً ونربّك غلاماً.

الثاني: (وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ): أي أقمت في قصرنا أعواماً.

١٩. (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ):

هذا هو الأمر الثالث: أي أنّك قتلت منّا رجلاً وهربت خائفاً، أهكذا تجحد نعمتنا وتكفر بإحساننا وفي الوقت نفسه تدّعي أنّك رسول الله. أتريد أن تكون سيداً مطاعاً ونصير لك عباداً مطيعين؟

وبهذا تبيّن أنّه سبحانه رفع مقام موسى وأخيه هارون وجعلهما رسولين منه، وفي الوقت نفسه حاول فرعون أن يصغّر من قَدْر موسى بذكر إنعامه عليه حينما كان صغيراً، وذكرِ قتله القبطيّ.

٢٠ و ٢١.(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ):

قدّم موسى(عليه السلام) الإجابة عن الأمر الثالث الذي قدح به فرعون في نبوّته(عليه السلام) وأخّر الجواب عن الأوّلَين، ولذلك قال: (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ).

ثمّ إنّ كثيراً من المفسّرين فسّروا قوله:(وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) بمعنى الجهل أو الغفلة عمّا يترتّب على هذا العمل، بمعنى أنّي كنت من الذاهلين عن معرفة أنّ وكزتي تؤدّي إلى القتل، بل إنّي قصدت بها الردع والتأديب، ولذلك لا يُعدّ ذنباً لي، لأنّ العَمْد هو الركن الأساسي من أركان الجناية عند أهل التشريع.

وربما يفسَّر الضلال بالنسيان، كما فُسّر به قوله تعالى: (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرى) البقرة:٢٨٢، فيكون المعنى: فعلتها ناسياً أنّ الوكز ممّا يُفضي إلى القتل عادةً.

وعلى هذا فمعنى قوله:(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ) هو: أنّه لمّا لم تكن لي بيّنة على أنّي لم أقصد قتل القبطيّ عمداً وإنّما انتهى إليه من غير اختيار، فلم أجد بُدّاً إلاّ الفرار منكم لئلاّ تعاملوني معاملة المجرم المتعمِّد (فـ) لذلك (فَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ)ولكن شاء سبحانه أن يتولاّني ـ بعد الفرار منكم ـ بالتكريم (فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا): أي علماً أُصيب به حقائق الأُمور وسداداً في الحكم عليها (وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) وهو جواب عن استغراب فرعون من أن يكون(عليه السلام) مبعوثاً سماوياً، مع أنّهم يعرفونه حقّ المعرفة، حيث نشأ في كنفهم.

ثم بدأ بالإجابة عن الأمرين الأوّلين ـ أعني: تربيته في قصر فرعون، ولبثه فيه سنين ـ فقال:

٢٢. (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ):

والكلام بصورة الاستفهام الإنكاري، وأصله: أتمنّ عليّ يا فرعون بتربيتك إيّاي وليداً ولبثي في قصرك سنين، مع أنّ هذا كان نتيجة جورك وظلمك واتّخاذك قومي بني إسرائيل عبيداً، حيث إنّ أُمّي خوفاً من جلاوزتك قذفتني في البحر حتى أدّى الأمر إلى أن أنشأ في قصرك وأُقيم بين أظهركم؟ وبذلك أُفحم فرعون، ولم يجد ما يقابل به الحجّة إلاّ تغيير مجرى الحوار إلى شيء آخر، كما

سيوافيك.

ثمّ إنّ جمع الضمير في (مِنْكُمْ) و (خِفْتُكُمْ) مع إفراده في (تَمُنُّهَا) و (عَبَّدْتَ) لأجل أنّ الخوف والفرار لم يكونا منه وحده بل منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله بدليل قوله: (إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ) القصص:٢٠. ، وأمّا الامتنان والتعبيد فمنه وحده.(تفسير الكشّاف: ١١١/٣.)

ولإلقاء مزيد من ضوء التفسير على هذه المجموعة من الآيات، ننقل هنا ما قاله السيّد الطباطبائي في هذا المجال، ملخّصاً في أمرين:

الأوّل: أنّ تفسير الضلال بالجهل أو النسيان على النحو المذكور اعتراف بالجرم والمعصية، وآيات سورة القصص ناصّة على أنّ الله سبحانه آتاه حكماً وعلماً قبل واقعة القتل، وهذا لا يجامع الضلال بهذا المعنى من الجهل. الميزان في تفسير القرآن:٢٦٢/١٥ـ٢٦٣.

أقول: قد عنى(رحمه الله) بآيات سورة القصص قوله تعالى:(لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَة مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ).(القصص:١٤ و ١٥.)

ثمّ إنّه(قدس سره) فسّر الآية بما حاصله: أنّ موسى(عليه السلام) تكلّم بكلام أشبه بالمعارضة والتورية، فمن جانب لم يعترف بالجرم والمعصية ومن جانب آخر أقنع فرعون، يقول: إنّ قوله:(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا)من تمام الجواب عن القتل فيتقابل الحكم والضلال، ويتّضح حينئذ أنّ المراد بالضلال الجهل المقابل للحكم، والحكم إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في تطبيق العمل عليه، فيرجع معناه إلى القضاء الحق في حسن الفعل وقبحه وتطبيق العمل عليه، وهذا هو الذي كان يؤتاه الأنبياء، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ) النساء:٦٤. فالمراد أنّي فعلتهاحينئذ والحال أنّي في ضلال من الجهل بجهة المصلحة فيه والحقّ الذي يجب أن يُتّبع هناك، فأقدمت على الدفاع عمّن استنصرني، ولم أعلم أنّه يؤدّي إلى قتل الرجل، ويؤدّي ذلك إلى عاقبة وخيمة تُحوجني إلى خروجي من مصر وفراري إلى مَدين والتغرّب عن الوطن سنين. الميزان في تفسير القرآن:٢٦٢/١٥.

الثاني: قوله: (وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) جواب عن قول فرعون: (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) الذي يريد به الاعتراض عليه من جهة دعواه الرسالة. وذكر في وجه كونه جواباً عن الأمرين (التربية، واللّبث فيهم مدّة طويلة) هو أنّ المعترض زعم أنّ الرسالة أمر اكتسابي، فعندئذ كيف يكون موسى(عليه السلام)رسولاً مع أنّه عاش بين ظهرانينا إذ كان في رعاية بلاط فرعون وعاش فيه إلى أن صار رجلاً مكتملاً، فأجاب موسى بأنّ رسالته ممّا وهبه الله سبحانه له وليست اكتسابية فلا منافاة بين الأمرين وكونه رسولاً من الله سبحانه. لاحظ: الميزان في تفسير القرآن:٢٦٤/١٥.

الآيات: الثالثة والعشرون إلى الثالثة والثلاثين(قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ... فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ).

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ *قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ *فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ *وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ *

المفردات

ثُعبان: الثعبان: الحيّة العظيمة.

التفسير

إذا أمعن القارئ النظر في هذه المجموعة من الآيات وما قبلها يجد أنّها تشتمل على حوارات متعدّدة جرت بين موسى(عليه السلام) وفرعون، وعلى بعض المواقف المهمّة، وكما يلي:

الأوّل: حينما قال موسى(عليه السلام): (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) اعترض عليه فرعون بقوله:(أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا) .

الثاني: لمّا(قَالَ) فرعون: (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) أجابه موسى(عليه السلام): (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا).

الثالث: عندما(قَالَ) فرعون: (لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ) إنكاراً لجواب موسى وإشارة إلى خفّة عقله، أجابه موسى (عليه السلام): (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ).

الرابع: لمّا(قَالَ) فرعون: (إِنَّ رَسُولَكُمُ الذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)أجاب موسى (عليه السلام):(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا).

الخامس: لمّا ضاق صدر فرعون بالحوار تهدّد موسى بقوله:(لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) فأجابه(عليه السلام): (أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْء مُبِين).

السادس: حينما قال موسى(عليه السلام) لفرعون: (أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْء مُبِين)أجابه فرعون بقوله:(فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)، وعندئذ أبدى موسى ما آتاه ربّه من تلك المعجزتين الباهرتين(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ). وهنا قطع فرعون كلامه مع موسى وتحوّل إلى الملأ، متّهماً موسى بما سيأتي ذكره.

وبما أنّهم استسلموا لقول فرعون بأنّ ما أتى به موسى هو سحر، قاموا بدعوة السحرة للإتيان بمثله، على ما سيأتي تفسيره في المجموعة التالية.

بعد أن وقفنا على رؤوس هذه الحوارات والمواقف، نشرع الآن ببيان صلة الأجوبة بالأسئلة الواردة فيها، من خلال تفسير الآيات التي اشتملت عليها.

٢٣. (قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ):

لمّا قارع موسى(عليه السلام) اعتراض فرعون بحجج دامغة، حوّل فرعون وجه الكلام إلى أمر آخر وهو أنّ موسى(عليه السلام) لما عرّف نفسه في الآية رقم ١٦ بقوله:(إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) صار هذا سبباً لسؤال فرعون عن حقيقة ربّ العالمين. ولمّا كان الوقوف على حقيقته أمراً محالاً على البشر (إذ كنهُه في غاية الخفاء) عاد موسى إلى بيان أوصافه من أنّه (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) أو (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ) أو (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا).

ويظهر من الرازي أنّ الحوار بين موسى(عليه السلام) وطاغية مصر يدور حول إثبات الصانع ولذلك ذكر احتمالات، نذكر منها ما يلي:

١. أنّ إنكاره وجود ربّ العالمين كان أمراً ظاهرياً، فإنّه كان عارفاً بالله لكنّه كان يستأكل قومه بما يظهره من إلهيّته.

٢. أنّه كان على مذهب الدهرية من أنّ الأفلاك واجبة الوجود في ذواتها ومتحرّكة لذواتها وأنّ حركاتها أسباب لحصول الحوادث في هذا العالم. تفسير الرازي:١٢٧/٢٤ـ ١٢٨.

وحاصل بعض احتمالاته أنّ الحوار كان يدور في وجود الصانع وإثباته من جانب موسى(عليه السلام)وإنكاره من جانب فرعون.

ولا يخفى أنّ تفسير الأسئلة والأجوبة بهذا النحو الذي ذكره ويذكره كثير من المفسّرين لا ينسجم مع ما هو المعروف من عقيدة الوثنيّين في حقّه سبحانه، فإنّ الاعتقاد بوجود خالق واحد واجب الوجود لم يكن أمراً مختلَفاً فيه، ولم يكن فرعون ولا أتباعه منكرين له، إذ لا يوجد في صحيفة الكون بين الوثنيّين من ينكر وجود واجب الوجود الذي لا يُحدّ ولا يعرف كنهه حتى يسأل عن فرعون ويجيب موسى ببيان صفاته. فعلى ما ذكره المفسّرون يكون الحوار أمراً لغواً، إذ ليس القول بأنّه ربّ العالمين بهذا المعنى

أي خالق الكون بأجمعه مورد إنكار حتى يقوم موسى ببيان أوصافه، فلذلك يلزم تفسير قول موسى(عليه السلام)وسؤال فرعون بشكل ينسجم مع عقيدة الوثنيّين، ويدور الحوار حول أمر يثبته موسى وينكره فرعون، ولذلك عمد السيد الطباطبائي إلى تفسير الحوارات بشكل منسجم مع عقيدة الوثنيّين ونحن نأتي به ببيان منّا:

اتّفقت الوثنية على وجود خالق للكون، لكنّه منعزل عن التدبير وإنّما التدبير بيد موجودات نورية أو نارية كالملائكة والجنّ، وقد عدّوا منهم الملوك وأصحاب السلطة وأنّ بيدهم التدبير فإذاً فالنقطة التي كان النبي موسى(عليه السلام) وفرعون يتعارضان فيها هي ربوبية موجود واحد يتكفّل بتدبير العالم، هذا ما يدّعيه موسى(عليه السلام) ويقول: (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ويستنكره فرعون ويقول:(وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ): أي ما معنى وجود موجود يتكفّل بتدبير العالم كلّه ويلغي تدبير سائر الآلهة التي منهم: أنا .

وربّما يُستغرب أنّ فرعون يدّعي من جانب أنّه الرب الأعلى ويقول: (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) النازعات:٢٤.ومن جانب آخر يوصي الملأ فرعون بقتل موسى ويقول: (وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ) الأعراف:١٢٧، أي يستغرب كيف يكون رباً أعلى من جانب، ومن جانب آخر له آلهة، ولكنّ الاستغراب يرتفع إذا درس عقائد الوثنيّين فإنّ وجود خالق الكون لم يكن مورد اختلاف وإنّما الوثنية مبنية على تقسيم ربوبية العالمين بين الموجودات ولا مانع من كون فرعون ربّاً أعلى بالنسبة إلى الفراعنة ومدبّراً لهم، وفي الوقت نفسه له آلهة يعبدها أرفع منه وأفضل. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٥/٢٦٦ـ٢٦٧.

وبذلك ظهر أنّ ادّعاء موسى(عليه السلام) (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) على طرف النقيض من عقيدة الوثنيين ومنهم فرعون لذلك استنكر وقال: (وَما رَبُّ الْعَالَمِينَ) الذي بوحدته يدبّر الكون أجمع.

وكان في قول موسى (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) دلالة ضمنية على التوحيد الرُّبوبي لأنّ انسجام العالمين واتّصال أجزائها ودعم بعضها بعضاً يدلّ على وحدة الربّ المدبّر، ولمّا لم يقف فرعون على وجه الدلالة أوضحه النبيّ موسى في الآية التالية:

٢٤. (قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ):

إنّ الدليل الواضح على وحدة المدبّر هو الانسجام والاتصال الوطيد بين السماوات والأرض والموجود بينهما، فوحدة التدبير والاتّصال تحكي عن وحدة المدبّر، فقال: (رَبّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ): أي مدبّر السماوات والأرض على سعتها والأرض وما بينهما، فالتدبير الوحيد يشهد على أنّ لها مدبّراً واحداً، لكن لا يفهمه إلاّ الموقنون السالكون سبيل اليقين، وإليه أشار بقوله:(إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ).

٢٥ و ٢٦.(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ):

قد وقف فرعون بدهائه على برهان موسى(عليه السلام) على وحدة المدبِّر، وقد شطب على ألوهية سائر الآلهة المكذوبة ومنهم فرعون حيث لا يمكن تقسيم التدبير في هذا العالم العظيم بين الآلهة إذ يورث ذلك اختلال النظام وفساد العالم، ولذلك اتّجه فرعون إلى التمويه على الحقّ الذي لاح من كلام موسى(عليه السلام) فـ (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ) حيث يدّعي رسالة ربّ العالمين، فعندما أسأله عن (ربّ العالمين) يقول: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) حيث يعرّف نفسه أنّه رسول رب العالمين!! فإذا سألته (مَا رب العالمين)؟ يجيبني بقوله: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) هو نفس ربّ العالمين!! وعندئذ جاء موسى بجواب ثالث وقال: (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ) بأنّه ربّ صحيفة الوجود حتى أنّه ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين، أي ربّ الإنسانية من الأقدمين الغائبين إلى الموجودين الحاضرين.

وبذلك جاءت الأجوبة الثلاثة منصبّة على أمر واحد، فسواء أقال ربّ العالمين أو ربّ السماوات والأرض أو (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ) فالجميع إشارة إلى أنّ التدبير منصبّ على الموجودات والاتصال بين أجزاء العوالم وعدم طروء الاختلال . وهذا كلّه أوضح دليل على بطلان الوثنية وتقسيم التدبير بين المخلوقات الممكنة.

وصف موسى (عليه السلام)بالجنون
٢٧ و ٢٨.(قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ): أشار فرعون إشارة خفيّة إلى الاختلال في عقل المدّعي حيث قال: (أَلاَ تَسْتَمِعُونَ)، ثم ثار غيظه فصار يصرّح بذلك ويقول: (إِنَّ رَسُولَكُمُ الذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) وشهادة جنونه أنّه لا يجيب على السؤال بصورة واضحة مطابقة له، بل يبدّل لفظاً مكان لفظ، فتارة يقول: (رَبُّ العالَمين)وأُخرى(رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ). أمّا موسى(عليه السلام) فلم يعتدّ باتّهام فرعون له بالجنون، بل استمرّ في استدلاله على أنّ للكون ربّاً واحداً وقال:(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)وأراد بالمشرق والمغرب شروق الشمس وغروبها وطلوع الأجرام النيـّرة وغروبها على نظام خاص، كلّ ذلك يدلّ على وجود التدبير في العالم تدبيراً منسجماً متّسقاً يتّصل بعضه بالبعض الآخر، فكيف تدّعي أنت يا فرعون أنّك أنت المدبِّر؟! أو أنّ هاهنا آلهة مدبّرات؟! إذ لو كان تدبير العالم مفوّضاً إلى عقول مختلفة وذوات متباينة تكون النتيجة وجود الاختلاف في التدبير، ولذلك أتمّ كلامه بقوله: (إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)فلو تعقّلتم فيما ذكرت من الإجمال إلى التفصيل من ربّ العالمين إلى ربّ السماوات والأرض، إلى ربّكم وربّ آبائكم وربّ المشرق والمغرب، لوقفتم على أنّه لا إله إلاّ الله ولا معبود سواه ولا مدبِّر إلاّ هو، فلذا يجب أن تطرح هذه الاعتقادات في سلّة المهملات، وتؤمنون بالله الواحد. ولمّا بلغ الأمر إلى هذا الحدّ لم يجد فرعون بُدّاً من مقارعة منطق موسى(عليه السلام) بالقوّة، إذ لم يجد في نفسه شيئاً يفحم به موسى(عليه السلام) إلاّ أن يهدّده بالسجن.
تهديد موسى (عليه السلام)بالسجن
٢٩. (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ): أي لو كنت مصرّاً على أنّك رسول من ربّ العالمين تاركاً أُلوهيّتي كما قال:(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي) وهو كناية عن ترك أُلوهية فرعون : (لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) الذين اشتهر سوء حالهم ومصيرهم. إذ فرق بين أن يقول: أعتقلك، وبين أن يقول: لأجعلنّك من المعتقلين الذين عرفتَ أحوالهم، حيث يُطرح المسجون في بئر عميقة فرداً لا يُبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أشدّ من القتل. تفسير الرازي:٢٤/٢٣١. ولمّا وقف موسى على أنّ التهديد أمر جدّي التجأ إلى منطق آخر وهو إظهار آيتين من الخوارق التي تدلّ على صدق ارتباطه بعالم الغيب، حتى يبهر عيون الملأ ويدهش عقولهم. ٣٠ و ٣١. (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ): وكأنّه يريد أن يقول: كيف تجعلني من المسجونين، مع أنّ دعوتي مقرونة بدلائل واضحة تورث الإيمان بصدق كلامي وهو الإتيان بخوارق العادات التي لا يقدر أحد من الناس على معارضتها ومخالفتها، كما قال:(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)؟ ولم يكن ببال فرعون أنّ موسى(عليه السلام)يملك برهاناً ساطعاً على نبوّته ولذلك جعل ردّه على طلب الإتيان بآية بصيغة الشكّ، و(قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)والآية تدلّ على أنّ تلك الحالة، هي الأُولى التي يشاهد فيها فرعون تلكما المعجزتين اللّتين أُوتيهما موسى(عليه السلام)ليلة الطور. ٣٢ و ٣٣. (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ): كان فرعون والملأ الذين حوله قد رأوا كيف تبدّلت العصا اليابسة إلى حيّة عظيمة كما قال: (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ) فوصف الثعبان بالمبين أي أنّه حيّة عظيمة حقيقية لا تمويه فيها ولا تخييل، ولا يختلف في حقيقتها اثنان.

وهاهنا سؤال: وهو أنّه سبحانه وصف معجزة موسى (عليه السلام)هنا بأنّها:(ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)، وفي سورة أُخرى بأنّها (حَيَّةٌ تَسْعَى) طه:٢٠. وفي سورة ثالثة: (كَأَنَّهَا جَانٌّ)(النمل:١٠) والجانّ: الحيّة الصغيرة، والثعبان: الحيّة الضخمة، فكيف يتمّ التوفيق بينها؟

والجواب: الحيّة اسم جنس يشمل الثعبان والجانّ، فهي ثعبان في ضخامته وعظمه، ولذلك ابتلع ما جاء به السحرة، ولكنّه يشبه الجانّ في اضطرابه وخفّة حركته.

ولم يقتصر موسى(عليه السلام) على ذلك بل (وَنَزَعَ يَدَهُ): أي بعد أن أدخلها في جَيبه كما يقول: (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ) النمل:١٢، (فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ) متلألئة كشعاع الشمس (لِلنَّاظِرِينَ) إليها. ولعلّ فرعون قال لموسى هل لك وراءها آية أُخرى قال: نعم(وَنَزَعَ يَدَهُ).

الآيات: الرابعة والثلاثون إلى الثانية والأربعين(قَالَ لِلْمَلاَ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا ... وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ).

(قَالَ لِلْمَلاَ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّار عَلِيم * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْم مَعْلُوم * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لاَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ).

المفردات

الملأ: أشراف القوم.

عليم: خبير في فنّ السّحر، حاذق في تلك الصنعة.

فماذا تأمرون: أي بِمَ تشيرون؟ والعجب أنّ فرعون يقول: (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) فيعرّف نفسه عبداً يأتمر بأمر الموالي، والظاهر أنّه بمشاهدة هاتين الآيتين أخذته الهزّة وأحسّ بالحقارة فنسي أنّه ملك من شأنّه الأمر لا الائتمار. وهذا حال سائر الجبابرة إذا استنزلوا عن قمّة العزّة، ولذلك يفسّرونه بـ «تشيرون».

أرجِهْ وأخاه: مشتق من الإرجاء، وهو التأخير، والقراءة المعروفة: (أرجه)، والأصل (أرجِئه): أي أخِّر أمر موسى وأخيه ولا تعاجلهما بالعقوبة.

حاشرين: الحَشر: الجَمْع والسَّوْق.

سحّار: مَن يتعاطى السِّحر.

التفسير

٣٤. (قَالَ لِلْمَلأ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ):

لمّا خرج موسى(عليه السلام) مرفوع الرأس بعد ذلك الحوار، وخاف فرعون من أن يتأثّر الملأـ وهم وزراؤه وأهل بلاطه ـ بما شاهدوا من المعجزتين، بادر إلى وصف ما أتى به موسى(عليه السلام) بالسحر و(قَالَ لِلْمَلأ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) فقد عرّف موسى بأنّه ساحر حاذق.

ولم يُرد فرعون بقوله: (عَلِيمٌ) مدح موسى(عليه السلام)، وإنّما أراد به التأكيد على مهارته في السّحر لئلاّ يتأثّر الملأ بموسى(عليه السلام) ويدركوا أنّ ما جاء به من آيات الله ربّ العالمين.

هذا، ويظهر من موضع آخر في القرآن أنّ الملأ وصفوه بالساحر العليم، قال تعالى:(قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) الأعراف:١٠٩. ولا منافاة بينهما، وذلك بالبيان الآتي: أنّ فرعون ابتدأ بإطلاق هذه التهمة، فأيّده فيها الملأ وبادروا إلى ترديدها

بعده تزلّفاً إليه، كما هو شأن حاشية كلّ طاغ مستبدّ، حيث يُعربون عن التسليم المطلق لكلّ ما يقول دفاعاً عن مصالحهم الشخصية، وخوفاً عليها من الذهاب.

٣٥. (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ):

حاول فرعون أن يثبت أنّ الغاية من إعمال هذا السحر أن يأخذ بقلوب الناس حتى يكثر أعوانه وأتباعه ويغلبكم على دولتكم ويسيطر على بلادكم ويطردكم منها، كما يقول: (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ)ومعلوم أنّ مفارقة الوطن أصعب الأُمور، فنفّرهم عنه بذلك، وهذا نهاية ما يفعله المبطل في التنفير من الحق، فعندئذ خاطب الملأ بقوله: (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ): أي بماذا تشيرون؟ وبذلك حاول إشراكهم في مقابل هذه الظاهرة حتى يحرّضهم ضد موسى(عليه السلام).

٣٦. (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ):

لمّا طلب فرعون مشورة الملأ(قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ): أي اتّفقوا على أمر واحد وهو أن يؤخّر أمر موسى وأخيه ولا يعاجلهما بالعقوبة (وَابْعَثْ)عساكرك (فِي الْمَدَائِنِ) التي تحت سلطتك في مصر (حَاشِرِينَ): أي جامعين، من الحشر بمعنى الإخراج إلى مكان بإزعاج أي يُخرجون السَّحَرة بالإكراه.

٣٧. (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ):

أي يأتونك بكلّ من وجدوه أنّه سحّار حاذق وقال:(سَحَّار) ولم يقل «ساحر» إشارة إلى حذقه ومهارته. وروي أنّ فرعون أراد قتله فقال الملأ: لا تفعل فإنّك إن قتلته أدخلت على الناس في أمره شبهة، ولكن أرجئه وأخاه إلى اليوم المعلوم. تفسير الرازي:٢٤/١٣٢.

٣٨. (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ):

قد أشرنا غير مرّة إلى أنّ القرآن الكريم يذكر ما هو المهمّ من القصة وأمّا ما يُعلم من القرائن فلا يذكره، ولذلك ففي الآية إيجاز وتلخيص بشهادة ما جاء في سورة طه، يقول:(قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) طه:٥٧ـ ٥٩. فقوله سبحانه في المقام: (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)فيه إيجاز وإجمال لما جاء في سورة طه.

والعطف بالفاء في قوله: (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ) دليل على أنّ إحضار السحرة وقع في أسرع وقت فصاروا حاضرين (لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ): أي الموعد الذي حُدّد له وقت معيَّن للمباراة، وهو يوم الزينة المذكور في سورة طه.

٣٩. (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ):

بما أنّ جمع السحرة لم يُعيّن فاعله: (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ) فهكذا لم يذكر فاعل مَن خاطب الناس وأعلن نبأ المبارة، كما قال:(وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ) وكأنّ الجامع خصوصاً القائل، إنسان محايد يريد اكتشاف الحقيقة، ولذلك فهو يدعو الناس إلى الاجتماع على سبيل العرض لا الإلزام، ثم يقول:

٤٠. (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ):

والمراد باتّباع السحرة اتّباعهم في دينهم، ومن المعلوم أنّهم كانوا متظاهرين بعبادة فرعون، قال الزمخشري: في دينهم إن غلبوا موسى ولا نتّبع موسى في دينه وليس غرضهم باتّباع السحرة، وإنّما الغرض الكلّي ألاّ يتّبعوا موسى، فساقوا الكلام مساق الكناية لأنّهم إذا اتّبعوهم لم يكونوا متّبعين لموسى(عليه السلام) تفسير الكشّاف:٣/١١٤..

٤١ و ٤٢. (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ):

جاء مضمون هاتين الآيتين في سورة الأعراف بالنحو التالي:(وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) الأعراف:١١٣ـ ١١٤..

والاختلاف أنّ لفظة «إنّ» مقرونة بهمزة الاستفهام في المقام كما قال: (أَئِنَّ) ومجرّدة عنها في سورة الأعراف.

وقُرن قوله: (لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) بإذاً في سورتنا هذه، حيث قال: (إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) وجُرّد عنها في سورة الأعراف وقال: (وَإِنّكُم لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) فجاء الجواب في هاتين الآيتين أكمل ممّا في سورة الأعراف، وهو أنّ كونهم مقرَّبين مشروط بالغلبة. وأُريد بالقربى أنّهم سيكونون من خاصّته وذوي الجاه لديه.

الآيات: الثالثة والأربعون إلى الحادية والخمسين(قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا ... أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ).

(قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ).

المفردات

بعزة فرعون: العزّة: القوّة التي يمتنع بها من لحاق ضيم لعلوّ منزلتها.

عصيّهم: العِصيّ: جمع عصا.

تلقف: تبتلع بسرعة.

يأفكون: الإفك هو صرف الشيء عن واقعه، حيث إنّ السحرة بسحرهم يقلبون الشيء عن وجهه الواقعي إلى وجهه المتوهَّم.

من خلاف: أي قطع الأيدي اليمنى والأرجل اليسرى.

لا ضَير: لا ضرر.

منقلبون: راجعون.

التفسير

٤٣. (قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ):

يظهر من قوله: (قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ) أنّ موسى طلب منهم الإلقاء، وقال:(أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ) غير أنّ الظاهر ممّا في سورة الأعراف أنّ موسى(عليه السلام) طلب منهم الإلقاء بعد أن خيّروه قائلين: (إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) الأعراف:١١٥.، ولم يذكر هذا في سورتنا هذه للاختصار.

وهاهنا سؤال: كيف جاز لموسى(عليه السلام) أن يأمر السحرة بإلقاء الحبال والعصيّ وذلك سحر وتلبيس وكفر، والأمر بمثله لا يجوز؟

والجواب: إنّ الأمر بالإلقاء لم يكن مقصوداً بنفسه، حتى يكون أمراً غير جائز، بل كان هذا مقدّمة لإرشاد الناس وكشف تمويه السحرة وإبطال كيدهم، فلا محيص إلاّ أن يأمرهم بالإلقاء لكي يتبعه الإبطال، وهذا نظير حوار المحقّ مع المبطل، حيث يفسح المجال له حتى يبطله في أعين الناس ومسامعهم.

٤٤. (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ):

أي طرحوا ما كان معهم من الحبال والعصيّ (وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) وهذا من كلام السَّحَرة.

ولم يذكر في الآية كيفية سحرهم غير أنّه سبحانه وصف سحرهم في آية أُخرى بقوله: (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) الأعراف:١١٦، وفي سورة طه قال تعالى: (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى). (طه:٦٦).

٤٥.(فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ):

يظهر من قوله سبحانه في سورة طه أنّ الله سبحانه أوحى إليه بالإلقاء حيث يقول: (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى). طه:٦٩.

يقول المفسّرون: لمّا ألقى عصاه صارت حيّة، فطافت حول الصفوف حتّى رآها الناس كلّهم، ثمّ قصدت الحبال والعِصيّ فابتلعتها كلّها على كثرتها، ثم أخذها موسى فعادت عصاً كما كانت.

٤٦. (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ):

وعندما تناولت حيّة موسى حبالهم وعصيّهم بسرعة وابتلعتها ثم عادت إلى صورتها الأُولى، أذعن السَّحرة أنّ الذي جاء به موسى خارج عن حدود السحر، وذلك لأنّهم كانوا عارفين بواقع السحر، وأدركوا أنّ ما أتى به راجع إلى قوّة إلهية وأنّه غلبهم بتلك القوّة، ولذلك سجدوا لربّ العالمين كما يقول: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ) لأنّهم وقفوا على أنّه مبعوث من الله سبحانه فخرّوا سُجّداً لله.

٤٧ و ٤٨. (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ):

أي (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) الذي دعا إليه موسى وأنّ للكون ربّاً واحداً؛ لأنّ ما في الكون مربوبون. ثمّ أتمّوا كلامهم بقولهم: (رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ).

وهم بهذا القول قد عزلوا فرعون عن الربوبية، وخلعوا العزّة التي صنعها لنفسه، وبذلك حصحص الحقّ وبان الصبح لكلّ ذي عينين.

ومن المعلوم أنّ إيمان السَّحرة في يوم الزينة الذي اجتمع الناس فيه للتعرّف على الحقّ صار دليلاً قاطعاً على بطلان ما يدّعيه الفراعنة، عبر سنين متمادية، من الربوبية، ولذلك ثار غضبه،وانطلق يهدّد السَّحرة.

تهديد فرعون السحرة

٤٩. (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ):

إنّ الطواغيت حينما تنقطع بهم السبل يتوسّلون بأُمور:

١. تجريم من يؤمن بما هو على خلاف عقيدتهم قبل إذنهم:(آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ).

٢. منطق القوّة والتهديد بالقتل، كما قال:(لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ).

٣. توجيه عملهم واتّهامهم بالافتراء والتآمر، كما قال: (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ).

وأين موسى(عليه السلام) من هؤلاء السَّحرة حتى يكون كبيرهم الذي علمهم السِّحر، فقد كان بعيداً عن مصر مقيماً في (مَدْين) وقد دخل مصر قبل أيام، وهؤلاء السَّحرة كانوا منتشرين في مدن مصر بعيداً عن العاصمة، فكيف يمكن أن يكون موسى(عليه السلام)معلّماً وهؤلاء متعلّمين؟!

والأعجب من ذلك اعتراضه على السَّحرة بأنّهم آمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم فرعون، فكأنّ التديّن بشيء فرع إذن الملك فهو مالك الرّقاب والأرواح والأعمال القلبية. وأمّا أنّه هل قام بما أوعدهم به أو لا؟ فلا يظهر من الآيات شيء.

جواب السحرة لفرعون

٥٠ و ٥١. (قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ):

لمّا أوعد فرعون السَّحرة بأمرين شديدين وهما: قطع الأيدي والأرجل من خلاف ثم الصَّلب على جذوع النخل، وكان إيمان السحرة بصحّة دعوة موسى(عليه السلام) إيماناً راسخاً في القلوب، قاموا بوجه فرعون و(قَالُوا لاَ ضَيْرَ) لا ضرر،أي لا يضرّنا وعيدك، إذ ليس تعذيبك إلاّ عدّة لحظات سوف تنتهي إلى النعيم الدائم كما يقول: (إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)راجعون، وبما أنّ السَّحرة صرفوا مقداراً من أعمارهم في الوثنية وقد ظهرت علائم بطلانها، طلبوا من الله سبحانه أن يغفر لهم ما ارتكبوا من الخطايا كما قال: (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا). ولفظ (نَطْمَعُ)يستعمل في الظنّ الراجح (أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)من أتباع فرعون بربوبيّته سبحانه، وبموسى مرسَلاً منه تعالى.

ثمّ إنّ المعنى المتبادر من قولهم: (إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)هو الرجوع إلى إلهيّة ربّ العالمين وترك الاعتقاد بإلهيّة فرعون، وأنّ إيمانهم وسجودهم لله أمام فرعون يدلّ على طهارة فطرتهم وأنّهم كانوا مستعدّين للهداية الإلهية، غير أنّ الرازي غلا في حقّهم وفسّر قولهم:(إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) بقوله: فيه نكتة شريفة وهي أنّهم بلغوا في حبّ الله تعالى أنّهم ما أرادوا شيئاً سوى الوصول إلى حضرته، وأنّهم ما آمنوا رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب، وإنّما مقصودهم محض الوصول إلى مرضاته والاستغراق في أنوار معرفته، وهذا أعلى درجات الصدّيقين. تفسير الرازي:١٣٦/٢٤.

ولا يخفى أنّ ما ذكره الرازي لا يخلو من غلوّ.

قوله: (أَنْ) وما في حيّزها منصوب بحذف الخافض، أي: لأن كنّا، فهو بمنزلة التعليل للطمع والظنّ بأن يغفر ربّهم خطاياهم، لأجل أنّهم صاروا أوّل المؤمنين.

الآيات: الثانية والخمسون إلى الثامنة والستين(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ... الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّات وَعُيُون * وَكُنُوز وَمَقَام كَرِيم * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْق كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

المفردات

أَسرِ: سِرْ بهم ليلاً.

متَّبعون: يتبعكم فرعون بجنده.

لَشِرذمة: الشِّرذمة: جمعه شراذم، الطائفة القليلة من الناس.

غائظون: فاعلون ما يغيظنا. والغيظ: شدّة الغضب.

حاذرون: جمع حاذِر، وهو المُحترِز المتيقِّظ.

فأتبعوهم: فلَحِقوهم.

مُشرقين: داخلين في وقت شروق الشمس، أو قاصدين جهة الشرق، يقال: أشرق فلان إذا دخل في أرض الشرق .

الجَمعان:الفريقان.

لَمدرَكون: لَمُلحَقون.

انفلق: انشقّ.

فِرْق: الفِرْق: القطعة المنفصلة من الشيء.

كالطود: الطَّوْد: الجبل.

أزلفنا: قرّبنا.

التفسير

٥٢. (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ):

أوحى الله سبحانه إلى موسى(عليه السلام) أن يقود بني إسرائيل ويهاجر بهم ليلاً لئلاّ يطّلع جلاوزة فرعون على خروجهم كما يقول: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي)، ولكن أخبره بأنّهم (مُتَّبَعُونَ): أي سيتبعكم فرعون بجنده ليمنعوكم من الرحيل عن مصر.

ولا يخفى أنّ الآية تشير إلى قصة أُخرى، بينها وبين ما سبق فصول لم تذكر في هذه السورة، حيث إنّه بعد ما خرج موسى(عليه السلام) من ساحة المباراة منتصراً وآمن به السَّحرة، وقعت رجّة في مصر وتداولت الألسن الأخبار، ومع ذلك بقي موسى سنين في مصر يطلب إطلاق بني إسرائيل حتى يمضي بهم إلى الأرض الموعودة، والذي يشهد على ذلك أنّ بين الأمر بالإسراء وبين ايمان السَّحرة أحداثاً كثيرة لم تُذكر هنا، وقد أشار إليها سبحانه في غير واحدة من السور، منها: نزول البلاء تلو البلاء على آل فرعون انظر: الأعراف:١٣٠ـ ١٣٥، وحوارات مؤمن آل فرعون مع قومه انظر: غافر:٢٨ـ ٣٤، و٣٨ـ ٤٥. وكلّ ذلك قد حدث بعد قصة يوم الزينة.

وقد مرّ أنّ القرآن الكريم ينقل من القصة ما يهمّه، ولذلك لم يذكر الأحداث الواقعة بين غلبة موسى وخروج بني إسرائيل من مصر لعدم تعلّق الغرض بذكرها هنا. وعلى كلّ تقدير فقد خرج بهم موسى(عليه السلام)ليلاً، ولكن هنا نكتة وهو أنّ خروج بني إسرائيل (مهما كان عددهم) بالليل لم يتحقّق إلاّ بعد أن أخبرهم موسى بهذا الأمر الخطير، وطلب منهم أن يستعدّوا ويتهيّأوا له، ولا شكّ في أنّ عدم اطّلاع جند فرعون وأنصاره، على أخبار تلك الاستعدادات، يدلّ على غاية الاحتياط في كتمانها وعدم إذاعتها، وهو رهن تخطيط دقيق ومنظّم يقلّ نظيره في التاريخ.

٥٣ ـ ٥٦. (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ):

المهمّ بيان صلة هذه الآيات بما قبلها، فإنّ الآية السابقة دلّت على أنّه سبحانه أمر موسى(عليه السلام) بترك مصر ليلاً والتوجّه إلى البحر، فبعدما انتشر خبر مسير بني إسرائيل حاول الطاغية أن يمنعهم من الخروج ولم يكن في مقرّ ملكه جند كثير يصدّهم عن طيّ الطريق، فلذلك بعث رُسله ليجمعوا له الجند من الأطراف والأكناف وهم يحملون بلاغ فرعون، كما يقول: (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ): أي يحشرون الناس ويجمعون الجيوش لفرعون، وهؤلاء الرُّسل ينادون في البلاد:(إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ): أي إنّ بني إسرائيل جماعة قليلة لا يعتدّ بهم، ولكنّهم يثيرون غضبنا الشديد بمخالفتهم لنا وتمرّدهم علينا، كما يقول: (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ)بيد أنّنا جميعاً (حاكماً، ورجال دولة، وجنداً) متيقّظون منتبهون لخطرهم (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ).

ولقد فضح فرعون نفسه بهذه المعاذير، فمن جانب يصفهم بأنّهم قليلون لا يُعبأ بهم، ومن جانب آخر يبعث رُسلَه ليسوقوا له ما يستطيعون سَوقه من الجند فيتّبعوهم ويردّوهم إلى مصر، وهذه هي شيمة المستكبرين إذا هُدّدت عروشهم بالخطر، فتراهم يفتقدون المنطق الصحيح ويتخبّطون في الدفاع عن كيانهم.

هذا ما دبّره فرعون، ولكن تدبير الله سبحانه كان فوق تدبير فرعون حيث جمع جيوشه للتنكيل ببني إسرائيل، ولكن صار

مصيرهم جميعاً الإغراق والإهلاك، كما يقول:

٥٧ و ٥٨. (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّات وَعُيُون * وَكُنُوز وَمَقَام كَرِيم):

أي أخرجناهم من جنّات غنّاء وعيون فيّاضة، كما أخرجناهم من مقام نفيس. والمراد بالمقام المساكن والقصور.

٥٩. (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ):

قوله:(كَذَلِكَ): أي كانت أخبارهم كما وصفناها (وَأَوْرَثْنَاهَا) الضمير يرجع إلى ما قبلها من جنّات وعيون وكنوز ومقام كريم (بَنِي إِسْرَائِيلَ).

ظاهر الآية أنّ ما كان لفرعون وقومه من الأموال والعقار والمساكن والديار أعطاه لبني إسرائيل، وفي موضع آخر قال تعالى:(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّات وَعُيُون * وَزُرُوع وَمَقَام كَرِيم * وَنَعْمَة كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) الدخان:٢٥ـ ٢٨. ، وفي موضع ثالث قال: (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا).(الأعراف:١٣٧.) فالآية التي نحن في صددها ظاهرة في أنّ الوارث للنِّعم الموفورة هم بنو إسرائيل، والآية في الثاني فيها إبهام حيث قال: (كَذلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ)، والآية في الموضع الأخير تدلّ على أنّ بني إسرائيل ورثوا مشارق الأرض ومغاربها وراء ما كان لفرعون من جنّات وعيون، ولذلك ذهب غير واحد من المفسّرين إلى أنّ الله سبحانه ردّ بني إسرائيل إلى مصر بعد ما أغرق فرعون وقومه وأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والعقار والمساكن والديار. لاحظ: مجمع البيان:٧/٣٥٥.

لكن ظاهر الآيات التي تحكي مصير بني إسرائيل لا ينسجم مع عودتهم إلى مصر، فإنّ ظاهر قوله تعالى:(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْم يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَام لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلاَءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ).(الأعراف:١٣٨ـ ١٤٠.) أنّهم نزلوا سيناء وهم يتخبّطون في جهلهم ومادّياتهم حتى أنّهم طلبوا من موسى(عليه السلام)أن يجعل لهم صنماً يعبدونه!! ولذلك قال رادّاً عليهم: (إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)ثم تلت ذلك حوادث تترى أشار إليها القرآن الكريم منها: إنزال المنّ والسّلوى عليهم انظر: البقرة:٥٧.، وتفجير اثنتي عشرة عيناً على قدر فرقهم، انظر: الأعراف:١٦٠.ومجيء موسى(عليه السلام)إلى ميقات ربّه، انظر: الأعراف:١٤٣. إلى أن انتهى الأمر إلى اتّخاذهم العجل إلهاً انظر: البقرة:٥١.، وإلى عصيانهم الأمر بدخول الأرض المقدّسة انظر: المائدة:٢١.حتى تمّ لهم البقاء تائهين في صحراء سيناء أربعين سنة عقوبة لهم على عصيانهم. انظر:المائدة:٢٦.، وقد توفّي موسى(عليه السلام) قبل أن تنتهي الأربعون سنة، فأين رجوعهم إلى مصر؟ ولذلك ذهب غير واحد من المفسّرين إلى أنّ المراد (من الآيات الثلاث) أنّ الله تعالى ملّك بني إسرائيل جنات وعيوناً مماثلة لِما في مصر، في أرض الميعاد التي ساروا إليها. لاحظ: تفسير المراغي:٧/٦٧، وغيره.

٦٠. (فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ):

ما إنْ بزغت شمس الصباح حتى لحق بهم فرعون وجنوده كما يقول:(فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ) وفي هذه اللحظات ضاقت الدنيا بأعين بني إسرائيل وأحسّوا بالخطر يقترب منهم، فاستغاثوا بموسى(عليه السلام) كما يقول:

٦١. (فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ):

أي لمّا قابل كلّ فريق صاحبه، استغاث أصحاب موسى(عليه السلام) كما يقول: (قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ): أي سيدركنا ويَلحقنا جيش فرعون ولا طاقة لنا به.

قال الشريف الرضيّ: وهذه استعارة والمراد بها العبارة عن التقارب والتداني، وإنّما قلنا إنّ هذا اللفظ مستعار لأنّه قد يحسن أن يوصف به الجمعان وإن لم يرَ بعضهم بعضاً بالموانع من مثار العجاج ورَهج الطّراد، لأنّ المراد به تقارب الأشخاص لا تلاحظ

الأحداق، وذلك كقولهم في الحيَّين المتقاربين تتراءى ناراهما أي تتقابل وتتقارب لكون النارين بحيث لو كان بدلاً منهما إنسانان لرأى كلّ واحد منهما صاحبه. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٦٧.

٦٢. (قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ):

وهنا يتجلّى إيمان موسى(عليه السلام) بربّه وتتأكّد ثقته بوعده (قَالَ كَلاَّ): أي لن يدركوننا (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ): أي يرشدني إلى طريق النجاة، وقد تحقّق ذلك بمعجزة إلهية، كما يقول:

٦٣. (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ):

قوله تعالى:(فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى): أي أوحينا إليه (أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ) فضربه (فَانْفَلَقَ): أي فانشقّ عن طريق فيه، وارتفع الماء على جانبيه كما يقول: (فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ): أي كلّ قطعة من البحر (كَالطَّوْدِ)الجبل (الْعَظِيمِ): أي صار اجتماع ذلك الماء فوق كلّ طرف منه كالجبل العظيم، وعندئذ سلك الإسرائيليون الطريق الذي فُتح لهم وعبروا من الشاطئ الغربيّ إلى الشاطئ الشرقيّ، ولمّا رآهم فرعون وجنوده ساروا على إثرهم كما يقول:

٦٤. (وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ):

أي أدنَينا هناك الآخرين، والمراد من الآخرين ما يقابل بني إسرائيل، وأبقى الله تعالى تلك المسالك على حالها حتى قرُب منها فرعون وجيشه وطمعوا في أن يتخلّصوا من البحر كما تخلّص موسى، وعندئذ انطبق البحر عليهم وأغرقهم.

ثمّ إنّه سبحانه نسب الإزلاف إلى نفسه وقال:(وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ)

واستُشكل عليه بأنّ اجتماعهم هناك في طلب موسى(عليه السلام) كفر، فكيف نسبه إلى نفسه؟

والجواب واضح، وهو أنّ المراد: قرّبناهم إلى المكان الذي كان فيه بنو إسرائيل حتى يتوهّموا أنّ ما عبرهُ موسى وبنو إسرائيل مسالك عاديّة، فيدخلوا فيها ثم يكون مصيرهم إلى الإغراق، فليس في هذا الإزلاف شيء منكر إلاّ كونه مقدّمة لعذاب الاستئصال.

٦٥. (وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ):

ولم يبق أحد منهم إلاّ وقد خرج من البحر، وأمّا مصير فرعون وجنوده فيقول عنه:

٦٦. (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ):

أي أغرقنا فرعون وجنوده يقول سبحانه: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ). يونس:٩٠.

ثمّ إنّه سبحانه اقتصر في بيان قصة موسى على هذا المقدار، وأمّا ما كان من مصير بني إسرائيل بعد عبور البحر، فقد جاء تفصيله في سور أُخرى.

٦٧ و ٦٨. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ):

أي(إِنَّ فِي ذَلِكَ) الذي حدث في البحر وإنجاء موسى ومن معه وإغراق عدوّ الله وأتباعه (لآيَةً)وعبرة لمن يعتبر (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)مع ما رأوا من الآيات والمعجزات، وفي ذلك إشارة إلى وجود المشاكلة والتشابه بين قوم فرعون وكبراء قريش في مكّة، فالجميع رأوا الآيات الباهرات ومع ذلك لم يؤمن أكثرهم، قوله:(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)إعادة لما في صدر السورة حيث قال:(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). الشعراء: ٩ .

قدّم وصف العزيز على الرحيم لكونه مقتضى المقام، حيث إنّه سبحانه أخذ بعزّته فرعون وجنوده، وفي الوقت نفسه هو رحيم، ولكلٍّ موضع ومظهر. وربّما لا يهلك ويُمهل.

والله سبحانه يذكر هاتين الآيتين في ختام قصة كلّ من الأنبياء السبعة مشيراً إلى أنّ الأُمم السابقة كان أُسلوبهم في مواجهة الأنبياء العظام على وتيرة واحدة كما يحكي عنه قوله تعالى: (وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) وأنّ موقفه سبحانه من الجميع واحد كما يدلّ عليه قوله تعالى:(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). لاحظ: الشعراء:٦٧ ـ ٦٨، ١٢١ـ ١٢٢، ١٣٩ ـ ١٤٠، ١٥٨ـ ١٥٩، ١٧٣ـ ١٧٤، ١٩٠ـ ١٩١.

بقي هنا كلام وهو ما هو المراد من البحر، الذي عبّر عنه سبحانه في مقام آخر باليمّ، قال: (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) طه:٧٨. ؟

قال الشيخ عبد الوهاب النجّار: أعتقد أنّ خليج السويس كان يمتدّ في تلك الأزمان إلى البحيرة المُرّة أو يقرب منها، وفي هذا الخليج كان عبورهم. وأضاف: وبين يديّ أطلس تاريخي للأُستاذ محمد رفعت، رسم فيه طريق عبور بني إسرائيل بين السويس وبين البحيرة المُرّة، ورسم خطّين يدلاّن على أنّ خليج السويس كان متصلاً بالبحيرة المُرّة، وأحسب أنّه على صواب. قصص الأنبياء:٢٠٣ـ ٢٠٤.

يُذكر أنّ خليج السويس، هو أحد فرعَي الطرف الشمالي للبحر الأحمر، والفرع الآخر هو خليج العقبة، وتقع شبه جزيرة سيناء بين الخليجين.

الآيات: التاسعة والستون إلى التاسعة والثمانين(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ... إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْب سَلِيم).

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْق فِي الآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْب سَلِيم).

المفردات

فنظلّ: ظلَّ بمعنى دام، أي نقيم على عبادتها طوال ليلنا ونهارنا. وربّما يفسّر بالعبادة في جميع النهار دون الليل لأجل كونهم يعبدون الكواكب، فإذا جاء الليل عبدوا الكواكب الطالعة، ولا يخلو من تأمّل كما سيوافيك.

عاكفين: ملازمين، وتضمّن معنى العبادة.

حُكماً: أي إصابة النظر والرأي في المعارف الاعتقادية والعملية الكلّية وتطبيق العمل عليها، ويعبّر عنها بالحكمة، وقد ورد نظيره في قصّة موسى(عليه السلام) قال: (فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا) الشعراء:٢١..

لسانَ صِدق: المراد باللّسان هنا الثناء، وإضافته إلى الصدق من قبيل إضافة الموصوف إلى صفته، أي لساناً صادقاً، والمعنى: أن يُبقى له في الدنيا الثناء الحسن والذكر الجميل. هكذا قيل، وسوف يأتي معنى آخر لهذه الفقرة عند التفسير.

الآخِرين: يقابل الأوّلين.

تُخزني: الخِزي: الانكسار الطارئ على الإنسان إمّا من نفسه أو من غيره.

سليم: الموصوف بالسلامة، العاري من الآفات الظاهرة والباطنة.

التفسير

٢. مناظرة إبراهيم(عليه السلام) مع عبدة الأصنام
يذكر القرآن الكريم أربعة مواقف لإبراهيم(عليه السلام) في دعوته للتوحيد، اشتملت على مناظرات مع عَبَدَة الأجرام السماوية انظر:الأنعام:٧٥ـ ٨١ ، ومع الملك (النّمرود)، انظر: البقرة:٢٥٨. ومع أبيه آزر خاصّة انظر: مريم:٤٢ـ ٤٧.ومع أبيه منضمّاً إلى قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام، وهذا الموقف الأخير هو الذي تناولته هذه المجموعة من الآيات. وكانت الوثنية قد غطّت بيئة بابل(موطن إبراهيم(عليه السلام) قبل هجرته) على نحو أنّ أقرب الناس إلى إبراهيم(عليه السلام) كان وثنياً ومدافعاً عنها بشدّة، ومن سنن الله تبارك وتعالى أن يخرج داعية التوحيد من وسط أحضان الوثنية.
الربّ الحقيقي عند الوثنيين
هل كان الصنم الخشبي أو المعدني أو الحجري عندهم هو الربّ الواقعي؟ أو أنّ الربّ الواقعي عندهم أُمور روحانية خارجة عن عالم الأجسام، منزَّهة عن خواصّ المادّة وآثارها؟ إذ لمّا كان من الصعب ـ عندهم ـ التوجّه إليها لكونها خارجة عن أُفق الإدراك توسّلوا إلى ذلك باتّخاذ صور وتماثيل جسمانية تمثّل بأشكالها وهيئاتها ما هناك من المعنويات انظر: الميزان في تفسير القرآن:٢٨١/١٥، إذ من البعيد على أيّ إنسان مهما تسافل أن يعبد الأجسام الفارغة من الروح والإدراك إلاّ إذا كان مجنوناً. وعلى ذلك ظهرت الوثنية وتطوّرت وانتشرت في البلاد، فالأرباب الحقيقيون أُمور روحانية بعيدة عن الإدراك، وأمّا الأصنام الجامدة فمظهر لها. نعم كان الحال على هذا الأساس، وكلّما مرّ الزمان وتجذّرت الوثنية في النفوس وغلبت الأوهام على العقول غفل عبّاد الأصنام عن الفلسفة التي بُنيت عليها الوثنية في أوّل الأمر، وكثير منهم غفلوا عن الربّ الواقعي، واتّخذوا هذه الأصنام أرباباً. انظر: تفسير الرازي: ٥٩/١٧ـ ٦٠.وعلى هذا الأساس نرى أنّه سبحانه أمر نبيّنا(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يتلو على مشركي قريش نبأ إبراهيم(عليه السلام). ٦٩.(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ): أُريد بنبأ إبراهيم حواره(عليه السلام) ومناظرته مع الوثنيين، وقد اختار سبحانه عرض قصة إبراهيم بعد قصة موسى(عليه السلام) لوجود التشابه بين قوم إبراهيم الخليل(عليه السلام) وقوم النبي الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) من جهتين: الأُولى: التوغّل في الوثنية، فإنّ كلا القومين هبط إلى الحضيض في هذه الظاهرة، وأثبتا أنّهما في غاية الجهل والسفاهة. الثانية: أنّه سبحانه أمهل قوم إبراهيم(عليه السلام) ولم يعذّبهم في الدنيا، وكذلك كان الحال مع قوم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)حيث أمهلهم ولم يعذّبهم بعذاب سماويّ، نعم قُتل عدد من كبرائهم في معركة بدر. ٧٠. (إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ): سأل إبراهيم(عليه السلام) في بداية المناظرة عن حقيقة معبودهم بقوله: (مَا تَعْبُدُونَ)؟ والسؤال هذا من تجاهل العارف، حيث وضع(عليه السلام) نفسه ـ لغاية يقصدها ـ موضع مَن لا يعرف شيئاً عن حقيقتها وسائر شؤونها، سبيلَ من يريد أن يبيّن الخصمُ حقيقة مدّعاه وسائر شؤونه حتى يأخذه بما سمع من اعترافه، وهذا من أساليب المناظرة. وعندئذ أجابه القوم بما يلي: ٧١. (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ): أي نعبد هذه الأصنام ونستمرّ على عبادتها ليل نهار. ولمّا كانت عبادة الأصنام لغاية الانتفاع بها أو دفع الضرر بواسطتها، ولولا هذه الغاية لما خضع أحد لشيء، ورد عليهم إبراهيم(عليه السلام) من هذا الباب ليحتجّ عليهم بالحقيقة التالية: ٧٢ و٧٣. (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ):

فسألهم عن استماع الأصنام لدعائهم، إذ لولا الاستماع لما انتفع الداعي بعبادته ودعوته، وقال: (هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ): أي هل يسمعون دعاءكم(إِذْ تَدْعُونَ)؟ ثم انتقل إلى أنها على فرض الاستماع هل (يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)؟ ولمّا لم يكن لدى القوم إزاء هذه الأسئلة جواباً مقنعاً التجأوا إلى إلقاء المسؤولية في ذلك على عاتق آبائهم وأجدادهم وقالوا:

٧٤. (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ):

وهذا إقرار ضمنيّ بأنّهم لا ينتفعون بعبادة الأصنام، وأنّ تقديسهم لها لا يستند إلى أي برهان، ولكن لمّا كان الآباء على هذه السيرة قالوا: نحن نقتفي أثرهم في تقديسها!!وحينئذ سألهم إبراهيم(عليه السلام)منكراً عليهم تقليد الآباء والأجداد، فقال:

٧٥ ـ ٧٧.(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ):

ولمّا بلغ الحوار هذا المقام وثبت أنّ هذه الأصنام لا تنفع ولا تضرّ، عند ذلك أعلن إبراهيم(عليه السلام)البراءة من الأصنام وعبدتها، الحاضرة والقديمة وقال: (أَفَرَأَيْتُمْ): أي أخبروني عن حال (مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ) عبر سنين (أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ)فإنّهم عدوّ لي فلا تنفع عبادتها بل تضرّ. ووصفها بالعداوة التي لا تكون إلاّ من العقلاء، هو من باب التشبيه البليغ، حيث إنّ الإنسان يصوّر من يأتي منه الضّرر عدوّاً، والأصنام ممّا يأتي منها الضّرر لأنّها مضلّة لمن يعبدها، فالنبي إبراهيم(عليه السلام)حينما عدّ الأصنام بأنّها عدوّ لنفسه أعلن أنّها عدوّ لكلّ من يعبدها، فقال إنّي أتبرّأ منها وأُعلن براءتي منها وعداوتي لها، لماذا؟ لأنّ عبادتها ضارّة لديني مهلكة لنفسي فهي ليست إلاّ عدوّ لي، فأتبرّأ من كلّ ما تعبدون (إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ)، والظاهر أنّ الاستثناء منقطع لأنّه استثناء من قوله:(فَإِنَّهُمْ) أي الأصنام (عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ).

ثم ابتدأ(عليه السلام) ببيان صفات ربّ العالمين التي ينكرها الوثنيون، ومع إثبات هذه الصفات لله سبحانه، لا يَعبد أيّما إنسان صنماً من الأصنام، لأنّ الغاية من عبادتها حاصلة بعبادة ربّ العالمين. واختار من بين صفاته ما يعرب عن انفراد الله تعالى بالتصرّف في عالم الكون، فأشار إلى جميع أُصول النِّعم حتى انتهى إلى بعث الخلائق يوم القيامة وهي عبارة عمّا يأتي في الآيات التالية:

أ. خلقه وهدايته

٧٨.(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ):

قوله:(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) كلمة جامعة ليس فوقها كلمة، أشار بها إلى أنّه سبحانه بعد ما خلقه لم يفوض أمر تدبيره إلى موجود آخر، بل هو الذي يهدي كلّ ما خلق إلى ما يحقّق كماله، كما قال سبحانه:(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) طه:٥٠..

ب. رزّاق لما خلق

٧٩. (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ):

فالله سبحانه حينما خلق ماخلق لم يترك رزقه لغيره، وإنّما تكفّل بهما هو ـ عظُمت آلاؤه ـ بإيجاد أسبابهما، قال تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّة فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) هود:٦. ومن أسباب رزقه وسوابغ رحمته سبحانه بخلقه أنّه يرسل الرياح مبشِّرات بنزول المطر الذي يحي، بقدرة الله، الأرض وتنبت به ألوان الزروع والثمار رزقاً للعباد.

ج. الإنعام بالشفاء

٨٠ . (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ):

الآية تحكي عن أنّ الوثنيين يستشفون بأصنامهم وقد أدّبهم إبراهيم(عليه السلام) بأنّ الشافي هو الله تبارك وتعالى قائلاً: بأنّه هو

الذي يُنعم عليّ بالشفاء إذا مرضت، وقد أسند المرض إلى نفسه ليكون مقدّمة لقوله: (فَهُوَ يَشْفِينِ)، مضافاً إلى أنّ كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط الإنسان في مطاعمه ومشاربه ولذلك أضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربّه تعالى.

د. الإحياء بعد الإماتة

٨١ . (وَالذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ):

إنّ الوثنيّين ينكرون البعث ولا يؤمنون بحياة جديدة خوفاً ممّا يلاقونه هناك من جزاء على ظلمهم وجرائمهم التي ارتكبوها في دنياهم، ولذلك ركّز إبراهيم(عليه السلام) على هذا الأصل وقال: (وَالذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)، ومن المعلوم أنّ كلّ هذه الأفعال: (يَهْدِينِ)، و(يَسْقِينِ)، و(يَشْفِينِ)، و(يُحْيِينِ) حذفت عنها ياءات المتكلم حفظاً للفواصل لأنّ الفواصل في الآيات غالباً على النون.

ه. رجاء المغفرة في الآخرة

٨٢ . (وَالذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ):

كانت الوثنية تطلب المغفرة من الأصنام، والله سبحانه يؤكّد على أنّ غفّار الذنوب هو الله سبحانه، قال عزّ وجلّ:(وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ) آل عمران:١٣٥..

لقد طلب(عليه السلام) من الله سبحانه مغفرة الخطيئة يوم الدين (القيامة) وإنّما خصّصها بيوم الدين، لأنّ أثرها يظهر في ذلك اليوم، كما أنّه لم يقل: هو الذي يغفر خطيئتي، بل قال: (أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)وما ذلك إلاّ لأنّ الغفران تفضُّل من الله سبحانه، ومثله لا يطلب على وجه الجزم.

ثمّ إنّ نسبة الخطيئة إلى نفسه وهو نبيٌّ معصوم دليل على أنّ المراد بها غير المعصية، بمعنى مخالفة الأمر المولوي، فإنّ للخطيئة والذنب مراتب تتقدّر حسب حال العبد في عبوديته، كما قيل: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين، وقد قال تعالى لنبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم): (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) غافر:٥٥. فالخطيئة من مثل إبراهيم(عليه السلام) (هي) اشتغاله عن ذكر الله محضاً بما تقتضيه ضرورات الحياة كالنوم والأكل والشرب ونحوها وإن كانت بنظر آخر طاعة منه(عليه السلام)، كيف؟ وقد نصّ تعالى على كونه مخلصاً لله لا يشاركه تعالى فيه شيء، إذ قال: (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَة ذِكْرى الدَّارِ) ص: ٤٦.. الميزان في تفسير القرآن:١٥/٢٨٥.

واللاّفت في أدعية إبراهيم(عليه السلام) أنّه أشار في هذه الصفات إلى أُصول النّعم التي يتمتّع بها الإنسان من لدن ولادته إلى خروجه من الدنيا، فإذا كانت هذه الصفات راجعة إلى الله سبحانه فهو الأَولى بالعبادة.

إلى هنا تمّ حوار إبراهيم(عليه السلام) مع الوثنيّين، ثم إنّه بعد ما أثنى على ربّه بما أثنى، سأله أُموراً تأتي في الآيات التالية:

٨٣ . (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ):

لمّا فرغ إبراهيم من الثناء على ربّ العالمين، طلب منه عزّ وجلّ أُموراً فيها كمال نفسه وروحه، وفيه إشارة إلى أدب الدعاء وهو تقديم الثناء عليه، وهذه الأُمور عبارة عن:

أ. (هَبْ لِي حُكْمًا) الظاهر أنّ المراد من الحُكم هي الحكمة التي أُوتيها لقمان قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ) لقمان:١٢.

والمراد كمال القوّة العلمية والفكرية التي تجعله مُسدَّداً في حكمه على الأُمور مصيباً في معرفة الحقائق في باب المعارف والوقائع. وتفسيره بالنبوّة غير صحيح لأنّه يدعو وهو نبيّ، فلا وجه لتحصيل الحاصل.

ب. (وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) ولعلّ هذه الفقرة بصدد طلب إعطاء كمال في العمل حتى يتمّ له الكمال في مقامَي العلم والعمل، فالإنسان الكامل عبارة عمّن بلغ القمّة في التفكير والعمل، فإذا وصل الإنسان إلى هذا المقام ينطلق إلى الصلاح والفلاح.

وما ذُكر من التفسير مبنيّ على تفسير الفقرة الأُولى بالكمال العلمي، والثانية بالكمال العملي، لكن يمكن أن يقال إنّ المراد من

الحكمة هو الكمال في مجالي العلم والعمل، وأمّا دعاؤه(عليه السلام) بأن يكون في زمرة الصالحين، فالغاية منه طلب استمرار هذه النعمة وعدم سلبها عنه كما هو

الحال في قولنا: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) الحمد:٥. فإنّ الغاية هي البقاء على الصراط المستقيم.

٨٤ . (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْق فِي الآخِرِينَ):

ج. (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْق): أي الذكر الجميل والثناء الحسن(فِي الآخِرِينَ) في الأجيال التالية حتى يستدلّ به على محبة الله له ورضاه عنه، هكذا فسّرت الآية.

غير أنّ استفادة هذا المعنى من الآية بعيد، ولو أراد ذلك كان له أن يقول: واجعل لي ذكراً جميلاً في الآخرين، إذ لا يتبادر إرادة معنى الجميل من الصدق.

وقد جاء مضمون الفقرة في سورة الصافات حيث قال سبحانه بعد ذكر إبراهيم(عليه السلام):(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ) الصافات:١٠٨.وجاء أيضاً في سورة مريم بعد ذكر عدد من الأنبياء كزكريا ويحي وعيسى وإبراهيم وموسى وهارون قوله:(وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْق عَلِيًّا) مريم:٥٠.، فمرجع هذه الآيات إلى أمر واحد، فلو كانت الإضافة من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، يكون المراد: واجعل لي لساناً صادقاً، فيرجع إلى أنّ المراد أنّه سبحانه يبعث في الأجيال الآتية رجالاً يصدّقون دعوتي وينشرونها، فيطلب من الله سبحانه بعث الأنبياء في ذريته حتى يكون كل لسان صادقاً عنه، كما يقول بعد بناء الكعبة:(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ) البقرة:١٢٩.

٨٥ . (وَ اجْعَلْني مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ):

وفي هذا الطلب انقطع نظر إبراهيم(عليه السلام) عن الدنيا وتوجّه إلى الدار الآخرة وطلب سعادة الآخرة بعد طلب سعادة الدنيا وقال: (وَاجْعَلْني مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ)، فعبّر عن كونه من أهل الجنة بأنّه (مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ)لأجل أنّ الإرث يقال لكلّ شيء حصل للإنسان من غير تعب، كما قاله الراغب، قال تعالى:(أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ) المؤمنون:١٠ـ١١.

نعم تلك الجنة إنّما هي في مقابل الأعمال الصالحة النابعة عن العقيدة الصحيحة، ولكن أين هذا الثمن من جنة النعيم التي عرضها كعرض السماوات والأرض؟

إلى هنا تمّت أدعيته الخاصّة بنفسه، وبعدها ذكر أباه آزر الذي كان غارقاً في الوثنية التي عاقبتها الحرمان من مغفرة الله سبحانه، ولذلك طلب من الله سبحانه أن يغفر له وقال:

٨٦ . (وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ):

يطلب(عليه السلام) الغفران لأبيه والغرض من طلبها فتح قلبه لقبول التوحيد، لأنّ المغفرة مشروطة بالإسلام وطلب الأُولى يلازم طلب الثانية، وقد صدر منه هذا الدعاء وأبوه حيّ، وعلى هذا فمعنى قوله: (إِنَّهُ كَانَ): أي كان قبل الدعاء بزمان (مِنَ الضَّالِّينَ) والشاهد على أنّ الدعاء صدر منه وهو حيّ أنّه(عليه السلام)تبرّأ منه حينما شاهد أنّه مات كافراً، قال سبحانه:(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَة وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ). التوبة:١١٤.

ويمكن أن يقال: إنّ الآية الأُولى أي طلبه غفران الله له كان في وقت يُرجى فيه الإيمان والتوبة، وأمّا الآية الأُخرى أي التبرّؤ منه فهي بعدما يئس من إيمانه، من غير فرق بين كونه حيّاً أو ميّتاً.

٨٧ . (وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ):

عدم خزيه يوم البعث. والخزي: ما يلحق الإنسان من انكسار إمّا من نفسه أو من غيره، والذي يلحقه من غيره يقال: هو ضَرْب

من الاستخفاف كما ذكره الراغب، لكن تفسيره بالذلّ والهوان أوضح، فإبراهيم(عليه السلام) يطلب من الله سبحانه ألاّ يصيبه ذلّ ولا هوان يوم القيامة ويوم يُبعث العباد، كما يقول:(وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) وهذا الدعاء بمعنى طلب التسديد والاستقامة في طريق الحق، فكلّ ممكن لا يأمن من الخزي يوم القيامة إلاّ بتأييد من الله سبحانه، من غير فرق بين النبيّ المعصوم وغيره.

٨٨ .(يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ):

هذا من تتمّة كلام إبراهيم(عليه السلام) بشهادة أنّه بدَل من قوله: (يَوْمَ يُبْعَثُونَ)فيصف يوم البعث باليوم الذي لا ينفع أحداً مال ولا بنون، أي لا ينفعه ما تركه من محاسن الدنيا وزينتها. وذكر المال والبنون من باب المثال لأنّهما من أعظم ما يتعلّق به الإنسان. وليست الآية بصدد ذمّ المال والبنين، كيف؟ والله سبحانه يذكرهما بأنّهما من أعظم نعمه على الإنسان، قال على لسان نوح: (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَال وَبَنِينَ) نوح:١٢؛ بل المراد أنّ مجرّد كون الإنسان ذا مال وبنين لا ينقذه يوم القيامة، فليس للإنسان أن يعتمد عليهما يوم ذاك، وإنّما يعتمد على ما يأتي في الاستثناء.

٨٩ . (إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْب سَلِيم):

لا شكّ أنّ الاستثناء منقطع لعدم دخوله في المال والبنين، والمعنى: لكن ما ينفع وينجي يوم القيامة قلب سليم من الشرك والغِلّ وسائر الرذائل، مليء بالتوحيد والإخلاص، عامر بالطاعة والصلاح. وهذا التعبير من أروع التعابير حيث أتى بكلمة موجزة تحتها معان كثيرة، فالنجاة لمن سلم قلبه من الشرك والشكّ، وبرئ من الحقد والغشّ والرياء، وتزيّن بالحبّ والخير.

روى الكليني بإسناده عن سفيان بن عُيينة، قال: سألته ـ يعني الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) ـ عن قول الله عزّ وجلّ: (إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْب سَلِيم)، قال: «القلب السليم الذي يلقى ربّه، وليس فيه أحد سواه. قال: وكلّ قلب فيه شرك أو شكّ فهو ساقط، وإنّما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة». الكافي:٢/١٦، باب الإخلاص، برقم٣.

ويؤيّده قول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): «حب الدنيا رأس كلّ خطيئة». مجمع البيان:٧/٣٦٠.

وروى أيضاً بإسناده عن أبي حمزة الثُّمالي، عن أبي جعفر] الباقر(عليه السلام)، قال: «القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعي شيئاً من الخير، وهو قلب الكافر؛ وقلب فيه نكتة سوداء فالخير والشرّ فيه يعتلجان الاعتلاج: المصارعة وما يشابهها.، فأيّهما كانت منه غلب عليه؛ وقلب مفتوح فيه مصابيح تزهر، وهو لا يُطفأ نورُه إلى يوم القيامة، وهو قلب المؤمن». الكافي:٢/٤٢٣، باب في ظلمة قلب المنافق، برقم ٣.

إلى هنا تمّت قصة إبراهيم(عليه السلام) بأكملها كما تمّت قبلها قصة موسى(عليه السلام)، والغرض من ذكر تينك القصتين هو تسلية النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّه قد ابتلي بما ابتلي به الأنبياء السابقون من إعراض أقوامهم عمّا جاءوا به من البيّنات عناداً واستكباراً، وعانَوا كما عانى.

الآيات: التسعون إلى الرابعة بعد المئة(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ... وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).
(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَل مُبِين * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيق حَمِيم * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).
المفردات
أُزلفت: قال ابن فارس: زلف: يدلّ على اندفاع وتقدّم في قرب إلى شيء، يقال من ذلك:ازدلف الرجل تقدّم، وسمّيت مزدلفة بمكة

لاقتراب الناس إلى مِنى بعد الإفاضة من عرفات، وعلى هذا: أُزلفت الجنة أي أُدنيت.

بُرّزت: من التبريز، وهو الإظهار.

للغاوين: جمع غاو، وهو الضالّ عن طريق الحق.

كُبكبوا: من كبّ يكبّ، وهو الإلقاء على الوجه، ومعناه: أُلقوا على وجوههم مرّة بعد أُخرى.

يختصمون: يتجادلون.

نسوِّيكم: نجعلكم مساوين.

كرّة: رجعة.

التفسير

لمّا مرّ ذكر يوم القيامة وأنّه لا ينفع فيه مال ولا بنون، عاد البيان القرآني إلى بيان المنتفعين في ذلك اليوم والمتضرِّرين فيه، وقال:

٩٠. (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ):

عبّر عن الجنة بالإدناء إشارة إلى أنّها تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها، وتقرّ أعينهم بأنّهم سيدخلونها، فلا يتجشّمون مشقّة السَّير إليها. وبكلمة واضحة: التعبير كناية عن حضور النعمة. ويحتمل إرادة المعنى الحقيقي لأنّ السُّنن الجارية يومذاك غير معلومة لنا.

٩١. (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ):

أي أُظهرت النار لأهل الضلال والفساد التاركين سبيل الرشاد، بحيث تكون بمرأى منهم.

٩٢ و ٩٣.(وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ):

بعد أن تُبرَّز الجحيم وتظهرت الكآبة على وجوه الغاوين، يسألهم سائل ـ على وجه التوبيخ والتأنيب ـ عن منزلة آلهتهم التي كانوا عاكفين على عبادتها حيث لا ينتفعون بهم مثقال ذرة كما يقول:(وَ قِيلَ لَهُمْ): أي للغاوين (أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)في الدنيا (تَعْبُدُونَ) تستمرّون على عبادتها (مِنْ دُونِ اللهِ) فـ(هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ)بدفع العذاب (أَوْ يَنْتَصِرُونَ)بدفع العذاب عن أنفسهم، لأنّهم وآلهتهم وقود النار كما يأتي في الآية التالية. والآية تدلّ على أنّ المراد من الآلهة المكذوبة هو الأصنام.

٩٤ و٩٥. (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ):

الآيتان تدلاّن على أنّ الذين يُلقَون على وجوههم في النار ثلاثة أقسام:

الأوّل: الأصنام كما يقول: (فَكُبْكِبُوا فِيهَا): أي أُلقي فيها الآلهة على وجوههم، وأُكّد الضمير المتصل في الفعل بضمير منفصل أعني (هُمْ)، وكلا الضميرين للعقلاء وقد استُعملا في الأصنام، لأنّ المشركين يعبدونها، ومن شأن المعبود أن يكون عاقلاً، حتى تكون له القدرة على النفع والضرّ.

الثاني: (الْغَاوُونَ): أي عبدة الآلهة، والتعبير بالغواية إشارة إلى إلقائهم في النار.

الثالث: (جُنُودُ إِبْلِيسَ): أي الشياطين ويحتمل أن يراد متّبعوه من عصاة الجنّ والإنس.

٩٦. (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ):

فعندئذ تقع المنازعة والمجادلة بين عبدة الآلهة المكذوبة.

٩٧. (تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ):

يقسمون بالله أنّهم كانوا في ضلال عن صراط الحقّ، واضح لا لبس فيه.

٩٨. (إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ):

الآية تبيّن وجه ضلالهم وأنّهم كانوا حين يعبدون الآلهة يجعلونها مثل ربّ العالمين في الربوبية والعبادة لا في خصوص العبادة، لأنّ تخصيص العبادة للآلهة رهن وجود ملاك للعبادة في الآلهة، وليس إلاّ تصوّر أنّهم يدبّرون أُمورهم، ولذلك صاروا يعبدونها.

وفي قوله سبحانه:(إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) دليل على أنّ عبدة الأصنام كانوا مشركين في العبادة والربوبية معاً، وبذلك يبطل قول من يقول: «بأنّ عبدة الأصنام كانوا مشركين في العبادة، موحّدين في الربوبية، فلا يعبدون الأصنام إلاّ ليشفعوا لهم يوم القيامة»، وهذه فكرة خاطئة وإن أكّد عليها محمد بن عبد الوهاب وأتباعه، إذ مضافاً إلى هذه الآية، فقد كانوا ينتصرون بالأصنام في الحروب، قال سبحانه:(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ) يس:٧٤.وكانوا يطلبون العزّة منهم، قال تعالى: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) مريم:٨١.، حتى كانوا يستمطرون بالأنواء، وأمّا قوله سبحانه:(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى) الزمر:٣. فسوف يوافيك توضيحه في تفسير سورة الزمر.

٩٩ ـ ١٠١.(وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيق حَمِيم):

قوله تعالى: (وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ) أُريد بهم القادة والزعماء. فهؤلاء الغاوون قد أكّدوا ندمهم على ما فرَط منهم في الدنيا، فقد عبدوهم بزعم أنّهم يشفعون لهم، والآن قد بانَ أنّه ليس لهم اليوم شفيع يشفع أو صديق مشفق يُعين، كما حكى عنهم تعالى بقوله:(فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيق حَمِيم).

وفي موضع آخر أظهروا ندمهم بصورة أُخرى فقالوا: (فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) الأعراف:٥٣..

١٠٢. (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ):

فلمّا يئسوا من شفاعة الشافعين وعون الصديق، رجعوا وتمنّوا شيئاً غير واقعيّ وقالوا: (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً): أي رجعة إلى الدنيا(فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ): أي الموحّدين، والله سبحانه ردّ على أمثال هذا التمنّي بقوله:(وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) الأنعام:٢٨..

ثمّ إنّه سبحانه يسلّي النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قائلاً:

١٠٣ و ١٠٤. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ):

أي إنّ في قصة إبراهيم(عليه السلام) وما جرى بينه وبين قومه لآية واضحة على أنّه لا ربّ إلاّ إيّاه، ومع هذا (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ).

قوله سبحانه: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) أشار فيه بالعزّة إلى كونه قادراً على الانتقام، كما أشار باسم (الرَّحِيمُ) إلى أنّه سبحانه يمهلهم رحمة منه.

إلى هنا تمّت قصة موسى وقصة إبراهيم(عليهما السلام) وقد عرفت أنّ الغاية تسلية النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ودعوة الآخرين إلى الاعتبار. ثم إنّه سبحانه بدأ بذكر قصة نوح(عليه السلام).

الآيات: الخامسة بعد المئة إلى الثانية والعشرين بعد المئة(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوح الْمُرْسَلِينَ ... الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

المفردات

قوم: اسم جمع لا واحد له من لفظه، كرَهْط ونَفَر، يذكّر ويؤنّث. ويظهر من صاحب الكشّاف التأنيث بشهادة أنّه يصغَّر على قويمة، والتصغير يُرجِع الأشياء إلى أُصولها.

أخوهم: يراد به من هو واحد منهم، لا الأخ بالمعنى الواقعي، فيستعمل في هذه الموارد بمعنى المنسوب إلى القبيلة. ويشهد لذلك أنّ

الإمام عليّاً(عليه السلام) لمّا أخبر ببعض الملاحم، قال له بعض أصحابه: لقد أُوتيتَ يا أمير المؤمنين علم الغيب، فضحك(عليه السلام) وقال للرجل وكان كلبيّاً:«يَا أَخَا كَلْب، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْب...». نهج البلاغة: الخطبة ١٢٨. وعنى الواحد منهم والمنسوب إليهم.

قال الشاعر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم *** في النائبات على ما قال برهانا

الأرذلون: جمع أرذل من الرَّذالة بمعنى الخِسّة والدناءة.

المرجومين: المقتولين رمياً بالحجارة.

افتح: الفتح: إزالة الأغلاق كفتح الأبواب والأقفال. وأُريد به هنا الحكومة أي احكم بمناسبة أن فيه إزالة الأغلاق الموجودة بين المتحاكمين، قال تعالى:(رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ). الأعراف:٨٩.

الفُلك: السفينة.

المشحون: المملوء.

التفسير

٣. قصّة نوح(عليه السلام) وقومه

تحدّث القرآن الكريم في هذه المجموعة من الآيات عن تكذيب قوم نوح(عليه السلام) نبيّهم، وقد كان نبؤه أعظم من نبأ غيره، لأنّه كان يدعو قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، وما يأتي من إصرار هؤلاء على كفرهم وتمرّدهم فيه تسلية للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال:

١٠٥. (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ):

المعروف أنّ نوحاً هو شيخ الأنبياء وبه ابتدأ بعثهم، فكيف يقول: إنّ قوم نوح كذّبوا المرسلين مع أنّهم كذّبوا واحداً منهم؟ ربّما يقال: لأنّ من كذّب رسولاً واحداً من رسل الله فقد كذّب الجميع؛ لأنّ كلّ رسول يأمر بتصديق جميع الرسل. مجمع البيان:٧/٣٦٣.

ويمكن أن يقال: إنّ ملاك تكذيب قوم نوح(عليه السلام) هو أنّهم كذّبوا أن يكون الرسول من الله بشراً كما يحكي عنهم سبحانه:(أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ) الأعراف:٦٣، فعلى هذا فكلّ من جاء بعد نوح كان بشراً مرسلاً من الله سبحانه، فتكذيب قوم نوح به يلازم تكذيب هؤلاء بوحدة الملاك.

١٠٦. (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ):

قد تقدّم في تفسير المفردات أنّ التعبير بالأخ بمعنى الانتساب إلى نفس القبيلة التي ينتسب إليها القوم. وربّما يقال: إنّ التعبير بكلمة الأخ تعبير يبيّن منتهى المحبّة والعلاقة الحميمة على أساس المساواة، دون أن يطلب التفوّق والاستعلاء عليهم، بل كان يدعوهم إلى تقوى الله في منتهى الخضوع.

يلاحظ عليه: أنّ التعبير بالأخ إنّما هو في كلامه سبحانه لا في كلام نوح(عليه السلام)، والله يقول:(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ) ولم يخاطبهم نوح بهذا اللفظ، وقد ورد لفظ الأخ في قصص أنبياء آخرين كهود وصالح. وعلى كلّ تقدير فخطاب نوح(عليه السلام) لقومه بقوله: (أَلاَ تَتَّقُونَ) حاك عن تقدّم كلام له معهم، وقد أشار إليه سبحانه في موضع آخر، بقوله:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ) المؤمنون:٢٣، ثم عبّر عن إشفاقه عليهم، فحضّهم على اتّقاء عقاب الله بنبذ الشرك والإيمان بوحدانيته كما قال:(أَلاَ تَتَّقُونَ): أي ألا تخافون عقاب الله حيث تجعلون له شريكاً؟

وبذلك ظهر أنّ كلمة (أَلاَ) هنا تحضيضية، نظير قوله سبحانه: (أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ) التوبة:١٣..

وجوّز بعضهم أنّها مركّبة من حرفين: همزة استفهام، ولا النافية، وهذه الصيغة تستعمل للإنكار، وهو يكشف عن صدودهم عنه، وعدم الاستجابة لدعوته.

١٠٧. (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ):

وصف نفسه بأنّه(رَسُولٌ أَمِينٌ) ـ وقد كان مشهوراً عندهم بالأمانة ـ ليكون تعليلاً للتحضيض السابق في قوله: (أَلاَ تَتَّقُونَ) عذاب الله حيث تعبدون غيره، فإنّ المخبر عن الله رسول أمين لا يكذب ولا يخدع.

ومن لطيف القول: إنّ هذا التعبير(أعني: الوصف بالأمانة) قد جاء في كلام سائر الأنبياء الذين وردت قصصهم في هذه السورة، كما سيمرّ عليك لاحقاً. لاحظ: الآيات:١٢٥، ١٤٢، ١٦٠.

ولعلّ التركيز على أمانة الأنبياء هو لاشتهارهم بها في حياتهم قبل البعثة، فمن لم يكذب عَبر حياته ولم يخن، لا يمكن أن يكذب على الله ويخون في إخباره عنه سبحانه. وكان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يلقّبه قومه بالأمين، وقد أُثر عن أبي جهل أنّه قال: إنّ محمّداً لم يكذب علينا، فلا يكذب على الله.

١٠٨. (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ):

أي خافوا عقاب الله في إصراركم على الشرك، وأطيعوني في ما أدعوكم إليه من الحقّ والخير والصلاح.

١٠٩. (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ):

أتمّ نوح(عليه السلام) كلامه مع قومه بالإعلان عن تنزّهه عن طلب الأجر على تبليغه الرسالة فقال: (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر) وما ذلك إلاّ لأنّ عملي لله، وكلّ عمل لله لو ترتّب عليه أجر فإنّما يُطلب أجره منه تعالى. وفي هذا دلالة على إخلاصه في دعوته وتفانيه من أجل أهدافها، بعيداً عن أيّ مطمع دنيوي أو مأرب شخصيّ، وهذه هي شيمة الأنبياء جميعاً.

١١٠. (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ):

كرّر نوح(عليه السلام) هذه الفقرة زيادة في التأكيد. ويظهر أنّ الإعلان عن تجرّده من أيّ غرض دنيويّ مع تحمّله تبعات الدعوة، هو الذي اقتضى أن يعيد عليهم هذه الفقرة، لتترك أثرها في نفوسهم.

الاعتذار عن عدم الإيمان

١١١. (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ):

الآية تحكي عن وجود طبقتين في ذلك المجتمع: طبقة مستضعَفة مسحوقة تكابد الفقر، وطبقة مترفة ذات جاه ونفوذ، وكان أهل الطبقة الأُولى سبّاقين إلى الإيمان به، فصار ذلك ذريعة لتحاشي أهل الطبقة الثانية عن الإيمان بدعوته متعلّلين بأنّ من حوله هم الأرذلون، فالإيمان به يجمعهم مع الفقراء المستضعفين، وهذا يوجب انحطاط مقامهم في المجتمع.

والعجب أنّ هذه الذريعة تمسّك بها أيضاً كفّار قريش، حيث طلبوا من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)طرد الفقراء من حوله وجعلوا ذلك شرطاً لإيمانهم، قال تعالى: (وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْء وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْء فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) الأنعام:٥٢. وقد أشار سبحانه إلى تلك الذريعة من قِبَل قوم نوح في موضع آخر، وقال:(فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْل بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ). هود:٢٧.

والفرق بين ما تذرّعوا به في المقام وما تقدّم في سورة هود، هو أنّهم تذرّعوا هنا بأنّه (عليه السلام) قد اتبّعه الأرذلون، ولكنّهم تذرّعوا في سورة هود بأُمور أربعة:

١. كون الرسول بشراً، (مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا).
٢. كون التابعين هم من الأراذل الذين أسرعوا إلى تصديقك دون تأمّل.
٣. لا مزيّة لكم علينا(وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْل).
٤. الشكّ في صدق دعوتكم(بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ).

ثمّ إنّ النبيّ نوحاً(عليه السلام) أجاب عن الذريعة الأُولى في سورتنا هذه بقوله:

١١٢. (قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ):

كأنّهم وصفوا المؤمنين به بأنّهم لم يؤمنوا به عن نظر وبصيرة وإنّما عن هوىً وطمع، فأجاب نوح بقوله: (وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ): أي وما علمي بما تقولون في حقّ هؤلاء ولم أُكلّف ذلك وإنّما كُلِّفت أن أدعوهم إلى الله، وقد أجابوني إليه، ولو صحّ ما تقولون عنهم فليس عليّ حسابهم، بل:

١١٣. (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ):

أي إنّ الذي يحاسبهم هو خالقهم، فلو كانوا يقترفون ذلك فهو العالم بظاهر أعمالهم وبباطنهم (لَوْ تَشْعُرُونَ) إشارة إلى غرورهم وإعجابهم بأنفسهم، والمعنى: لو فكّرتم في ذلك لشعرتم أنّ حسابهم على الله لا عليّ أنا، ولكن أنّى لكم الشعور بهذه الحقيقة؟ وقد حكى سبحانه هذا المعنى عنه بقوله:(وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) هود:٢٩..

١١٤ و ١١٥. (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ):

(وَمَا أَنَا) لأجل ما تقولون(بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ) لأنّ المحاسِب هو الله، وأمّا أنا فمسؤوليتي هي الإنذار فقط، كما قال: (إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ)فقد بُعثت لأُبيـّن ما يورث بأس الله وشديد عذابه، فمن أطاعني كان منّي، شريفاً كان أو وضيعاً، جليلاً كان أو حقيراً.

تهديد النبي نوح بمنطق القوّة

١١٦. (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ):

لمّا طال مقامه بين قومه وهو يعظهم ليل نهار ويخوّفهم بأس الله سرّاً وعلانية، لم يجدوا وسيلة لإطفاء دعوته إلاّ بتهديده بالرّجم كما هو سلاح المُبطلين إذا عجزوا عن إجابة المنطق بالمنطق فـ(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ)عمّا تقول وتدعو (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) بالحجارة.

ولمّا تمّت الحجّة عليهم ويئس نوح(عليه السلام) من إيمانهم، دعا الله سبحانه كما في قوله تعالى:

١١٧ و ١١٨. (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ):

أمّا قوله: (إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ) فهو مقدّمة لدعائه، حتى يستجيب الله سبحانه دعاءه لأنّهم كذّبوه فصار مظلوماً، وعند ذلك طلب من الله أمرين:

الأوّل: الحكم بالحقّ كما يقول:(فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا).

الثاني: نجاته ونجاة المؤمنين كما يقول: (وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

فاستجاب الله كلتا دعوتيه.

فأمّا استجابة الدعوة الثانية، فأشار إليها سبحانه بقوله:

١١٩. (فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ):

أي خلّصناه ومَن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة بأهله وأصحابه وبالحيوانات، ويدلّ عليه لفظ (الْمَشْحُونِ).

وأمّا استجابة الدعوة الأُولى، فأشار إليها سبحانه بقوله:

١٢٠. (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ):

نعم كان الإنجاء والإغراق في زمن واحد، والتعبير بـ(ثُمّ) في قوله: (ثُمَّ أَغْرَقْنَا) ترتيب في الإخبار.

١٢١ و ١٢٢.(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ):

هذه هي المرة الرابعة التي يكرّر فيها سبحانه هاتين الآيتين، أي إنّ في قصة نوح وقومه آية لقريش وكلّ من يكذّب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فليحذروا من نزول العذاب عليهم وإنجاء النبيّ ومن حوله من المؤمنين.

الآيات: الثالثة والعشرون بعد المئة إلى الأربعين بعد المئة(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ... الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

المفردات

عاد: اسم أب القبيلة الأكبر، فإنّ القبيلة إذا كانت عظيمة يعبّر عنها باسم الأب، أو يقال بني فلان أو آل فلان.

ريع: الرِّيع: المكان المرتفع من الأرض وجمعه أرياع، ومنه الريع في الطعام باعتبار ارتفاعه بالزيادة والنماء.

تعبثون: العبث: العمل فيما ليس له فائدة تُرجى منه، أو ليس فيه غرض صحيح لفاعله.

مصانع: القصور والحصون. وربّما يفسّر بمخازن المياه.

بطشتم: البطش: الأخذ بالعنف.

جبّارين: الجبّار: إذا وصف به الإنسان فهو بمعنى المتسلِّط العاتي بلا رأفة ولا شفَقة.

أمدّكم: أصل المدّ الجرّ، بمعنى إتباع الثاني ما قبله شيئاً فشيئاً على انتظام، قال سبحانه:(وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ) نوح:١٢.. قال الراغب: وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب، والمدّ في المكروه.(المفردات للراغب:٤٦٥، مادة «مدّ».)

التفسير

٤. قصّة قوم عاد

بعد ما أهلك سبحانه قوم نوح بذنوبهم، أنشأ من بعدهم أُمماً منهم قوم عاد (وهم من ذرية نوح(عليه السلام)) الذين أخبر سبحانه أنّهم يمتّعون ثم يعذَّبون بسبب طغيانهم . لاحظ: الأعراف:٦٥.

وكان قوم عاد يسكنون الأحقاف قال سبحانه:(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ)(الأحقاف:٢١.) والأحقاف تقع في شمال حضرموت وفي شمال الربع الخالي، وفي شرقها عُمان.

وكان قوم عاد ذوي بسطة في الخَلق، وأولي قوّة وبطش شديد، وكان لهم تقدّم في المدنية والحضارة، ولهم بلاد عامرة وأراض خصبة ذات جنات ونخيل وزروع ومقام كريم. الميزان في تفسير القرآن:٢٠/٢٨٠.

وكانوا غافلين عن عبادة الله سبحانه، غارقين في لذّاتهم ومجالس لهوهم، فبعث الله سبحانه هوداً من أنفسهم لأجل هدايتهم، وما أجابوه إلاّ بالتكذيب كما يقول:

١٢٣. (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ):

الآية تدلّ بظاهرها على أنّهم كذّبوا غير واحد من المرسلين مع أنّهم لم يكذّبوا إلاّ رسولاً واحداً، وقد عرفت معنى ذلك ممّا مرّ في تكذيب قوم نوح المرسلين.

١٢٤ ـ ١٢٧. (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ):

ما ورد في هذه الآيات هو نفس ما ورد على لسان نوح(عليه السلام)، وهذا يدلّ على أنّ منطق الأنبياء في كافّة الأزمنة كان واحداً، وبيان الأوّل منهم كان هو نفس بيان الثاني والثالث وهكذا. كما أنّ ردود أفعال أقوامهم من دعواتهم كانت متشابهة، حيث قام كبراء قوم كلٍّ من نوح وهود بالتكذيب.

١٢٨.(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ):

سيمر عليك في تفسير هذه الآيات أنّ النبيّ هوداً(عليه السلام) حذّرهم من أمرين:

الأوّل: حذّرهم من العبث الذي كانوايفعلونه والمتجسّد في بناء الأبنية الرفيعة في قمم الجبال.

الثاني: حذّرهم من تعاملهم مع الضعفاء بالظلم والبطش.

وذكّرهم بأمر ثالث، وهو نِعَم الله التي أمدّهم بها من الأنعام والبنين.

وفي الختام عطف نظرهم إلى عذاب يوم عظيم، وهو مردّد بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ولكن سيتبيّن أنّه أراد عذاب الاستئصال.

هذه خلاصة ما في هذه المجموعة من الآيات، وإليك التفصيل.

التحذير من العبث

هذه الآية تحكي أنّهم كانوا يبنون على قلل الجبال وكلّ مرتفع من الأرض أبنية كما يقول: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ) لكن كانت تلك الأبنية كالأعلام يتنزّهون فيها ويتفاخرون بها من غير ضرورة تدعوهم لذلك بل لهواً واتّباعاً للهوى.

إنّما الكلام ما هو المراد من تشبيه الأبنية بالآية بمعنى العلامة؟ قال الراغب: وقيل للبناء العالي آية. المفردات للراغب، ٣٣، مادة (آية).

وربما يقال: المراد العلَم وكانوا ممّن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتّخذوا في طرقهم أعلاماً طوالاً، فعبثوا بذلك لأنّهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم. تفسير الكشّاف:١٢١/٣.

يلاحظ عليه: أنّ الحاجة كانت ماسّة لوضع الأعلام، لوجود الغيوم والغبار في غير واحدة من الليالي والأيام، وليس مثل هذا عبثاً، فالمراد هو القصور المشيّدة، ولعلّ المراد بـ(آيَةً) أي علامة على عظمة الباني وتجبّره وتكبّره.

١٢٩. (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ):

أي القصور المشيّدة والحصون، ولعلّ الفرق بين القصور هنا وهناك هو أنّ الأُولى كانت مبنيّة فوق الجبال، وهذه في السفوح أو الوديان.

وربّما يخطر بالبال أنّ الانتفاع بالنعم الإلهية أمر غير محظور، فكيف يعاب عليهم؟

والجواب ما جاء في آخر الآية، وهو أنّهم يعملون الحصون المنيعة والقصور المشيّدة شأن من يرجو الخلود في الحياة الدنيا، كما يقول: (لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)، فكلّ بناء رفيعاً كان أو وضيعاً إذا صار سبباً لنسيان الله تعالى فهو وبال على صاحبه، وكلّ بناء يذكر عليه اسم الله سبحانه وكانت الغاية منه رفع الحاجة، فهو أمر محبوب أمر به الله تعالى.

التحذير من البطش
١٣٠. (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ):

الآية تحكي عن أنّهم كانوا عصاة عتاة، فكانوا يتعاملون مع الضعفاء بالتعسّف والظلم، كما يقول:(وَإِذَا بَطَشْتُمْ) بأحد تريدون عقوبته (بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ): أي عاقبتم عقوبة من يريد التجبّر، دون من يريد التأديب أو أخذ الحقّ.

فمن جانب كانوا مظهراً لحبّ الاستعلاء وحبّ الذات ببناء القصور الشامخة، ومن جانب آخر كانوا مظهراً للطغيان والتكبّر. ومن المعلوم أنّ من يمارس هذين الأمرين لا يدخل الإيمان قلبه، وإنّما يؤمن بآيات الله من كان في قلبه شيء من الخضوع للحقّ، وهم قد سدّوا قلوبهم عنه.

١٣١. (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ):

أي خافوا عقاب الله تعالى بترك هذه الأعمال العابثة وممارسة الظلم والعنف، وأطيعوني فيما أُوصيكم به وأنهاكم عنه بأمر ربّي.

التذكير بنعم الله

١٣٢. (وَاتَّقُوا الذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ):

ذكّرهم بنعم الله سبحانه على وجه الإجمال والإيجاز ليكون سبباً لعطف عقولهم نحو الله سبحانه وقال: (وَاتَّقُوا الذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ) وهو تذكير إجمالي بالنّعم التي أنعمها الله عليهم، وهم عارفون بها.

ثم إنّه ذكر تفصيل هذه النعم في الآيتين التاليتين.

١٣٣ و ١٣٤. (أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ):

إنّ الحضارة والتطوّر والتقدّم يعتمد على الأركان التالية:

١. وسائط النقل.

٢. القوة البشرية.

٣. الأراضي الخصبة.

٤. المياه.

فأشار سبحانه إلى الأوّل بقوله: (أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ)، وإلى الثاني بقوله: (وَبَنِينَ) وإلى الثالث والرابع بقوله: (وَ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ).

ولازم التذكير بهذه النعم هو الإذعان لله سبحانه بالطاعة والعبودية.

ولمّا لم يظهر منهم شيء في هذا الصدد ختم هود(عليه السلام) كلامه بتهديدهم بالعذاب فقال:

١٣٥. (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ):

وسيوافيك أنّ المراد من (عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) هو عذاب الإهلاك والاستئصال.

ويظهر ممّا حذّرهم منه هود أنّ الغالب على قومه هو طلب الاستعلاء والبقاء والتفرعُن والتجبّر.

اتّهام دعوته بأنّها من الأساطير

أدّى النبيّ هود(عليه السلام) رسالته على الوجه الأكمل وكابد في سبيلها أنواع المشاق، لكنّ قومه واجهوه بأمرين:

١٣٦. (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ):

الأمر الأوّل: أي لا تتعب نفسك يا هود فإنّا لا نرجع عمّا نحن فيه من سيرة الآباء فـ(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ). وكان حقّ الكلام أن يقولوا: أم لم تعظ، وفي العدول عنه إلى قوله:(أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ)نفي لأصل كونه واعظاً،

ففيه من المبالغة في عدم التأثّر.

قال أبو حيّان الأندلسيّ: جعلوا قوله وعظاً على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوّفهم به، إذ لم يعتقدوا صحّة ما جاء به، وأنّه كاذب فيما ادّعاه. البحر المحيط:٧/٣٣.

الأمر الثاني: اتّهام دعوته بأنّها من الأساطير والخرافات، فقالوا:

١٣٧. (إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ):

أي ليس هذا الذي تدعونا إليه إلاّ ما جرت به عادة المتقدّمين زماناً ممّن كانوا يدّعون الرسالة، وأنّ ما تقوله مثل ما قالوه من خرافات وأباطيل.

قال الراغب: الخَلْقُ والخُلُقُ في الأصل واحد، كالشَّرْب والشُّرْب والصَّرم والصُّرم، لكن خُصّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدرَكة بالبصر، وخُصّ الخُلُق بالقوى والسجايا المدرَكة بالبصيرة، قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) القلم:٤.. المفردات للراغب:١٥٨، مادة «خلق».

وليس اتّهام دعوة النبيّ هود(عليه السلام) بأنّها من أساطير الأوّلين هي التهمة الوحيدة، بل رمَوه بتهم أُخرى ذُكرت في سور أُخرى، منها:

١. السفاهة، قالوا:(إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ). الأعراف:٦٦.

٢. الاتّهام بالكذب، قالوا:(وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ). الأعراف:٦٦.

٣. الخبل، كانوا يزعمون أنّ بعض آلهتهم قد مسّت هود(عليه السلام) بضرّ لسبّه إيّاها، فصار يهذي بكلام غير معقول، وكانوا يقولون: (إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) هود:٥٤..

١٣٨. (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ):

وبعد إعرابهم عن عدم المبالاة بما يقول وإيكال التهم إليه، زعموا أنّهم غير معذَّبين!! ولكن من أين علموا أنّهم ليسوا بمعذَّبين؟! والجواب ـ كما تنمّ عليه الآية المتقدّمة ـ لاعتقادهم بأنّ كلّ ما جاء به نبيّهم كذب وأساطير، ومنه ما أنذرهم به من العذاب (دنيوياً كان أم أُخروياً)، غير أنّ المستقبل أثبت وهنَ هذا الظنّ، كما يقول:

١٣٩ و ١٤٠. (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ):

لمّا أتمّ سبحانه حجّته عليهم ولم يكن نصيب نبيّه منهم إلاّ إيكال التّهم إليه والتكذيب بما أتى به، فعندئذ استحقّوا عذاب الاستئصال إذ لم يبق هنا بصيص رجاء لإيمانهم كما يقول: (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ).وأمّا كيفية إهلاكهم فقد تضمّنها قوله سبحانه في موضع آخر:(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ) فصلت:١٦. ولاحظ: سورة المؤمنون:٤٠..

ثمّ إنّه سبحانه أكمل قصة هود بالآيتين اللّتين وردتا في ختام قصص الأنبياء المتقدّمين.

الآيات: الحادية والأربعون بعد المئة إلى التاسعة والخمسين بعد المئة(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ... الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ *

وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).
المفردات
ثمود: قوم كانوا يقطنون بين الحجاز والشام شمالي وادي القرى. وقال كثير من المفسّرين: إنّ الحِجر في قوله: (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) الحجر:٨٠ . هو اسم البلد الذي كانوا فيه.(التفسير الكاشف:٤/١٨٦).
طلعها: الطَّلْع: الطّلع في الأصل: غلاف يشبه الكوز، ينفتح عن حبٍّ منضود فيه مادّة إخصاب النخلة، ثمّ أُطلق على كلّ ما يطلع في الشجر من ثمر، توسّعاً الطلع.
هضيم: متداخل منضمّ بعضه إلى بعض، أو يانع نضيج.
تنحتون: النَّحْت: النَّجْر. يقال: نَحَتَ الحجَر: سوّاه وأصلحه، ونَحَت الخشبة: نجَرها، ونَحَت الجبل: حفَره.
فارهين: الفَرَه: شدّة الفرح.
المسحّرين: الذين سُحِروا فذهبت عقولهم.
شِرب: الشِّرب: النصيب والحظ.
عقروها: عَقَر البعير: قطع إحدى قوائمه بالسيف، نَحَره. وجُعل النَّحْر عَقْراً لأنّ العقر سبب لنحره، وناحر البعير يعقره ثمّ ينحره.
التفسير
٥. قصة صالح(عليه السلام) وقومه ثمود
هذه هي القصة الخامسة التي يذكرها القرآن الكريم في هذه السورة بعد قصة موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود(عليهم السلام). وقوم ثمود كانوا عرباً كقوم هود، يسكنون بين الحجاز والشام شمالي وادي القرى، وكانت مساكنهم معروفة لدى قريش حيث يرونها بأعينهم في رحلتهم الصيفية إلى الشام. وقد دعا صالح(عليه السلام)قومه إلى عبادة الله ونهاهم عن عبادة الأصنام، ولكن كان مصيرهم كمصير قوم هود(عليه السلام)ابتداءً ونهاية. ١٤١ـ١٤٥. (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ):
منطق النبيّ صالح(عليه السلام)
الكلام في هذه الآيات كالقول في نظائرها التي مرّت في أوائل قصص نوح وإبراهيم وهود(عليهم السلام)، والغاية تسلية النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّ تكذيب قومه ليس أمراً بديعاً بل كان سنّة سيئة في الأقوام السابقة، والتكرار يدلّ على أنّ منطق الأنبياء واحد، أوّلهم كآخرهم. ورث قوم ثمود الأرض من بعد قوم عاد كما يظهر من خطاب نبيهم صالح(عليه السلام) لهم، قائلاً:(اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ) الأعراف:٧٤. وأرسل الله إليهم نبيّهم صالحاً، وهو ثالث الأنبياء بعد نوح وهود ممّن دعوا إلى التوحيد وناهضوا الشرك. ويظهر ممّا نقله سبحانه عن النبيّ موسى(عليه السلام) أنّ هاتين الأُمّتين العربيتين ـ أعني: عاداً وثمود ـ قد بادتا وانقطعت أخبارهما ولم يبق في أيدي الناس إلاّ شيئاً قليلاً من أخبارهم، يقول سبحانه على لسان موسى(عليه السلام): (وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ). إبراهيم:٨ ـ ٩.

ثمّ إنّ صالحاً(عليه السلام) بعد أن بلّغ قومه رسالة ربّه لم يكن نصيبه إلاّ التكذيب كما يشير إليه قوله سبحانه:(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ)، وأمّا الآيات الباقية فقد مرّ تفسيرها في قصة نوح وقصة هود(عليهما السلام).

١٤٦. (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ):

قوله: (أَتُتْرَكُونَ) ضُمِّنَ معنى الظنّ. قوله: (هَا هُنَا) إشارة إلى ما يأتي من (جَنَّات وَعُيُون)، أي أتظنّون أنّكم تتركون فيما آتاكم الله من النّعم (آمِنِينَ) من تصرّف حالات الدنيا، ومن سلب ما ركنتم إليه منها؟ بل ستزول هذه النّعم وتُسألون عنها في يوم آخر.

قال الإمام علي(عليه السلام) من خطبة له في التزهيد في الدنيا:«فَإِنَّهَا وَاللهِ عَمَّا قَلِيل تُزِيلُ الثَّاوِيَ السَّاكِنَ، وَتَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الأمِنَ» نهج البلاغة: الخطبة ١٠٣,٢.

ثمّ إنّه سبحانه فصّل ما في قوله : (هَا هُنَا) وقال:

١٤٧ـ١٤٩.(فِي جَنَّات وَعُيُون * وَزُرُوع وَنَخْل طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ):

قوله: (فِي جَنَّات): أي بساتين مليئة بالشجر (وَعُيُون) جارية فيها (وَزُرُوع وَنَخْل) خصّ النخل بالذكر لأنّه أنفس الأشجار عند سكّان شبه الجزيرة العربية وكانوا يهتمّون بها أكثر من غيرها (طَلْعُهَا): أي ثمرها (هَضِيمٌ)متداخل منضمّ بعضه إلى بعض، أو يانع ناضج.

قال الشريف الرضي: الهضيم: الذي قد ضمر في متن الكتاب: ضمن. وفي هامشه: لعلّ الأصل ضمر.بدخول بعضه في بعض فكأنّ بعضه هضم بعضاً لفرط تكاثفه وشدّة تشابكه. وقيل: الهضيم اللطيف وذلك أبلغ في صفة الطلع الذي يراد للأكل، وذلك مأخوذ من قولهم: فلان هضيم الحشا أي لطيف البطن، ومنه قوله تعالى: (فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا وَلاَ هَضْمًا) طه:١١٢.أي نقصاً وثلماً.

وقيل: الهضيم الذي قد أينع وبلغ. انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٦٨.

قوله: (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ) أي تتّخذون بيوتاً جبلية للفره والفرح، فليس المذموم هو اتخاذ البيوت المنحوته في الجبال وإنّما المذموم بواعث اتّخاذ تلك البيوت، وهي الأشر والبطر وحبّ العلوّ في الأرض.

وحاصل كلامه التذكير بنعم الله سبحانه من جنات وعيون وزروع وثمار النخل أوّلاً، ثم التنديد بتلك البواعث المريضة لبناء البيوت الجبلية ثانياً، فمكان أن يشكروا الله سبحانه على ما أنعم به عليهم، أترفتْهم تلك النّعم وأبطرتهم، فعتوا عن الحقّ، واستكبروا عن طاعة الله وعبادته.

١٥٠ـ ١٥٢. (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ):

ثمّ دعاهم(عليه السلام) إلى تقوى الله وإطاعة رسوله وقال: (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ) لأنّ إطاعة الرسول كإطاعة الله سبحانه، ومن أطاع الرسول فلا يطيع المسرفين كما يقول:(وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ) ثم عرّف المسرفين بقوله: (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ) أبداً. ويستفاد من قوله: (وَلاَ يُصْلِحُونَ) أنّ المفسدين على قسمين: قسم يفسد ويصلح، وقسم يفسد ولا يصلح أبداً، وهؤلاء هم المسرفون.

إلى هنا تمّ خطاب صالح(عليه السلام) لقومه، بقي الكلام في ردّ فعل القوم لخطابه وتحذيراته.

منطق قوم ثمود

١٥٣ و١٥٤. (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَة إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ):

حاصل ما ردّ به قوم ثمود دعوة نبيّهم صالح(عليه السلام)، يرجع إلى أُمور ثلاثة:

١. (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ): أي ممّن غلب السحر على عقله ففسد.

٢. (مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا) فكيف تكون رسولاً من الله؟
٣. (فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ): أي بمعجزة تثبت صلتك بالله سبحانه.

أمّا التهمة الأولى، أي اتّهامه بكونه مسحوراً قد سُلب عقله فلا يدري ما يقول، فهو تعبير آخر عن كونه مجنوناً، وقد مرّ صالح (عليه السلام) على هذه التهمة مرور الكرام؛ لأنّ الإجابة عنها نوع اهتمام بالتهمة ولم يزل المصلحون يُرمَون بهذه التهمة، وقد مضى أنّ قوم عاد اتّهموا نبيّهم هوداً(عليه السلام) بقولهم: (إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوء) هود:٥٤..

وأمّا الأمر الثاني وهو كونه بشراً والرسول يجب أن يكون ملَكاً جامعاً لصفات الكمال، فقد جاءوا بمثل ما جاء به قوم عاد، وكأنّهم ينطلقون ـ في هذه النظرة ـ من واقع نفسيّاتهم الخالية من كلّ الفضائل والسجايا الفاضلة، ولم يتصوّروا أنّ الأنبياء يحملون من الخصائص الكريمة والمواهب الرفيعة ما يجعلهم قادرين على حمل أمانة الرسالة الإلهية والدعوة إليها بكلّ جدارة.

وأمّا الأمر الثالث، أي طلب المعجزة والدليل على صلته بالله فقد استجاب لطلبهم هذا، وذلك أنّ مصلحة الدعوة تقتضي أحياناً إجابة بعض هذه الطلبات، ولذلك أرسل الله لهم ناقة كمعجزة من المعجزات الخارقة للقوانين الطبيعية المعروفة، بل روي أنّهم سألوه أن يُخرج لهم من إحدى الصخور ناقة مخترجة جوفاء وبراء (والمخترجة ما شابه البخت من الإبل) وقالوا: إن فعلت صدّقناك وآمنّا بك، فسأل صالح الله سبحانه ذلك فانصدعت الصخرة صدعاً كادت عقولهم تطير منه، ثمّ اضطربت كالمرأة يأخذها الطلق ثم انصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء مجمع البيان:٢/٤٤١(تفسير الآية ٧٣ من سورة الأعراف).، وقد أوحى الله تعالى إليه بأنّه سيرسل الناقة اختباراً لهم ليتميّز المطيع من العاصي، والطيّب

من الخبيث كما يقول: (إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ). القمر:٢٧. وقد أدّى صالح(عليه السلام) ما أوحى الله إليه كما يقول:

١٥٥ ـ ١٥٧. (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْم مَعْلُوم * وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْم عَظِيم * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ) :

الظاهر من الآيات أنّ صالحاً(عليه السلام) اشترط على القوم أن يكون الماء بين الناقة وبينهم مناصفة تَرِده يوماً ويَرِدونه يوماً آخر، وإليه يشير بقوله: (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْم مَعْلُوم) وقاله(عليه السلام) بأمر من الله كما يقول: (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْب مُحْتَضَرٌ). القمر:٢٨.

ثمّ إنّ النبيّ صالحاً(عليه السلام) نهى عن الفتنة وعن مسّ الناقة بسوء وقال: (وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء): أي أذىً (فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْم عَظِيم): أي يأخذكم الله بعذابه.

ولكن أسفر الامتحان والاختبار عن النتيجة التي كانت متوقّعة حيث إنّهم آذوا الناقة ومسّوها بسوء بل (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ): أي نحروها ثمّ ندموا على فَعلتهم عندما رأوا أمارات حلول العذاب بهم.

نزول عذاب الاستئصال

١٥٨ و ١٥٩. (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ):

قوله تعالى:(فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ): أي أهلكهم بعذاب الاستئصال ولم يبق منهم أحداً، ولم ينفعهم الندم؛ لأنّه كان عند معاينة أمارات العذاب، كما قلنا آنفاً. وربّما يتوهّم في بعض الأذهان أنّ هذا العذاب الذي شمل ثمود أكبر من الجريمة التي ارتكبوها، ولكن الإجابة واضحة وهي أنّ الإقدام على عقر الناقة كان جرأة على الله واستهانة بآياته وبيّناته، وقد عبّروا عن شديد عدائهم للحق وغوايتهم بأن طلبوا من نبيّهم بأن يأتي بآية دالّة على صدقه ومع ذلك قاموا بعقر الناقة.

إنّها لجريمة كبرى أن تُنال بسوء آية الله التي تتجلّى فيها عظمته سبحانه فتُحرم الأُمّة من خيرها ونفعها، ومن هنا وُصف عاقر الناقة بأنّه أشقى الأوّلين، ووصف من اغتال الآية الكبرى ووصي المصطفى (صلوات الله وسلامه عليهما وآلهما) بأنّه أشقى الآخرين.

روى الثعلبي في تفسيره بإسناده مرفوعاً إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «يا علي أتدري من أشقى الأوّلين؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال:«عاقر الناقة»، قال: «أتدري من أشقى الآخرين؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «قاتلك» وفي رواية أُخرى قال: «أشقى الآخرين من يخضب هذه من هذه» وأشار إلى لحيته ورأسه. مجمع البيان:٢/٤٤٣.

وذكر نحوه ابن أبي الحديد المعتزلي، وعدّه من الأحاديث الثابتة. شرح نهج البلاغة:٩/١١٧.

ثمّ إنّه سبحانه نسب عقر الناقة إلى القوم جميعاً مع أنّ العاقر كان واحداً منهم، وما ذلك إلاّ لأنّهم كانوا راضين بعمله ومحرّضين له، يقول الإمام علي(عليه السلام):«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَى وَالسُّخْطُ. وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَى، فَقَالَ سُبْحانَهُ : (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)، فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الاَْرْضِ الْخَوَّارَةِ». نهج البلاغة: الخطبة ٢٠١.

ويظهر من مجموع ما مرّ: أنّ الغالب على قوم صالح هو اللّذات الحسّيّة، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيّبة.

إلى هنا تمّت قصة قوم ثمود، ثمّ عاد البيان القرآني إلى الاستنتاج وذكر الفائدة من بيانها وقال: (إِنَّ فِي ذَلِكَ): أي في قصة قوم ثمود (لآيَةً): أي عبرة (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)وقد مرّ تفسير هاتين الآيتين، التي ختمت بهما القصة كما ختمت بهما قصة نوح وهود (عليهما السلام) .

الآيات: الستون بعد المئة إلى الخامسة والسبعين بعد المئة(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوط الْمُرْسَلِينَ... الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوط الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

المفردات

الذُّكران: جمع ذَكر.

عادون: جمع عاد، والعادي: المتعدّي في ظلمه، المتجاوز فيه الحدّ.

تَذَرون: تَتركون.

القالين: جمع القالي، وهو المبغِض.

الغابرين: جمع الغابر، بمعنى الباقي.

التفسير

٦. النبي لوط(عليه السلام) في أرض المؤتفكات

هذه هي القصّة السادسة في هذه السورة، وسيوافيك في تفسير سورة العنكبوت الحديث ـ مفصّلاً ـ عن لوط(عليه السلام) وهو ابن أخي إبراهيم الخليل(عليه السلام)، وقد استقرّ في إحدى مدن الأردن المجاورة للبحر الميّت، وتسمّى (سَدُوم).

وقد عاصر(عليه السلام) قوماً يرتكبون أقبح الأعمال وأشنعها، حيث كانوا يقطعون الطريق على المارّة ويمارسون معهم ذلك

العمل القبيح حتى أنّهم كانوا يتعاطون في مجالسهم كل منكر.

١٦٠ـ ١٦٤. (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ):

ذكر سبحانه أنّ قوم لوط كذّبوا المرسلين مع أنّ الكلام عن رسول واحد، وتأويل ذلك أنّ دعوات المرسلين واحدة في جوهرها، وأنّهم متّفقون في الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، وبهذا يكون تكذيب واحد منهم تكذيباً لسائر المرسلين.

وقد بدأ لوط خطاباته الرسالية بنفس ما بدأ به سائر النبيّين كنوح وهود وصالح(عليهم السلام) لأنّ منطق الأنبياء ـ ابتداء ونهاية ـ واحد، وأنّ شعار الجميع هو: (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ).

نعم كان لوط(عليه السلام) عبرانياً ولم يكن من أهل سدوم، وكان قوم لوط من أهل فلسطين من الكنعانيّين، ولكن لمّا استوطن بلادهم وعاش بينهم صار في الظاهر أخاً لهم. ويحتمل أن يكون التعبير بالأخ لوجود المصاهرة بينه وبينهم.

١٦٥ و١٦٦. (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ):

قوله: (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ) الاستفهام إنكاري وتوبيخي، والإتيان كناية عن العمل الشنيع وقوله: (مِنَ الْعَالَمِينَ) يحتمل أن يكون حالاً من ضمير الفاعل في (أَتَأْتُونَ) والمراد أتأتون أنتم من بين العالمين هذا العمل الشنيع، فيكون بمنزلة قوله: (مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَد مِنَ الْعَالَمِينَ) الأعراف:٨٠..

ويمكن أن يكون قيداً للذكران، والمعنى على هذا: أتنكحون من بين العالمين ـ على كثرتهم واشتمالهم على النساء ـ الرجال فقط؟

قوله: (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ) يحتمل أن يراد بالموصول (مَا) فروج النساء التي خلقها الله تعالى للذكران، ويحتمل أن يراد به النساء الذي يفسره قوله: (مِنْ أَزْوَاجِكُمْ)، وحاصل الآية: إنّ الله سبحانه خلق النساء للرجال لا لأمثالهن من النساء، كما خلق الرجال للنساء لا لأمثالهم، وجعل سبحانه جاذبية خاصّة بين الرجل والمرأة، وهذه تشهد على أنّ كلاًّ خُلق للآخر، فالعدول عن هذه القاعدة عدول عن مقتضى حكم الفطرة، ولذلك قال: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ): أي متجاوزون للحدود التي تقرّها العقول والشرائع، بعيدون عن حكم السجيّة والطبيعة والفطرة.

ثمّ الظاهر من الآيات التالية أنّ لوطاً لم يُكتب له النجاح في ردعهم عن هذا العمل الشنيع، وهذا يكشف عن تحوّل هذا العمل إلى ظاهرة اجتماعية خطيرة وإلى مرض وبيل سرى في نفوسهم إلى حدٍّ لم يَعُد ينفع معه أي علاج سوى إزهاق تلك الأنفس الملوّثة بالأرجاس.

وقد بلغت شناعة هذا العمل إلى حدٍّ لم نجد معه القرآن الكريم يركّز على الجانب الاعتقادي لقوم لوط ولم يتطرّق إلى المعبودات التي كانوا يعبدونها، بل ذكر بإيجاز دعوة لوط إيّاهم إلى تقوى الله وطاعة نبيّه الذي كان يحرص على هدايتهم ولا يبغي على ذلك منهم أجراً.

١٦٧. (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ):

يظهر من قولهم هذا أنّ ردّ فعلهم كان مثل ردّ فعل قوم نوح(عليه السلام)، فكما أنّ قوم الثاني هدّدوا نبيّهم بقولهم: (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) الشعراء:٦٦. فهكذا هدّد قوم لوط نبيّهم أيضاً بقولهم:(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ)عمّا تدعونا إليه وتنهانا عنه (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)من مدينتنا!!

١٦٨. (قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ):

لم يكترث لوط(عليه السلام) لتهديد قومه بإبعاده قسراً، بل عبّر بصوت عال عن سخطه وبغضه الشديد لعملهم الشنيع،

و (قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ)المبغضين، فقد أعلن عن بغضه في مقابل عملهم لا في مقابل تهديدهم.

١٦٩. (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ):

قام النبي لوط(عليه السلام) بمهمّتة الرسالية على أتمّ وجه، حيث وعظ قومه وحاورهم ونصحهم ونهاهم عن ارتكاب هذا العمل الرّجس، ولكنّهم لم يتّعظوا بعظاته ولم يبالوا تحذيراته، فلما يئس من إصلاحهم دعا الله تعالى بقوله: (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ) وطلب منه أن ينجيه وينجي أهله من مغبّة ما يعمل قومه.

ويظهر من بعض الآيات أنّه لم يكن في القرية بيت يجتنب تلك الخطايا والفواحش غير بيت لوط(عليه السلام)، قال تعالى: (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) الذاريات:٣٦..

١٧٠ و١٧١. (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ):

قضت مشيئته سبحانه بتطهير الأرض من الفاسقين الذين لم يبق بصيص من الأمل في انتشالهم من هذا العمل، ولذلك نجّى الله لوطاً وأهله أجمعين باستثناء امرأته المسنّة، التي صارت من الباقين فيمن هلك من القوم لكفرها وخيانتها لزوجها (بإعانة الفاسقين عليه)، كما جاء في قوله تعالى: (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا) التحريم:١٠..

١٧٢. (ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ):

أي أهلكنا الباقين، وأمّا كيفية إهلاكهم فتبيّنه الآية التالية:

١٧٣. (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ):

المطر هو الماء النازل من السحاب، وأُريد هنا نزول الحجارة، شُبّه بالمطر لنزولها من الجوّ إلى الأرض، ويفسّر الآية قوله سبحانه:(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) الحجر:٧٤، فهي تدلّ على أنّ المنزَّل من السماء هو الحجارة لا الماء، وهذا من قبيل تفسير القرآن بالقرآن.

ثمّ إنّه سبحانه ختم قصة النبيّ لوط(عليه السلام) بما ختم به قصص الأنبياء من قبل، كموسى ونوح وهود وصالح(عليهم السلام) وقال:

١٧٤ و ١٧٥. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ):

وقد تقدّم تفسيرهما فيما تقدّم.

دروس وعبر في قصّة لوط(عليه السلام)

بعد أن تمّ تفسير هذه الآيات وغيرها ممّا ورد في السور الأُخرى، يمكن استفادة العبر والدروس التالية:

١. إنّ المجتمع الّذي يتمادى في ممارسة الشهوات واتّباع الأهواء(كقوم لوط(عليه السلام))، يُحرِق مواهبَ أبنائه وطاقاتهم وقدراتهم الخلاّقة، ويُخمد جذوة هممهم في التطلّع إلى الرُّقيّ والرفعة في شتى مجالات الحياة، ويدفع بهم إلى الانسياق وراء الأُمور التافهة، والأشياء الرخيصة، ويُغلق عليهم منافذ التفكير في تسخير هذه الطاقات فيما يعود عليه وعليهم بالنفع والخير والرفاه.

٢. إنّ الأعمال السيئة الّتي يقوم بها بعض الأفراد، قد تستشري في المجتمع بأكمله وتُصبح ظاهرة عامّة فيه، ومرضاً مستعصياً ينهش روحه، وحينها يعجز أطباء النفوس عن معالجته ودرء خطره، مهما أُوتوا من علم وحكمة، وتميّزوا به من صدق وإخلاص.

ومن هنا تتأكد الحاجة إلى وضع حلول مناسبة لمعالجة الانحرافات السلوكية لدى بعض الأفراد قبل أن يتّسع مداها في المجتمع، وإلى اتّخاذ إجراءات رادعة، تعمل على استئصالها أو تقليصها ومحاصرتها في دائرة ضيّقة، وعدم السماح لها بأن تُمارس في الهواء

الطلق.

ومن الوسائل الناجعة في هذا المجال، تفعيل دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس، وتنمية الشعور بالمسؤولية تجاه قضايا المجتمع ومصالحه العامّة.

٣. إنّ المجتمع الّذي يألف ممارسة الأعمال القبيحة، ويأنس بحياة اللهو والعبث، ولا يكترث إلاّ للرغائب التافهة... هذا المجتمع سوف تنعدم لديه المقاييس الصحيحة، وتبرز بدلها مقاييس أُخرى خاطئة، يحكم بها على القضايا المختلفة بصورة مقلوبة، الأمر الّذي يُفقده الكثير من المكاسب والمغانم الحقيقية في المجالين المادّي والمعنوي، ويُفضي به إلى التصدّع والانهيار وملاقاة مصيره القاتم.

ولا غرابة في مثل هذا المجتمع أن تصبح الشجاعة والإقدام فيه تهوّراً، والجُبن والاستسلام تعقّلاً، والركون إلى الظالم واقعيةً، والتملّق لباقة وحسن سياسة، والطهر والعفاف تشدّداً وانغلاقاً، والفسق والفجور تحضّراً وانفتاحاً.

اقرأ معي هاتين الآيتين، لتدرك مستوى الانحدار الذي يصل إليه المجتمع عند ضياع الموازين الصحيحة:

(أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)!! الأعراف:٨٢.

(قَالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ)!! الحجر:٧٠.

٤. إنّ الأمراض النفسية والخلقية شأنها في المعالجة شأن الأمراض الجسمية، فإذا ما أُصيب ـ مثلاً ـ جزء من أحد أعضاء الإنسان بمرض ما، فإنّ علاجه قد يتمّ باستئصال ذلك الجزء، وأمّا إذا استفحل المرض وسرى إلى العضو كلّه، فإنّ الأطباء لن يجدوا مناصاً من بتره أو استئصاله ليضمنوا بذلك سلامة الجسم بأكمله.

والمجتمع الّذي تتفشّى فيه الأمراض النفسية والخلقية ويُصاب بكلّ كيانه، ويتلاشى الأمل في إصلاحه، فإنّ الحكمة تستدعي محوه من خارطة الوجود، لأنّ بقاءه يؤثر سلباً على باقي المجتمعات ويصيبها بالعدوى. ومن هنا استأصل سبحانه قوم لوط، ولم يُبق أحداً منهم، لئلاّ يؤثّر على سائر الأقوام.

الآيات: السادسة والسبعون بعد المئة إلى الحادية والتسعين بعد المئة(كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ... الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)
(كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

المفردات
الأيكة: الغَيضة ذات الشجر الملتفّ، والجمع: الأيك. المُخسِرين: المُنقِصين. تبخسوا: البخس: نقص الشيء على سبيل الظلم، أي لا تنقصوا. تعثَوا: من العيث بمعنى الفساد، أي لا تفسدوا. الجِبلّة: الخليقة التي طبع عليها الشيء، قال الشاعر:

والموت أعظم حادث *** ممّا يمرّ على الجبلّة

كِسَفاً: قِطعاً، واحدها كِسْفة كقطعة وزناً ومعنى.

الظُّلّة: السحابة التي استظلّوا بها بزعم أنّها تحمل الماء.

التفسير

٧. قصة أصحاب الأيكة ونبيهم شعيب(عليه السلام)

١٧٦ـ ١٨٠.(كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ):

يظهر من ذكر قصة شعيب بعد قصة لوط أنّه بعث إليهم بعد إهلاك قوم لوط(عليه السلام)، وقد ذكر سبحانه قصة أصحاب الأيكة بعد قصة قوم لوط في سورة الحِجر أيضاً، حيث قال: (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَام مُبِين). الحجر:٧٨ـ ٧٩.

وهذا يدلّ على أنّ مدينة أصحاب الأيكة كانت بطريق يؤمّ ويتّبع ويُهتدى به. فسمّي الطريق إماماً لأنّ الإنسان يؤمّه. مجمع البيان:٣/٢٤١.

اختلف المفسّرون في أنّ أصحاب الأيكة هم أصحاب مدين الذين جاءت قصتهم في سورة الأعراف،[٣] لاحظ: الأعراف:٨٥ ـ ٨٦ ، سورة هود: ٨٤ ـ ٨٦. أو غيرهم الذين جاءت قصتهم في سورة الشعراء. لاحظ: الشعراء:١٤٦ـ ١٨٤.

قال الطبرسي في تفسير قوله: (كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ): وهم أهل مدين، عن ابن عباس؛ وقيل: إنّهم غيرهم، عن قتادة، وقال: إنّ الله سبحانه أرسل شعيباً إلى أُمّتين(إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ) ولم يقل أخوهم لأنّه لم يكن من نسبهم وكان من أهل مدين، ولذلك قال في ذلك الموضع (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا). مجمع البيان:٧/٣٧٣.

والذي يؤيّد الوحدة هو وحدة عظاته ونهيه عن المفاسد الاقتصادية في كلا الموردين. لاحظ: الأعراف:٨٥.

اللّهمّ إلاّ أن يقال: إنّ كلا القبيلتين كانتا في الفساد على وتيرة واحدة.

ومهما يكن، فإنّ بيان شعيب(عليه السلام) يماثل بيان مَن سبقه من الأنبياء حيث حضّهم على اتّقاء عقاب الله تعالى بقوله:(أَلاَ تَتَّقُونَ) وهو يُشعر بأنّ موقفهم ممّا يدعوهم إليه من التوحيد في العبادة، والذي حكاه عنه سبحانه بقوله:(يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ) الأعراف:٨٤، كان يتّسم بالرفض والعناد. ثمّ وصف(عليه السلام) نفسه بأنّه (رَسُولٌ أَمِينٌ)لا يكذب ولا يخون، وفيه إشارة إلى أنّه كان مشهوراً بالأمانة بين قومه. وبما أنّ كونه رسولاً أميناً، يقتضي منهم الاستجابة لما يبلّغهم به عن ربّه، قال لهم:(فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ) فيما أدعوكم إليه. ثمّ قال لهم: (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر إِنْ أَجْرِي إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ).

ثم تعرّض إلى بعض المفاسد التي شاعت بينهم في حياتهم الاقتصادية وقال:

١٨١ ـ ١٨٣. (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ):

أمرهم بشيئين، ونهاهم عن ثلاثة أُمور.

أمّا الأمر الأوّل فقال: (أَوْفُوا الْكَيْلَ).

وأمّا الثاني فقال: (وَ زِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ).

وأمّا ما نهى عنه فهو:

١. (وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ).
٢. (وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ).
٣. (وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ).

والظاهر كما سيوافيك أنّ كلاًّ من النَّهيين متمِّم لما سبقه من الأمر، وأمّا النهي الثالث فهو نهي عام يشمل كلّ جريمة وعمل محرّم من غير فرق بين الكيل والوزن وغيرهما.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى تفسير الآيات.

قوله تعالى: (أَوْفُوا الْكَيْلَ) الميزان والمكيال آلتان لتعيين قدر المبيع كيلاً ووزناً، فبعض الأشياء تباع بالكيل وبعض آخر بالوزن حسب العادة بين الناس، فأمرهم(عليه السلام) بإيفاء الكيل بمعنى إذا بعتم للناس فكيلوا لهم الكيل كاملاً (وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ): أي المنقصين والمطففين، وبهذا عُلم أنّ النهي مؤكّد للأمر، وقد جاء هذا المضمون في قوله سبحانه: (وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) المطففين:٣. أي إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم يُخسرون ويُنقصون حقّهم، وهذا يؤيّد ما ذكرنا من أنّ قوله: (وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ)متمّم للأمر بإيفاء الكيل وليس شيئاً جديداً، ولذلك اقتصر في سورة «المطَفّفين» على لفظ (يُخْسِرُونَ).

وأمّا الأمر الثاني ـ أعني قوله:(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)ـ فأمر بأن يزن الناس بالعدل في الأخذ والإعطاء وقال: (وَ زِنُوا بِالْقِسْطَاسِ): أي الميزان (الْمُسْتَقِيمِ): أي العدل.

وأمّا قوله: (وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) البخس: نقص الشيء على سبيل الظلم، فيمكن أن تكون الفقرة مشيرة إلى النهي عن وصف سلعة الناس بالرداءة، بأن يقول بأنّ سلعتك رديئة ليصرف عنها الراغبين حتى يشتريها هو برخص.

والحاصل أنّهم كانوا إذا باعوا يخسرون في الكيل والوزن، وبما أنّ البيع والشراء في تلك الظروف كان مبنياً على تبديل عين بعين ومال بمال، فكانوا يطفِّفون في الكيل والوزن لصالحهم وينقصون من حقوق الناس، كما أنّ مدينتهم كانت في طريق القوافل إلى الشام والحجاز فكانوا يصفون أمتعة الآخرين بالرداءة ليشتروها بقيمة نازلة.

هذا ويظهر من سورة «المطَفِّفين» أنّ قريشاً كانت مبتلاة بهذه الجريمة، فإذا أرادوا الشراء يستوفون الكيل والوزن، وأمّا إذا أرادوا البيع يطفِّفون، ومن المعلوم أنّ كلّ من ابتلي بهذه الجريمة لا يلاحظ العدل في غير هذا المورد فيكون متعدّياً لسائر الحقوق.

ثمّ إنّ شعيباً أتى بكلمة جامعة تشمل المورد وغيره وقال: (وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) وهو يعمّ القتل والغارة وقطع الطريق والسَّلب والنَّهب.

١٨٤. (وَاتَّقُوا الذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ):

وهنا يُلفت شعيب(عليه السلام) نظر قومه إلى مَن تقدّمهم من الخلائق الذين كانوا أشدّ منهم قوّة وأكثر أموالاً كقوم هود وصالح، ويقول:(وَاتَّقُوا الذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ): أي الأُمم السابقة، وهذا الخطاب ينطوي على تهديد بالإشارة، أي إنّ الله الذي أهلك المفسدين من القرون الماضية هو الذي خلقكم ويمكن أن يشملكم إهلاكه.

إلى هنا تمّت خطاباته ونصائحه التي جاءت في المقام بصورة الإيجاز، وجاءت مبسوطة في سورة هود. لاحظ: هود:٨٦ ـ ٩٣.

١٨٥ و ١٨٦.(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ):

ردّ فعل القوم

كان على القوم أن ينتفعوا بما اشتملت عليه أقوال شعيب(عليه السلام) من توجيه وإرشاد وإنذار، ولكنّهم لم يكترثوا لها، بل تمادوا في غطرستهم وتذرّعوا في ردّها بأُمور ثلاثة:

١. اتّهامه بفساد العقل، كما يقول: (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)وأرادوا بوصفه مسحَّراً: فساد عقله وذهاب دركه، وكأنّ سحر الساحر أثّر في عقله. وقد مرّ نظيره في قصة النبيّ صالح(عليه السلام)، حيث اتّهم بكونه من المسحّرين. لاحظ: الشعراء:١٥٣.

٢. كونه بشراً، كما يقول: (وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا): أي فلا مزيّة لك علينا.

٣. الظنّ بكذبه، كما يقول:(وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ).

والتعبير بالظنّ لئلاّ يطالَبوا بالدليل، إذ لو قالوا:أنت من الكاذبين لاحتاجوا إلى الدليل.

ثمّ إنّ القوم لم يكتفوا بإيكال هذه التهم التي شاعت في الأُمم السابقة بالنسبة إلى أنبيائهم بل طلبوا منه نوعاً خاصّاً من العذاب فقالوا:

١٨٧. (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ):

هؤلاء المغفَّلون لم ينتبهوا من نومتهم وغفلتهم، وأصرّوا على السخرية والتكذيب بقولهم: (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ): أي أن يسقط عليهم من السماء قطعة بعد قطعة إن كان صادقاً ومحقّاً في دعواه. وهذا يدلّ على شدّة طغيانهم الذي بلغ بهم درجة أن يختاروا كيفية العذاب، ولكنّ الأمر لله وحده يعذّبهم كيف يشاء، كما حكى الله عنه ذلك بقوله:

١٨٨. (قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ):

أي إنّ الله عالم بعملكم فهو يعلم ما تستحقون من العذاب كمّه وكيفه.

١٨٩. (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ):

قوله: (فَكَذَّبُوهُ) تعليل لما يأتي من نزول العذاب، أي صار تكذيبهم سبباً لقوله: (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) والظلّة هي السحابة التي أظلّتهم، وكانت فيها صواعق متتابعة أصابتهم فأهلكتهم. انظر: التحرير والتنوير:١٩٢/١٩.وقد عبّر القرآن الكريم في آيات أُخرى عن نوع العذاب الذي أصابهم بالرجفة لاحظ: الأعراف:١٩٠، العنكبوت:٣٧.والصيحة. هود:٩٤.

قوله: (إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ): أي عظيم عذابه.

ولم يذكر هنا إنجاء شعيب والذين آمنوا معه، بل جاء التصريح به في سورة هود، قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ). هود:٩٤.

١٩٠ و١٩١. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ):

أتمّ سبحانه قصة شعيب بما أتمّ به قصص سائر الأنبياء في هذه السورة من نوح وهود وصالح ولوط. وهذا يدلّ على أنّ منطق الأنبياء ـ بداية ونهاية ـ واحد.

الآيات: الثانية والتسعون بعد المئة إلى التاسعة والتسعين بعد المئة(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ... مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ).

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ * أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ).

المفردات

تنزيل: مصدر بمعنى المنزَّل.

الروح الأمين: لقب جبريل(عليه السلام) في القرآن الكريم، ووصف بكونه أميناً لأنّ الله أمّنه على وحيه.

على قلبك: أُريد به العقل أو النفس.

زبر الأوّلين: كتب السالفين.

الأعجمين: جمع الأعجمي، وهو من في لسانه عجمة عربيّاً كان أو غير عربيّ. وكانت القاعدة أن يقال: الأعجميين حذفت ياء النسبة للتخفيف، نظير قول أبي طالب:

وحيث ينيخ الأشعرون رحالهم *** بملقى السيول بين صاف ونائلِ

أي الأشعريون.

وعلى هذا فالعجمي نقيض العربي، والأعجمي نقيض الفصيح.

قال ابن عطية: هو جمع أعجم وهو الذي لا يفصح وإن كان عربيَّ النسب، والعجمي هو نسبته إلى العجم خلاف العرب وإن كان أفصح الناس. روح المعاني:١٧٨/١٩.

التفسير

عاد البيان القرآني إلى ما افتتحت به السورة، أعني قوله:(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)ليسجّل ما هو كالتعليق على ما تضمّنته القصص السبع المتقدّمة من أخبار الأنبياء(عليهم السلام) مع أقوامهم واحتجاجاتهم عليهم، وذلك بالتأكيد على أنّ هذا القرآن الذي يتلوه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) والذي اشتمل على هذه القصص، وتحدّى به خطباء العرب بفصاحته العذبة وبلاغته الخلاّبة، يتميّز بهذه الأوصاف:

الأوّل: ١٩٢. (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ):

وُصف القرآن هنا بالمصدر، أي التنزيل بمعنى المنزَّل، للمبالغة، وكأنّ القرآن نفس التنزيل، نزل من (رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وفيه ردّ على تهمة بعض المشركين للنبيّ بأنّ ما يتلوه عليهم من الآيات، هو من تلقّيات الشياطين، كما سيأتي في قوله تعالى: (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ).. الشعراء:٢١٠.

الثاني: ١٩٣ و ١٩٤.(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ):

التعبير بـ(نَزَلَ) مكان (جاء) فيه تنويه برفعة وسموّ مقام المنزَّل، ولذلك يقول: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ): أي جبريل(عليه السلام) وهو أمين على الوحي فيما يحمل ويبلّغ، حافظ للأمانة غير خائن. ولعلّ وصفه بالأمانة لردّ مزعمة اليهود حيث يصفونه بالخيانة.

وممّا يثير العجب ما روي عن الشعبي(المتوفّى ١٠٣هـ) أنّه قال: واليهود تبغض جبريل وتقول هو عدوّنا من الملائكة، وكذلك الرافضة تقول: غلط جبريل في الوحي إلى محمد بترك علي بن أبي طالب. العقد الفريد:٢٤٩/٢ـ ٢٥٠.

لا شكّ أنّ الرواية باطلة سنداً ومتناً، أمّا سنداً ففي سندها عبد الرحمن بن مالك بن مِغْوَل وهو مجروح عند نقّاد السنّة، قال أحمد والدارقطني: متروك. وقال أبو داود: كذّاب، وقال مرّة: يضع الحديث. ميزان الاعتدال:٥٨٤/٢، برقم ٤٩٤٩.

وأمّا متناً فإنّ تلقيب الشيعة بالرافضة بدأ عند قيام زيد بثورته على الحكم الأمويّ (عام ١٢٢هـ) أي بعد وفاة الشعبي بنحو ١٩ عاماً، فكيف ورد هذا اللقب في كلامه؟!

وأخيراً نقول: إنّ الشيعة يقولون من على منائر مساجدهم وفي صلواتهم: أشهد أنّ محمداً رسول الله، فكيف يؤمنون بهذه القصة المفتعلة؟!

والعجب اعتماد الجزيري في كتابه «الفقه على المذاهب الأربعة» على هذه النسبة المفتعلة، حيث يقول في مبحث محرّمات النكاح لاختلاف الدين: ومنه الرافضة الذين يعتقدون أنّ جبريل غلط في الوحي، فأوحى إلى محمد مع أنّ الله أمره بالإيحاء إلى علي(عليه السلام). الفقه على المذاهب الأربعة(كتاب النكاح): ٧٥.

كان على الجزيري الفحص عن صدق هذه النسبة قبل أن يسوّد بها بحثه، فإنّ الشيعة الإمامية والزيدية والإسماعيلية برمّتهم برآء من هذه التّهمة الكاذبة التي اختُلقت في ذلك العهد الذي طغى عليه التعصّب المقيت والنزاع بين المسلمين.

وأمّا شعار خان الأمين، فهو شعار اليهود، فلاحظ تفسير الرازي عند تفسير قوله سبحانه: (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) البقرة:٩٨، تفسير الرازي:١٩٤/٣. تجد فيه منشأ القول بخيانة الأمين.

قوله تعالى:(عَلَى قَلْبِكَ) أراد بالقلب النفس أو العقل وهو أداة الإدراك، والشاهد على أنّ المراد به غير القلب الصنوبري قوله سبحانه:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ق: ٣٧. فمن المعلوم أنّ كلّ إنسان سواء ألقى السمع أم لا، له قلب صنوبري، فأُريد به إذاً العقل وأدوات المعرفة، حتى يصحّ الشرط (لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) لأنّ الإنذار من وظائف الأنبياء، قال تعالى:(فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) البقرة:٢١٣..

الثالث: ١٩٥. (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ):

أي نزل بلغة عربية واضحة المعنى، فإعراض مشركي قريش عنه نابع من استكبارهم لا من عدم فهمهم لتعاليمه، وعدم إدراكهم لحججه وبراهينه.

الرابع: ١٩٦. (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ):

الضمير في قوله: (إنّهُ) يرجع إلى القرآن، ومعنى الآية:إنّ ما في القرآن الكريم من إيمانيات ووصايا ومبادئ أخلاقية موجود ـ بوجه عام ـ في كتب الأنبياء السابقين، ويشهد لذلك قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة:١٨٣، وقوله سبحانه ـ بعد أن ذكر فلاح من زكّى نفسه وذكر الله وصلّى ـ : (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى). الأعلى: ١٨ـ ١٩.

ويمكن أن يكون الضمير راجعاً إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فيكون معنى الآية: إنّ صفاته(صلى الله عليه وآله وسلم) والبشارة به مسطورة في الكتب السابقة، ويشهد لذلك قوله تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ) الأعراف:١٥٧، وقوله سبحانه: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ). الصف:٦.

ولعلّ الإتيان بهذه الآية لأجل الاستدلال على أنّ القرآن وحيٌّ من الله، لأنّه ذكر هذه القصص السبع على النحو الموجود في زبر الأوّلين من غير تفاوت مع أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يُقبل على التعلّم ولم يتلقّ العلم عن أحد من البشر، وذلك دليل على أنّه تنزيل من ربّ العالمين.

الخامس: ١٩٧. (أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ):

الضمير في (أَنْ يَعْلَمَهُ) يرجع إلى القرآن أو إلى نزوله على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، أي: «أو لم يكن علم علماء بني إسرائيل بنزول القرآن آية دالّة على صحّة نبوّته» لأنّ العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يصدّقون ذكره في كتبهم، وكانت اليهود قبل بعثة النبيّ تبشّر بظهوره وتستفتح به(أي تستنصر) على العرب، وكان ذلك سبب إسلام الأوس والخزرج، مجمع البيان:٣٧٧/٧.قال سبحانه:(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) البقرة:٨٩..

والذي يدلّ على أنّ علماء بني إسرائيل يعرفونه أشدّ المعرفة قوله سبحانه في وصف النبي(صلى الله عليه وآله وسلم):(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) البقرة:١٤٦، الأنعام:٢٠.

١٩٨ و١٩٩. (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ):

ربما يفسَّر(الْأَعْجَمِينَ) بمعنى من لا يُفصح من العرب أي تكون في لسانه عُقدة، وربما يفسَّر بغير العربيّ أي كان عجمياً غير عربيّ أصلاً.

والظاهر أنّ المراد هو الثاني، والمراد أنّه لو أنزلناه على غير عربي ولكن قرأه عليهم بطريقة خارقة للعادة، ما كانوا به مؤمنين.

ويكون معنى الآية: إنّ عدم إيمانهم بالقرآن ليس لأجل تصوّر أنّه مصنوع من قبل النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بل لاتّخاذهم الموقف السلبي من أوّل الأمر انطلاقاً من العناد، ولذلك لو أنزلنا هذا القرآن على من لا يحسن العربية ولكن قرأه عليهم إعجازاً ما كانوا به مؤمنين مع وجود الدليل الواضح على أنّه ليس من صنع القارئ وإنشائه لأنّه ليس من أهل اللغة حتّى يقدر على صنعه كما يدّعون.

ومن هنا يعلم أنّه لا صلة للآية بتعصّب العرب للغتهم وقوميّتهم، إذ ليست الآية بصدد أنّ عدم إيمانهم لأجل كونه أعجمياً حتّى يكون دليلاً على تعصّبهم، بل إنّ عدم إيمانهم لأجل العناد والمكابرة، ولذلك لو جاء هذا القرآن بطريق خارق للعادة بحيث يقطع عذرهم (أنّه من صنع القارئ) لما آمنوا به. فما ربما يُرى في بعض التفاسير من الحديث عن تعصّب العرب، لا مجال له في المقام.

وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه:(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) النحل:١٠٢ـ١٠٣، فالآيتان نظير ما في سورتنا حيث تركّزان على أنّ القرآن كلام الله سبحانه نزّله روح القدس، ثم يردّ على إدّعاء المشركين بأنّ محمداً(صلى الله عليه وآله وسلم) تعلّم القرآن من غيره، والله سبحانه يردّ تلك التهمة ببيان أنّ لسان الذي ينسبون إليه التعليم، أعجمي، أي ليست لغتُه لغةَ العرب.

ثمّ إنّ السيد الطباطبائي فسّر الآية بما يلي:(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ) : ظاهر العربية واضح الدلالة ليؤمنوا به ولا يتعلّلوا بعدم فهمهم مقاصده(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ) بلسان أعجمي ما كانوا به مؤمنين وردّوه بعدم فهم مقاصده. الميزان في تفسير القرآن:١٥/٣٢١.

ولا يخفى أنّ تفسير الآية بما ذكره بعيد جداً، لأنّ عدم إيمانهم يكون معلولاً لعدم فهمهم قول القارئ فيكونون معذورين ولا يتوجّه إليهم أيّ لوم مع أنّ الآية بصدد الإنكار عليهم، فلا محيص من تفسيرها بما ذكرناه من نزول القرآن العربي على قارئ لا يحسن العربية ولكن يقرأه بإعجاز خارق للعادة، فعندئذ يكون عدم إيمانهم غير مقبول لامتناع نسبة الكتاب إلى قارئه.

الآيات: المئتان إلى الثانية عشرة بعد المئتين(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ...عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ).

المفردات

سلكناه: أدخلناه.

المجرمين: المراد بهم هنا المشركون.

بغتة: فَجأة.

مُنظَرون: مؤخَّرون أو مُمْهَلون.

ذكرى: تذكرة وعبرة للغير. وأُريد المذكِّر أو المذكِّرون، كما سيأتي في التفسير.

ما يستطيعون: لا يقدرون.

لمعزولون: أي لممنوعون بالشهب.

التفسير

الآيات تشير إلى أنّ التكذيب بالقرآن صار متمكّناً في قلوبهم أشدّ التمكّن وصار كالأمر الجبلّي الذي لا يمكن تغييره. وما يحتجّون به من أنّه من صنع النبي، أو أنّه تعلّمه من الآخرين، ليس إلاّ أعذاراً ظاهرية يُراد بها التغطية على الدوافع الحقيقية للإنكار والتكذيب، وهي العناد والمكابرة والخوف على المصالح الشخصية.

٢٠٠. (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ):

قوله: (كَذَلِكَ) يشير إلى عدم الإيمان واستمرار التكذيب(سَلَكْنَاهُ)أدخلناه(فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)وهذا الإدخال من آثار التكذيب، فإنّ الإنسان إذا تمادى في التكذيب واستمرّ عليه مدّة طويلة دخل في قلبه والتصق به، حتى يصبح كأنّه مجبول عليه. ونسبته إلى الله سبحانه كنسبة سائر أفعال الإنسان إليه، قال الزمخشري:... وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها، فكيفما فُعل بهم وصُنع وعلى أي وجه دُبّر أمرهم فلا سبيل أن يتغيّروا عمّا هم عليه من جحوده وإنكاره، كما قال: (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ) الأنعام:٧..(تفسير الكشّاف:٣/١٢٧.)

وحاصله: إنّ الإنكار لفرط العناد وممارسة الآثام صار كالطبيعة الثانية لهم.

ويشهد لما ذكرناه من معنى الآية، قوله سبحانه:(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) الحجر:١١ـ١٢، والضمير يرجع إلى الاستهزاء المرادف للتكذيب المشار إليه في الآيات التي نحن في صدد تفسيرها.

٢٠١. (لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ):

أي لا يؤمنون بالقرآن لعنادهم إلى أن يحلّ يوم القيامة وعندئذ يؤمنون، ولكنْ قضى سبحانه أنّه: (لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ) الأنعام:١٥٨.. والشاهد على أنّ المراد من العذاب في الآية هو عذاب الآخرة قوله تعالى:

٢٠٢.(فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ):

أي يأتيهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه فجأة(وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) بمجيئه. قال سبحانه: (حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) الأنعام:٣١.وعندئذ يتمنّون الإمهال كما يقول:

٢٠٣.(فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ):

فعند رؤيتهم للعذاب الأليم يتمنّون الإمهال حتى يؤمنوا كما يقول:(فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ): أي مؤخّرون حتى نؤمن؟ والاستفهام هنا بمنزلة التمنّي. ومن المعلوم أنّه تمنٍّ لأمر لن يتحقّق أبداً.

وبما أنّ المشركين كثيراً ما طلبوا نزول العذاب قائلين: (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) يونس:٤٨. حيث جعلوا تأخُر العذاب دليلاً على عدم وجوده، ندّد بهم سبحانه بقوله:

٢٠٤.(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ):

أي (أَفَبِعَذَابِنَا) كانوا(يَسْتَعْجِلُونَ) استهزاءً واتّكالاً على الأمل الطويل.

٢٠٥ـ ٢٠٧.(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ):

حاصل هذه الآيات: هبْ أنّ الأمر لو صار كما يتمنّون وأمهلناهم في هذه الدنيا، فإنّ ذلك لا يجديهم نفعاً كما يقول:(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ):

أي طوّلنا أعمارهم، وفي نهاية الأمر(ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا): أي العذاب الذي (كَانُوا يُوعَدُونَ) فعندئذ (مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ):

أي لا يغني عنهم طول عيشهم في النعيم، إذ لم تتغيّر حالهم عمّا قبل التمنّي، فهم على وتيرة واحدة في الإنكار والتكذيب «فَيَالَهَا

حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَة أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشِّقْوَةِ!». نهج البلاغة: الخطبة ٦٤.

٢٠٨ و ٢٠٩.(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَة إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ):

قوله:(لَهَا مُنْذِرُونَ) حال من (قَرْيَة). قوله: (ذِكْرى)حال من ضمير الجمع في (مُنْذِرُونَ) فيكون معناه: مذكّرين. وجوّز بعضهم أن تكون مفعولاً لأجله، على معنى أنّهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة.

والآيتان تذكيران لقريش بأنّ الله سبحانه ما أهلك الأُمم الخالية إلاّ بعد قيام الحجّة عليهم كما قال: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَة إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ): أي أنبياء ينذرون الناس (ذِكْرى): أي مذكّرين بطاعة الله تعالى (وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ)في إهلاكهم بعد إتمام الحجّة عليهم.

٢١٠.(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ):

لما تقدّم في قوله سبحانه: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) عطف عليه قوله: (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ)و«ما» نافية، وكان عتاة المشركين يزعمون أنّ محمداً(صلى الله عليه وآله وسلم) كاهن، وما ينزل عليه من جنس ما تتنزّل به الشياطين من أخبار الغيب على الكهنة، فنفى سبحانه هذا الزعم بقوله: (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ). ثمّ علّل ذلك بأُمور ثلاثة:

الأوّل والثاني: (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ):

٢١١. (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ):

السبب الأوّل: قوله: (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ): أي وما يتأتّى للشياطين ولا يتيسّر لهم أن يتنزّلوا به لأنّهم أشرار ولا يصدر منهم إلاّ ما يناسب طبيعتهم، وأين منها القرآن الحقّ، الهادي إلى الخير، الحاكم بالعدل، الداعي إلى الكمال؟

السبب الثاني: قوله: (وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) الوصول إليه، لأنّه كلام سماويّ تتلقّاه الملائكة من ربّ العزّة، ومنذ صدوره عن ربّ العزّة إلى وصوله إلى قلب سيد المرسلين(صلى الله عليه وآله وسلم) تحفّه الملائكة ويمنعون الشياطين من التدخُّل فيه، قال سبحانه: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُول فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْء عَدَدًا) الجن:٢٦ـ ٢٨..

الثالث: (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ):

٢١٢. (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ):

السبب الثالث: قوله (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ): أي عن استماع ما يجري في العالم العلوي (لَمَعْزُولُونَ): أي لممنوعون، ولو استرق واحد منهم السمع رُمي بشهاب ثاقب، قال تعالى: (لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِب) الصافات:٨. .

ثمّ إنّ هنا شبهة أثارها الرازي وهي شبهة الدّور، وحاصلها: إنّ كون الشياطين ممنوعين عن سماع كلام أهل السماء، لا يثبت إلاّ بخبر النبيّ الصادق(عليه السلام)، ولا يمكن تصديقه في ذلك إلاّ إذا ثبت كون الشياطين ممنوعين عن استماع أخبار السماء. تفسير الرازي:٢٤/١٧٢.

وحاصل الإشكال: إنّ القرآن الكريم ينفي أن يكون ما أخبر به النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) من الغيبيّات ممّا أوحاه إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) الشياطين، كما قال:(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ).

ثمّ إنّ السائل يسأل: من أين نعلم أنّ الشياطين لم ينزلوا بها على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) فيجاب بقوله تعالى: (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)، ومن المعلوم أنّ الجواب إنّما ينفع لمن آمن بالقرآن، وأمّا من لم يؤمن به فلا يفيده الجواب، وعند ذلك يكون الجواب غير كاف لقلع الشبهة.

ثمّ إنّ الرازي أجاب عن الشبهة قائلاً: لا نسلّم أنّ العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يستفاد إلاّ من قول النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وذلك لأنّا نعلم بالضرورة أنّ الاهتمام بشأن الصديق أقوى من الاهتمام بشأن العدوّ، ونعلم بالضرورة أنّ محمّداً(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يلعن الشياطين ويأمر الناس بلعنهم، فلو كان هذا الغيب إنّما حصل من إلقاء الشياطين لكان الكفّار أَولى بأن يحصل لهم مثل هذا العلم، فكان يجب أن يكون اقتدار الكفّار على مثله أَولى، فلمّا لم يكن كذلك علمنا أنّ الشياطين ممنوعون عن ذلك، وأنّهم معزولون عن تعرّف الغيوب. تفسير الرازي:١٧٢/٢٤.

ويمكن أن يجاب بوجه أكثر اختصاراً وهو: أنّ التجربة المتكرّرة أثبتت أنّ الشياطين معزولون عن سماع أخبار السماء، وذلك لأنّ الكهنة هم الذين يتّصلون بالشياطين ويخبرون بأخبار غيبية استناداً إلى أخبار الشياطين، ثم يظهر فيها الكذب والخطأ في كثير من الموارد، فكيف يمكن لهم أن يأتوا بأخبار غيبية واردة في القرآن الكريم قد ثبت صدقها ولم تنحرف عنه قيد شعرة؟!

الآيات: الثالثة عشرة بعد المئتين إلى الآية العشرين بعد المئتين(فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ... السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

(فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

المفردات

عشيرتك: الأدنَون من القبيلة، و(الأَقْرَبِينَ) صفة.

اخفض: الخَفض ضد الرفع، ويكون كناية عن تليين الجانب والانقياد. والطائر إذا أراد الطيران رفع جناحيه وإذا أراد النزول خفضهما، كما يخفض جناحيه أيضاً عند احتضانه لفراخه.

تقلُّبك: قلب الشيء: تصريفه وصرفه من وجه إلى وجه كقلب الثوب، فيكون معنى التقلّب: التصرّف من حال إلى حال.

التفسير

وكأنّ السورة قد فرغت من بيان الغاية المتوخاة من سرد قصص الأنبياء السبعة ونقد ما ربّما يوصف به القرآن الكريم، وعندئذ خرجت باستنتاج، فأتمّ سبحانه الموضوع بتوجيهات للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)اشتملت على نهي، وأوامر أربعة تتعلّق بعلاقته(صلى الله عليه وآله وسلم) مع المشركين.

أمّا النهي فقوله: (فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ).

وأمّا الأوامر الأربعة، فقوله: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ).

وقوله: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

وقوله: (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ).

وقوله:(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ).

هذا موجز لما في هذه الآيات، وإليك تفسيرها:

٢١٣. (فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ):

كانت مواجهة الأنبياء المذكورين في هذه السورة مع أقوامهم حول التوحيد في العبادة، فقد كان أقوامهم غارقين في الوثنية، وهذا يعرب عن أنّ الخط الأصيل المشترك بين عامّة الأنبياء هو التوحيد في العبادة الذي لا يمكن العدول عنه مطلقاً، وإنّ الإسلام يعترف بكلّ شريعة تحترم خط التوحيد، وأمّا الوثنية فلا يرى لها احتراماً، ولذلك نراه يخاطب نبيّه نبيّ التوحيد الذي لم يسجد

لصنم طيلة عمره بحفظ هذا المنهج في غير واحدة من الآيات، منها ما نقرأ في هذه السورة، ومنها قوله: (لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً) الإسراء:٢٢، وقوله: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)،(الزمر:٦٥.) وكون النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)موحّداً معصوماً لا يمنع من توجّه تلك الخطابات له، إذ ليس صدور المعصية عنه أمراً محالاً وإلاّ لما كانت للعصمة فضيلة؛ بل هي أمر ممكن غير واقع بالنظر إلى الملكات الفاضلة التي تحلّى بها، على أنّ التأكيد على التوحيد في ضمن الخطاب الموجّه للنبي المعصوم يسبّب يأس المشركين من تراجع النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)عن هذا الأصل، فيصحّ خطابه لنبيّه بقوله: (فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ): أي لا تعبد مع الله إلهاً آخر (فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ).

إلى هنا تمّ الكلام في النهي، وإليك تفسير ما أمر به.

تفسير ما أُمر به.

الأمر الأوّل: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ):

٢١٤. (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ):

أمر سبحانه نبيّه الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) بإنذار عشيرته، فقال: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ)وخصّ منهم (الأَقْرَبِينَ):أي المنتمين إليه انتماء قريباً .

ومعنى الآية واضح، إنّما الكلام فيما روي حولها، وسوف يوافيك ذلك بعد تفسير هذه المجموعة من الآيات.

الأمر الثاني: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ):

٢١٥.(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ):

أمره سبحانه بخفض الجناح والحنوّ على المؤمنين بعد الأمر بإنذار الأقربين وقال: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) واجعل الجميع تحت رأفتك ورحمتك كما يجمع الطير أفراخه بخفض جناحيه .

قال الرازي: اعلم أنّ الطائر إذا أراد أن ينحطّ للوقوع كسَر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه، فجُعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب. تفسير الرازي:٢٤/١٧٣.

والمراد من المتابعة هي المتابعة في الدين فكأنّ خفض الجناح لأجل إيمانهم.

الأمر الثالث: (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ):

٢١٦. (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ):

لمّا أُمر(صلى الله عليه وآله وسلم) بإنذار عشيرته الأقربين، فطبع الحال يقتضي أنّ منهم من يستجيب لأمره ويُظهر إيمانه، ومنهم من يعصيه ويتمرّد عليه كأبي لهب وغيره، ولذلك أمره سبحانه أن يعلن عن موقفه الحاسم من هؤلاء العاصين، وذلك بالبراءة من أعمالهم كما قال: (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) من آثام كعبادة الأوثان وأكل الميتة وأمثال ذلك. والأمر بالبراءة كاشف عن أنّ الواجب على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) هو إظهارها لا الاحتفاظ بها في نفسه.

الأمر الرابع: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ):

٢١٧. (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ):

لمّا كان في عَرض الإسلام على الأقربين وغيرهم مظنّة توجّه الأذى إليه(صلى الله عليه وآله وسلم) ممّن لا يؤمن، أمره سبحانه بالتوكّل على الله وقال:(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) واختار من أسمائه ذينك الاسمين، فهو بعزته يعذّب العاصين، وبرحمته ينجي المؤمنين.

ويحتمل أنّه يكون إشارة إلى أنّه بعزّته سيظهره على أعدائه، وبرحمته يعصمه من شرّهم، وقد ورد الاسمان في آخر كلّ قصة جاءت

في هذه السورة.

٢١٨ و ٢١٩.(الذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ):

الآيتان تحكيان أنّه سبحانه يرى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) حين يقوم متهجّداً في جوف الليل، ويراه في صلاته مع المؤمنين الذين يؤمّهم.

ففي الآية الأُولى:(الذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) قلنا إنّها ناظرة إلى صلاته في جوف الليل، ويشهد لذلك قوله سبحانه:(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ). المزمل:٢٠.

وأمّا الآية الثانية: (وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) فالمراد منها أنّه يرى تقلّبك في الساجدين إذا صلّيتَ في جماعة.

ولعلّ المراد من رؤية الله سبحانه هو كونه تحت رعايته وحمايته، فلا يصل إليه أيُّ سوء من الآخرين.

قال السيد الشريف الرضي(رحمه الله): وقوله سبحانه:(وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ): وهذه استعارة وليس هناك تقلّب منه على الحقيقة، وإنّما المراد به تقلّب أحواله بين المصلّين وتصرّفه فيهم بالركوع والسجود والقيام والقعود، وذهب بعض علماء الشيعة في تأويل هذه الآية مذهباً آخر فقال: المراد بذلك تقلّب الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)في أصلاب الآباء المؤمنين، واستدلّ بذلك على أنّ آباءه إلى آدم(عليه السلام) مسلمون لم تختلجهم خوالج الشرك، ولم تضرب فيهم أعراق الكفر تكريماً له(صلى الله عليه وآله وسلم) عن أن يجري إلاّ في منزَّهات الأصلاب ومطهَّرات الأرحام، وهذا الوجه يخرج به الكلام عن أن يكون مستعاراً. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٦٨.

٢٢٠. (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ):

الظاهر أنّ ما في هذه الآية علّة لقوله:(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)فإذا كان سميعاً وعليماً كفاك المهمّ من أمرك، ودرأ عنك شرّ الأعداء.

بحث روائي حول آية الإنذار

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: قام رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حين أنزل الله:(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)، قال: «يا معشر قريش، ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بَني عبد مناف، لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أُغني عنك من الله شيئاً، ويا صفيّة عمّة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، لا أُغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمّد(صلى الله عليه وآله وسلم) سليني ما شئت من مالي لا أُغني عنك من الله شيئاً». صحيح البخاري:٣/٢٥٤، برقم ٤٧٧١، كتاب تفسير القرآن.

أقول: لقد أسلم أبو هريرة بعد فتح خيبر، أي في السنة السابعة من الهجرة، ولم يكن في أوائل البعثة موجوداً في مكّة، فكيف يروي هذه الحادثة؟ ثمّ إنّ الآية تأمر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بإنذار عشيرته الأقربين فلا معنى لقوله: «يا معشر قريش» التي تضمّ الطوائف الأربع؟ وأسوأ من ذلك ما روي عنه أيضاً، قال: لمّا نزلت هذه الآية: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) دعا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قريشاً وعمّ وخصّ فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم ضرّاً ولا نفعاً، يا معشر بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم ضرّاً ولا نفعاً، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم ضرّاً ولا نفعاً، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم ضرّاً ولا نفعاً، يا فاطمة بنت محمّد أنقذي نفسك من النار فإنّي لا أملك لك ضرّاً ولا نفعاً، إلاّ أنّ لكم رَحِماً وسأَبُلُّها بِبَلالِها». الدر المنثور:٦/٣٢٤.

والرواية لا تخلو من إشكال.

أوّلاً: لأنّ الآية تأمره بإنذار عشيرته الأقربين، والعشيرة ـ كما تقدّم ـ هم الأَدْنَون من القبيلة، وأين هؤلاء الأقوام من عشيرته الأقربين؟ فإنّهم من الأبعدين.

وثانياً: أنّ فاطمة(عليها السلام) بنت المصطفى(صلى الله عليه وآله وسلم) ولدت في السنة الخامسة من البعثة(وهو المشهور بين علمائنا)، أو في السنة الثانية منها (كما يقول به عدد من علماء الفريقين)، ونزلت الآية في أوائل البعثة، فكيف يخاطب بنته فاطمة كما في الرواية؟! فهي(عليها السلام) إمّا أن تكون حينذاك غير مولودة، أو كانت رضيعة.

وعلى كلّ حال فلو صحّت هذه الرواية فهي تتعلّق بمناسبة متأخّرة عن مناسبة نزول آية الإنذار.

وأظن أنّ الغرض من إيراد الروايتين المتقدّمتين وما يماثلهما بمناسبة آية الإنذار، هو التعمية على الرواية الصحيحة التي وردت في تفسير هذه الآية ونقلَها جمع من المحدّثين من السنّة والشيعة.

الحديث الصحيح حول الآية

روى المفسّرون والمحدّثون أنّ الله تعالى لمّا أمر نبيّه بإنذار عشيرته الأقربين، كلّف(صلى الله عليه وآله وسلم) عليّاً(عليه السلام)أن يصنع له طعاماً وأن يدعو له بني عبد المطلب، فدعاهم (عليه السلام)، وهم يومئذ نحو أربعين رجلاً، وعزم(صلى الله عليه وآله وسلم) على أن يبوح لضيوفه ويكشف لهم من أمر رسالته في خلال تلك الضيافة إلاّ أنّه ـ وللأسف ـ ما أن انتهوا من الطعام حتى بادر أبولهب فتكلّم بكلمات سخيفة قبل أن يتحدّث النبيُّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ممّا جعل الجوّ غير مناسب لأنْ يطرَح النبيُّ(صلى الله عليه وآله وسلم)موضوع رسالته عليهم، فانفضّ المجلس دون تحقيق هذا الغرض.

ولمّا كان من غد أمر النبيُّ عليّاً(عليه السلام) بإعداد الطّعام ثانية، وكرّر دعوة تلك الجماعة دون أبي لهب، إلى ضيافة أُخرى، وبعد أن فرغوا من الطعام تكلّم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال:

«إنّ الرائد لا يَكذبُ أهْلَهُ وَاللهِ الّذي لا إله إلاّ هُوَ إنّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ خاصّة وإلى النّاسِ عامّة، وَاللهِ لَتَمُوتُنَّ كما تَنامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كما تَسْتَيْقظُون، وَلَتُحاسِبُنَّ بِما تَعْمَلُون، وَإنّها الجَنَّةُ أبداً والنّارُ أبداً».

ثم قال:

«يا بَني عَبْدِ المُطَّلِب إنّي وَاللهِ ما أَعْلَمُ شابّاً في العَرَب جاءَ قومَهُ بأفضَل مِمّا جِئْتُكُمْ به، إنّي قَدْ جِئْتُكُم بِخير الدُّنيا والآخرةِ وَقَدْ أمرَني اللهُ عَزَّ وجلَّ أن أدْعُوكُمْ إليه فَأيُّكُمْ يُؤمِنُ بي ويؤازِرُني عَلى هذا الأمر على أنْ يَكونَ أخي وَوَصِيّي وَخَليفَتي فِيكُمْ»؟

ولمّا بلغَ النبيُّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى هذه النقطة ـ و بينما أمسك القوم وسكتُوا عن آخرهم إذ كان كُلُّ واحد منهم يفكِّرُ في ما يؤولُ إليه هذا الأمر العظيمُ، وما يكتنفهُ من أخطار ـ قام «عليّ»(عليه السلام) فجأة، وهو آنذاك في الثالثة أو الخامسة عشرة من عمره، وقال وهو يكسر بكلماته الشجاعة ـ جدار الصمت والذهول ـ :

«أنا يا رسُولَ الله أكونُ وَزيرك عَلى ما بَعثَكَ اللهُ».

فقال له رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): إجلسْ، ثم كرّر دعوته ثانية وثالثة، وفي كلّ مرّة يحجم القومُ عن تلبية مطلبه، ويقوم «عليّ» ويعلن عن استعداده لمؤازرة النبيّ، ويأمره رسولُ الله بالجلوس حتى إذا كان في المرّة الثالثة أخذ رسول الله بيده والتفت إلى الحاضرين من عشيرته الأقربين وقال:

«إنّ هذا أخي وَوَصيّي وَخليفَتي فيكُمْ فاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا».

فقامَ القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: «قد أمرك أن تسمع لابنكَ وتطيعَ وجعله عليك أميراً». انظر: تاريخ الطبري:٢/٦٢ و ٦٣؛ الكامل في التاريخ:٢/٤٠ و ٤١؛ مسند أحمد:١/١١١ و١٥٩؛ خصائص أمير المؤمنين للنسائي:٥١، برقم ٦٦؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٣/٢٤٤ـ٢٤٥.

إنّ ما كتبناه هو ـ في الحقيقة ـ صياغة لحديث مفصَّل رواه كثير من المحدّثين والمفسّرين والمؤرّخين بعبارات مختلفة، منهم: أبو جعفر الإسكافي المعتزليّ وصحّحه، وأحمد بن حنبل (بإسناد رجاله ثقات، كما يقول الهيثمي)، والنّسائيّ، وابن جرير الطبري وصحّحه في كتابه «تهذيب الآثار»، ومحمد بن العباس بن الماهيار المعروف بابن الحجّام، وغيرهم. راجع: واحة اليقين لحيدر البغدادي الطحّان:٣٧١ـ ٣٧٥.

النبوّة والإمامة توأمان

إنّ الإعلان عن وصاية عليّ(عليه السلام) وخلافته في مطلع عهد الرسالة وبداية أمر النبوّة يفيد ـ بقوّة ووضوح ـ أنّ هذين المنصبين ليسا بأمرين منفصلين، ففي اليوم الّذي يعلن فيه رسولُ الله عن رسالته ونبوّته، يعيّن خليفته ووصيّه من بعده، وهذا يشهد ـ بجلاء ـ بأنّ النبوّة والإمامة يشكّلان قاعدة واحدة، وأنّ هذين المنصبين إن هما إلاّ كحلقتين متّصلتين لا يفصل بينهما شيء.

كما أنّ هذه الحادثة تكشف ـ من جانب آخر ـ عن مدى الشجاعة الروحية التي كان يتحلّى بها الإمام أمير المؤمنين «عليّ بن أبي طالب»(عليه السلام)، حيث قام ـ في مجلس أحجم فيه الشيوخ الدّهاة والسادة المجرَّبون عن قبول دعوة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) خوفاً وتهيّباً ـ وأعلن بكلّ شجاعة مؤازرته للنبيّ، واستعداده للتضحية في سبيل دينه ورسالته وهو آنذاك غلامٌ في ربيعه الثالث أو الخامس عشر، وما حابى أعداء الرسالة ولا ماشاهم كما يفعل المصلحون من الساسة والزعماء المتخوّفون على مصالحهم ومراكزهم آنذاك!!!

صحيح أنّ «عليّاً»(عليه السلام) كان في ذلك اليوم أصغر الحاضرين سنّاً إلاّ أنّ معاشرته الطويلة للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قد هيّأت قلبه لتقبُّل الحقائق التي تردّد شيوخ القوم في قبولها، بل عجزوا عن دركها وفهمها!!

ولقد أعطى أبو جعفر الإسكافي الكلام حقّه في هذا المجال إذ قال:

فهل يُكلَّف عملُ الطعام، ودعاء القوم صغيرٌ غير مميّز، وغِرّ غير عاقل، وهل يؤتمَن على سرّ النبوّة طفلٌ... وهل يُدعى في جملة الشيوخ والكهول إلاّ عاقل لبيب، وهل يضع رسولُ الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يده في يده، ويعطيه صفقة يمينه بالأُخوّة والوصيّة، والخلافة، إلاّ وهو أهل لذلك، بالغ حدّ التكليف، محتمل لولاية الله، وعداوة أعدائه، وما بال هذا الطفل لم يأنس بأقرانه ولم يلصق بأشكاله، ولم يُر مع الصبيان في ملاعبهم بعد إسلامه، وهو كأحدهم في طبقته، كبعضهم في معرفته، وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته... بل ما رأيناه إلاّ ماضياً على إسلامه، مصمّماً في أمره، محقّقاً لقوله بفعله، قد صدّق إسلامه بعفافه وزهده، ولصق برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)من بين جميع من بحضرته، فهو أمينه وأليفه في دنياه وآخرته. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:١٣/٢٤٥.

الآيات: الحادية والعشرون بعد المئتين إلى آخر السورة(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ... مُنْقَلَب يَنْقَلِبُونَ).

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاك أَثِيم * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَاد يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَب يَنْقَلِبُونَ).

المفردات

الشياطين: جمع شيطان، وهو مشتق من شطن أي تباعد والنون فيه أصلية، وربما يقال إنّه مشتق من شاط يشيط بمعنى احترق غضباً، والمشهور هو الأوّل. وأُريد من الشياطين أشرار الجنّ.

أفّاك: كذّاب، من أَفِكَ بمعنى كذَب.

أثيم: كثير الإثم.

يلقون السمع: السمع هو الجارحة المعروفة، والإلقاء كناية عن شدّة الإصغاء، وكأنّهم يلقون آذانهم لما يقال.

الغاوون: الضالّون المنحرفون عن السنن القويمة.

واد: الوادي: المكان المنخفض بين الجبال.

يهيمون: يقال: هامَ على وجهه، إذا ذهب لا يدري أين يتوجّه. والهائم: المتحيّر.

منقلب: المنقلَب: المَرجِع.

التفسير

كان المشركون يتّهمون النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالكهانة تارة وبالشعر أُخرى كما يحكيه عنهم سبحانه بقوله:(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُون * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ). الطور:٢٩ـ ٣٠.

والكاهن هو الذي يخبر عن الحوادث في مستقبل الزمان ويدّعي معرفة الأسرار، وقد كان في العرب كَهَنة كشِقّ وسَطيح وغيرهما، فمنهم من كان يزعم أنّ له تابعاً من الجنّ ورئِيّاً يلقي إليه الأخبار.

وأمّا الشعر فيطلق على الموزون المقفّى من الكلام، والشاعر هو المختصّ بصناعته، وربّما يطلق على غير المنظوم من الكلام كالقصص الخيالية أو الحماسيّة، ففي هاتين الآيتين نفي لتهمة كون النبيّ كاهناً يتعاطى الأخبار من الجنّ، ولتهمة كونه شاعراً له كلام منظوم يجذب القلوب بصناعته وحلاوة ألفاظه، وفي هذه المجموعة من الآيات ردّ على كلتا التهمتين.

ردّ الاتهام بالكهانة

فقوله سبحانه: (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ) ردّ على اتّهام النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه كاهن، وأمّا قوله: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) فردّ على التهمة الثانية وهي كونه شاعراً. وقد تقدّم ردّ التهمة الأُولى في قوله: (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ). الشعراء:٢١٠.

إذا عرفت ذلك فلنعرّج على تفسير الآيات.

٢٢١. (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ):

الاستفهام صوري، وهو إنشاء بمنزلة الإخبار، والمعنى: سأخبركم ـ أيّها المشركون الذين تتّهمون النبيّ بالكهانة ـ عمّن تتنزّل عليهم الشياطين بالأخبار.

٢٢٢.(تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاك أَثِيم):

أي تتنزّل الشياطين على كلّ كذّاب غارق في مستنقع الإثم، فهم ينزلون على أمثالهم دون النبي الصادق الطاهر. فكيف يصفونه بالكاهن الذي يتنزّل عليه الشيطان؟!

٢٢٣. (يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ):

الظاهر أنّ الضمير في كلا الموردين: (يُلْقُونَ) و(أَكْثَرُهُمْ) يرجع إلى الشياطين، والمراد أنّهم يصغون أشدّ الإصغاء إلى الملأ الأعلى ثم يمزجون ما تلقّفوه بأكاذيب ويلقونها إلى الكهنة الذين عبّر عنهم سبحانه بقوله:(كُلِّ أَفَّاك أَثِيم)فقد روي أنّهم كانوا ـ قبل أن يُحجبوا بالرجم ـ يسّمّعون إلى الملأ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلم به الملائكة ممّا اطّلعوا عليه من الغيوب ثم يوحون به إلى أوليائهم(الكهنة) وأكثرهم كاذبون فيما يوحى به إليهم لأنّهم يُسمعونهم ما لم يَسمَعوا.

وربّما يُفسَّر السمع بالمسموع، أي يلقون المسموع من الملائكة إلى أوليائهم ـ أعني: الكهنة ـ ممزوجاً بالكذب.

هذا هو الظاهر، وللمفسّرين أقوال أُخرى ذكرها الطبرسي في مجمعه لاحظ: مجمع البيان:٣٨٣/٧. والرازي في تفسيره لاحظ: تفسير الرازي:١٧٥/٢٤. نذكر واحداً منها:

أنّ الضمير في كلا الموردين يرجع إلى الكهنة ـ أعني: ـ (كُلِّ أَفَّاك أَثِيم) ـ أي إنّ الأفّاكين يلقون السمع إلى الشياطين وأكثرهم يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم. تفسير الرازي:١٧٥/٢٤. والفرق بين الوجهين واضح، فإنّ الوصفين على الوجه الأوّل من صفات الشياطين، وعلى الثاني من صفات الكهنة.

وعلى كلّ تقدير فالله سبحانه يردّ على من زعم أنّ رسول الله كاهن ببيان أنّ الغالب على سائر الكهنة الكذب، فلو كان حال الرسول مثل حالهم يجب أن يظهر الكذب في أخباره مع أنّه لم يظهر في إخباره عن المغيّبات إلاّ الصدق، وثبت أنّه بعيد عن الكهانة بُعد المشرقَين.

ثمّ إنّ الظاهر أنّ الشريف الرضيّ اختار الوجه الأوّل، غير أنّه احتمل في لفظة السمع احتمالين:

١. أن يكون السمع بمعنى الأُذن.

٢. أو يكون السمع بمعنى المسموع. وقال ما هذا نصّه:

وهذه استعارة على أحد التأويلين وهو أن يكون المراد بها أنّهم يشغلون أسماعهم ويديمون إصغاءهم ليسمعوا من أخبار السماء ما يموّهون به على الضلاّل من أهل الأرض وهم عن السمع بمعزل وعن العلم بمدحر، وذلك كقول القائل لغيره: قد ألقيت إليك سمعي، أي صرفته إلى حديثك ولم أشغله بشيء غير سماع كلامك.

والتأويل الآخر: أن يكون السمع هاهنا بمعنى المسموع كما يكون العلم بمعنى المعلوم، فيكون التأويل أنّ الشياطين يلقون ما يدّعون أنّهم يستمعونه إلى أفّاك أثيم من أعداء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على طريق الوسوسة واعتماد القدح في الشريعة، وهذا الوجه يخرج الكلام عن حدّ الاستعارة. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٦٩. ويريد من الاستعارة: المجاز، وهذا مصطلحه في مواضع الكتاب عامّة.

إلى هنا تمّ رد فرية الكهانة وأنّ اتّهام النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بها ينافي ما هو المعروف عنه(صلى الله عليه وآله وسلم) خلال حياته قبل البعثة من الطهر والنقاء، والأمانة والصدق في القول والعمل.

نقد اتّهام النبيّ بأنّه شاعر

٢٢٤. (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ):

ثمّ إنّ المشركين اتّهموا القرآن بأنّه شعر والنبيّ شاعر، وقد وردت هاتان التهمتان في آيات عديدة، منها قوله سبحانه: (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَم بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) الأنبياء:٥، وقوله:(أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِر مَجْنُون) الصافات:٣٦. إلى غير ذلك من الآيات .

لاحظ: الطور:٣٠، الحاقة:٤١.

وهذه الآية والآيتان اللّتان تليها، تنطوي على ردّ على التهمة الثانية، أي الزعم بأنّ محمداً(صلى الله عليه وآله وسلم)شاعر، وليس برسول من ربّ العالمين، وفيها بيان للصفات الذميمة الغالبة على أكثر الشعراء، فقوله سبحانه: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) ناظر إلى أُولئك الشعراء الذين يطلقون القول بدافع من أهوائهم وأطماعهم وشهواتهم، ولا يتّبعهم إلاّ الغاوون المنحرفون عن جادة الحقّ، المائلون إلى الفساد، فالمتبوع ضالّ ومن يتّبعونه ضالّون.

ثمّ إنّه يعلِّل ما وصف به الشعراء بوجهين:

الأوّل:

٢٢٥. (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ):

الاستفهام تقريري يبيّن لنا حال الشعراء، وأنّهم يندفعون مع خيالاتهم وأوهامهم ومصالحهم ومنافعهم الدنيوية في كلّ اتّجاه ولا يستقّرون على حال، وهم لأجل ذلك يبالغون في مدح من يُجيزهم، ويسرفون في هجاء من يمنعهم أو يخاصمهم، ويموّهون بخيالاتهم حقائق الأُمور، فيظهر الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، إلى غير ذلك، وأين هذا من الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) الذي لا يقول إلاّ الحق والصدق، ولا يدعو إلاّ إلى ما فيه رضا الله سبحانه وتعالى، ويرغّب في الفضائل وينهى عن الرذائل؟

قال الشريف الرضي(رحمه الله) حول الآيتين: إنّ الشعراء يذهبون في أقوالهم المذاهب المختلفة ويسلكون الطرق المتشعّبة، كما يقول الرجل لصاحبه إذا كان مخالفاً له في رأي أو مباعد له في كلام: أنت في واد وأنا في واد، ومثل ذلك قولهم: فلان يهبّ مع كلّ ريح، ويطير بكلّ جناح، ومجيباً لكلّ ناعق. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٦٩.

الثاني:

٢٢٦. (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ):

وهذه سمة من يغلب عليه الهوى، فهم يدعون إلى الخير وهم بُعداء عنه، ويصفون العدل وهم يمدحون الظلمة، ويرغّبون في الجود وهم يبخلون بمالهم إلى غير ذلك، فقولهم يعارض فعلهم.

٢٢٧. (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ):

لمّا ذمّ سبحانه فئة الشعراء المتّصفين بالوصفين المذكورين، استثنى منهم الشعراء الذين يتحلّون بالصفات التالية:

١. الإيمان بالله تعالى الذي يترتّب عليه الانقياد لأمره ونهيه، قال تعالى: (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا).

٢. العمل الصالح وهو ثمرة الإيمان، قال تعالى:(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

٣. الاستغراق في ذكر الله لساناً وقلباً، قال تعالى:(وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا).

٤. الانتصار ممّن أوقع عليهم الظلم، وبغوا على الحقّ ومناصريه، قال تعالى: (وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا).

ومن المعلوم أنّ شعر هذا القسم يدعو إلى الأخلاق والمثل العليا وصلاح المجتمع، وإلهاب شعور الجماهير لمكافحة الظالمين والمنافحة عن المظلومين، فهؤلاء هم الذين استثناهم الله تعالى.

وفي ختام السورة هدّد المشركين بسوء منقلبهم ومرجعهم على وجه الإجمال قائلاً: (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ): أي إلى أيّ معاد يعودون إليه، هل يعودون إلى نار سجّرها سبحانه أو إلى جهنم لا يَسْكن لهيبها ولا يُطفأ سعيرها. وهذه الآية يتذاكر بها الوعّاظ من على منابرهم، يقول الزمخشري في «الكشّاف»: وكان السلف الصالح يتواعظون ويتنادرون شدّتها ثم قال: اللّهُمَّ اجعلنا ممّن جعل هذه الآية بين عينيه فلميغفل عنها، وعلم أنّ من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا. تفسير الكشّاف:٣/١٣١.

وربّما يفسّر الظلم بالكفر، وهو بعيد عن إطلاق اللفظ.

كلام في الشعر والشعراء

إنّ الشعر سواء أكان في قالب القصة أو قالب الكلام المنظوم، موهبة إلهية يخصّ بها سبحانه لفيفاً من عباده، فهي أشبه بنفائس مكنوزة تحت الأرض أو معادن مستورة بركام من التراب، حيث تخرجها من الخفاء إلى الظهور الحوادث التي تواجه الشاعر في حياته وتؤثّر في روحه وعقله، فعند ذلك تتوقّد القريحة إلى جهة صالحة أو فاسدة.

ثمّ إنّ للإنسان نزوعاً إلى هذا النوع من الكلام، وقد يبلغ به تهييج العواطف والتذاذ الأسماع بمكان أنّه ربّما يفقد وعيه. والشعر في الوقت نفسه سلاح شديد الوقع، فإنِ استعمله الشاعر في الحماسة هاجت النفس لاقتحام ساحات الردى والهلكة، وإن استغله في الاستعطاف والاستعطاء حرّك العواطف وأجّجها.

وإن استعان به في التشبيب أغرى الأفئدة بالهوى والمجون، إلى غير ذلك من غايات خاصّة للشعر على وجه الإطلاق، كما أنّه سلاح ذو حدّين، فالشعر الهادف هو ما يبني المجتمع ويوقظ الشعب ويسوقه نحو العلم والصلاح والفلاح، وغير الهادف منه هو ما يكرّس النزعات الأنانية في المجتمع ويسير به نحو هاوية الانحطاط، ويبعثه نحو الانحلال الخلقي، ولله در الشيخ محمد رضا الشبيبي شاعر العراق الفحل إذ يقول:

كفى الشعر ذمّاً إنّ للشعر قائلاً *** وما هو إلاّ قائلٌ غير فاعلِ[١]

ولا خير في شعر إذا لم يقم به *** خمولُ نبيه أو نباهةُ خامل

إذا قلت إنّ الشعر بحر غَبنتَه *** متى يستقيم البحر من غير ساحل

قرائحنا منها بحورٌ خضارمٌ *** ومنها إذا جرّبتَ رشحُ الجداول

وأجمعُ أقوال الرجال أسدُّها *** معان كبارٌ في حروف قلائل[٢]

[١] إشارة إلى قوله سبحانه:(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ)(الشعراء:٢٢٥ـ ٢٢٦).

[٢] محمد جمال الهاشمي: الأدب الجديد: ١ـ٢، طبعة النجف الأشرف.

فالحقّ ـ كما قال الشبيبي ـ أنّ قيمة الشعر بمعناه وبتأثيره الفاعل في إيقاظ المجتمع، فربَّ قصيدة كثيرة الأبيات لا تجد فيها كلمة حكيمة تُسعد الإنسان في حياته أو تصدّه عن مزالقه.

وربّ بيت واحد يفضَّل على قصيدة، لأنّه يشفّ عن حكمة بالغة تأخذ بيد الإنسان إلى طريق السعادة، وتُجنّبه مزالق الحياة، وقد أشار إلى ذلك الشاعر المذكور بقوله:

موقف النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) من الشعر والشعراء ...

وقد يبلغ البيت البليغ قصيدة *** مطوّلة لكن على غير طائلِ

وقد يبلغ اللفظ القصير رسالة *** إذا عدّت الألفاظ روح الرسائل

وقال المعاصر الشاعر المفلق السيد محمود الموسوي:

لا شعـرَ لا شعـرَ إلاّ ما يسيل رؤىً *** وحكمةً كالضُّحى الزاهي وريحانا

كأنّه وحنايا القلب تَرشُفُه *** فرحانةٌ لَقيتْ في الحبّ فرحانا

ويتحدّث الخطيب الدكتور أحمد الوائلي(رحمه الله) عن رسالة الشعر ودوره في إثارة المشاعر، فيقول:«الكلمة التي تكون مقفّاة وموزونة فإنّ وقعها على النفوس لا حدّ لتأثيره، وفي التراث التاريخي والواقع المعاصر من الشواهد ما هو كفيل بالتدليل على ما ذكرنا. إنّ الكلمة الشعرية بالإضافة إلى كونها مكهربة عاطفياً، فإنّها تأخذ وضعاً ملتزماً إذا أُحسن توظيفها في مسارها الإديولوجي، وبذلك تخرج عن كونها مجرد إفراز عاطفي، لتصبح ثمرة لمعاناة مقصودة ذات هدف محدّد، ولا منافاة بين ذلك ووظيفتها الجمالية أو الفنيّة كما يتصوّر البعض، بداهة أنّ تغليب الجانب الفني الجمالي على الجانب الرسالي أو العكس إنّما يحدّده التأكيد على أحد الجانبين، دون أن يطمس هذا التأكيد معالم الجانب الآخر. ديوان الوائلي، المقدمة:٧.

موقف النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) من الشعر والشعراء

روي أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أمر أصحاب القرائح في المدينة بقوله: اهجوا بالشعر فإنّ المؤمن يجاهد بنفسه وماله، والذي نفس محمّد بيده كأنّما تنضحونهم بالنَّبل.(مسند أحمد:٣/٤٥٦، ٤٦٠.) وفي لفظ آخر: فكأنّما ترمونهم به نضْحُ النَّبل.

ويشهد تاريخ الأدب العربي على أنّ النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يثمّن شعر كلّ شاعر فيه صلاح المجتمع وترسيخ للقيم الأخلاقية فيه، ولذلك نرى أنّه عندما أنشد شاعر من كنانة شعره أمام الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وقال:

لك الحمد والحمد ممّن شكرْ *** سُقينا بوجه النبيّ المطرْ

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«يا كنانيّ بوّأك الله بكل بيت قلته بيتاً في الجنة». أمالي الشيخ الطوسي:٧٥، الحديث ١١٠،المجلس الثالث.

ولمّا استسقى(صلى الله عليه وآله وسلم) وسقوا بالمطر الغزير، قال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): «لله درّ أبي طالب لو كان حيّاً لقرّت عيناه، من ينشدنا قوله؟».

فقام عمر بن الخطاب، فقال: عسى أردت يا رسول الله:

وما حملت من ناقة فوق ظهرها *** أبرّ وأوفى ذمّة من محمّدِ

فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«ليس هذا من قول أبي طالب، هذا من قول حسّان بن ثابت».

فقام علي بن أبي طالب(عليه السلام) وقال: كأنّك أردت يا رسول الله:

وابيض يُستسقى الغمام بوجهه *** ثِمالُ اليتامى عِصمةٌ للأراملِ

تلوذُ به الهُلاّك من آل هاشم *** فهم عنده في نعمة وفواضلِ

فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «أجل». أمالي الشيخ الطوسي:٧٥، الحديث ١١٠، المجلس الثالث.

وهذا هو كعب بن زهير الذي قدم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) تائباً وأنشد قصيدته المعروفة التي مستهلها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ *** متيّم إثرها لم يفدَ مكبولُ

قال ابن هشام: وذكر لي عن علي بن زيد بن جدعان قال: أنشد كعب بن زهير رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في المسجد:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول *** متيم إثرها لم يفد مكبولُ

قال ابن هشام: ويقال أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال له: حين أنشد:

«لولا ذكرت الأنصار بخير، فإنّهم لذلك أهل».فنظم كعب قريضاً خصّ الأنصار بالمدح وقال:

من سرّه كرم الحياة فلا يزل *** في مِقْنب من صالحي الأنصارِ

ورثوا المكارم كابراً عن كابر *** إنّ الخيار همُ بنو الأخيارِ

(السيرة النبوية:١/٥٠٣ـ ٥١٥.)

قال العلاّمة الأميني: وكان(صلى الله عليه وآله وسلم) يثوّر شعراءه إلى الجدال بنبال النظم وحسام القريض، ويحرّضهم إلى الحماسة في مجابهة الكفّار في قولهم المضادّ لمبدئه القدسيّ، ويبثّ فيهم روحاً دينياً قويّاً، ويؤكّد فيهم حميّة تجاه الحميّة الجاهلية، وكان يوجد فيهم هياجاً ونشاطاً في النشر والدعاية، وشوقاً مؤكّداً إلى الدفاع عن حامية الإسلام المقدّس، ورغبةً في المجاهدة بالنظم بمثل قوله(صلى الله عليه وآله وسلم) للشاعر: «اهجُ المشركين، فإنّ روح القدس معك ما هاجيتهم».. مسند أحمد٤/٢٩٨؛ مستدرك الحاكم:٣/٤٨٧. وقوله: «اهجُهم، فإنّ جبريل معك» مسند أحمد:٤/٢٩٩، ٣٠٢، ٣٠٣.. الغدير:٢/٨. وسيوافيك مزيد بيان موقف

النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) من الشعر والشعراء في سورة «يس» في تفسير قوله سبحانه:(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)(يس:٦٩).

موقف الأئمّة المعصومين(عليهم السلام) من الشعر والشعراء
إنّ موقف أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) من الشعر الملتزم والشعراء الهادفين هو نفس موقف جدّهم المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) من ذلك. وكان الشعراء الموالون يقصدون بيوتهم وينشدون قريضهم لهم تقرّباً إلى الله تبارك وتعالى، فيحظَون بمباركتهم ودعائهم، وربّما عقد بعض الأئمّة(عليهم السلام)مجلساً لإنشاد الشعر. وهذا هو شاعر أهل البيت الكميت بن زيد الأسدي(٦٠ـ ١٢٦هـ) له ميمية معروفة أنشدها عند الإمام الباقر(عليه السلام) في المدينة، مطلعها: من لقلب متيَّم مُستهامِ *** غير ما صبوة و لا أحلامِ روى المسعودي في «مروج الذهب»: قدم الكميت المدينة فأتى أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي(عليهم السلام) فأذن له ليلاً وأنشده، فلما بلغت الميمية قوله: وقتيل بالطف غودر منه *** بين غوغاء أمّة وطَغامِ بكى أبوجعفر(عليه السلام) ثم قال: «يا كميت لو كان عندنا مال لأعطيناك، ولكن لك ما قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)لحسّان: «لازلت مؤيّداً بروح القدس ما ذببت عنّا أهل البيت». مروج الذهب:٣/٢٥٤. وكان الإمام الصادق(عليه السلام) يستنشد شعر السيد إسماعيل الحميري(رحمه الله)ويحتفل به. روى المرزباني، قال: حدّثني فضيل بن عمر الحبّال، قال: دخلت على أبي عبد الله(عليه السلام) بعد قتل زيد(عليه السلام) فجعل يبكي ويقول: «رحم الله زيداً أنّه العالم الصدوق، ولو ملك أمراً لعرف أين يضعه». فقلت: أنشدك شعر السيّد؟ فقال: «أمهل قليلاً»، وأمر بستور، فسُدلت، وفُتحت أبواب غير الأُولى،ثم قال: «هات ما عندك» فأنشدته: لأُمّ عمرو باللّوى مرتعُ *** طامسة أعلامه بلقعُ أخبار شعراء الشيعة:١٥٩. وهذا هو دعبل الخزاعي (الشهيد عام ٢٤٦هـ) صاحب التائية المعروفة التي مطلعها: تجاوبن بالإرنان والزفراتِ *** نوائح عُجم اللفظ والنطقاتِ وجاء فيها: مدارس آيات خلتْ من تلاوة *** ومنزلُ وحي مقفر العرصاتِ وقد أنشدها بين يدي الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام) في خراسان. يقول: دخلت على الإمام الرضا(عليه السلام)فقال: أنشدني ممّا حدثت؟ فأنشدته: مدارس آيات... حتى انتهيت إلى قولي: إذا وُتروا مدّوا إلى واتريهم *** أكفّاً عن الأوتار منقبضات

فبكى حتى أُغمي عليه، وأومأ إليّ خادم كان على رأسه: أن اسكت، فسكتّ، فمكث ساعة ثمّ قال لي: «أعِدْ» فأعدت حتى انتهيت إلى هذا البيت أيضاً، فأصابه مثل الذي أصابه في المرّة الأُولى، وأومأ إليّ الخادم: أن اسكت... ثم قال دعبل: حتى أنهيت إلى آخرها، فقال لي أحسنت ـ ثلاث مرات ـ ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم مما ضُرب باسمه، لم تكن دفعت إلى أحد بعد. عيون أخبار الرضا(عليه السلام):٢/٢٩٤، الحديث ٣٤.

تمّ تفسير سورة الشعراء

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين سورة النمل

سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ
الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ
بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى
إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ
الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي
تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا
وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ
هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ
نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ
أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ
الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ
غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ
عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ
(٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ
(٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي
مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ
وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)
وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ

أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا
الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ
لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ
رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ
أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا
مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً
وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا
تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي
الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ
أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ
أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) وَلُوطًا إِذْ
قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ
(٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)
أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ
بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ
(٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ
يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا
عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠)
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ
عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ
الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ (٨١) وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ
كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
(٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى
الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ
مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت هذه السورة في المصاحف بسورة «النمل» لورود قصة النملة مع سليمان فيها، وربّما تُسمّى بسورة «سليمان» لورود قصته(عليه السلام) فيها على وجه التفصيل، بينما وردت قصص سائر الأنبياء الأربعة على وجه الإيجاز.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها في عدّ الحجازي خمس وتسعون آية، وفي عدّ الشامي أربع وتسعون، وفي عدّ الكوفي ثلاث وتسعون آية. والسورة مكّية بالاتّفاق، تشهد لذلك مضامينها حيث نبّهت على إعجاز القرآن في صدرها، وركّزت على قصص الأنبياء الخمسة في ثناياها، وعلى المبدأ والمعاد في مختتمها، وكلّ ذلك يتناسب مع الفترة المكّية.

أغراض السورة

في السورة تنبيه على إعجاز القرآن وتوكيد لربّانيّته وأنّه موحى من الله إلى نبيّه ولم يفتعله هو(صلى الله عليه وآله وسلم)بتعلّم من أحد، أو اقتباس من كتاب، ثم تعرض مشاهد من قصة موسى (عليه السلام)، ثم تتوسّع في بيان قصة سليمان(عليه السلام)، الّذي بلغت البلاد في عهده أوج القوّة والعزّة والرفعة، وتذكر قصة صالح ولوط(عليهما السلام)للعبرة، وتختم السورة بما يتعلق بالمبدأ والمعاد.

ومن عجيب القول ما ذكره القرطبي في تفسير قوله:(وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ)، النمل:٩٢.قال: نسختها آية القتال. الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي:١٣/٢٦٤.

يلاحظ عليه: أنّ النسخ عبارة عن رفع حكم وارد في القرآن الكريم بنحو من الدلالات، وليس في الإخبار بأنّه من المنذَرين أن لا يقوم في المستقبل بالسيف حتى تكون الآية الثانية ناسخة للأُولى. على أنّ السيف الذي استعمله النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن للدعوة إلى الإيمان والإخلاص، بل لرفع الحواجز والموانع التي كان يضعها العتاة المجرمون لمنع بلوغ الدعوى إلى الناس، فإذا أُزيلت تلك الحواجز وأُتيح للناس أن يتدبّروا فيها فعندئذ (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) الكهف:٢٩. والتفصيل في محلّه.

سورة النمل: الآيات ١ ـ ٦ (طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَاب مُبِين ... وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيم).

الآيات: الست الأُولى

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَاب مُبِين * هُدًى وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيم).

المفردات

يعمهون: العَمَه: التردّد في الأمر من التحيّر. المفردات للراغب: ٣٤٨ ، مادة «عمه». يقال: عَمِهَ يَعْمَه عَمَهاً، فهو عَمِه وعامه: أي حائر عن الحقّ.

التفسير

١ و ٢ . (طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَاب مُبِين * هُدًى وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ):

قوله تعالى:(طَس): من الحروف المقطّعة، وللمفسّرين فيها آراء، وسيوافيك تفصيل ذلك في السور الآتية وخصوصاً في سورة الأحقاف. والمختار عندنا أنّها إشارة إلى إعجاز القرآن وأنّه مؤلّف من تلك الحروف ومقابلاتها في الأوصاف، والجميع في متناول فصحاء العرب وبلغائهم، فلو صحّ القول بأنّه من صنع محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)فليجيبوا عن التحدّي الذي يواجههم به القرآن، بالإتيان بمثله، ولذلك يقول سبحانه في الآية السادسة من هذه السورة: (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيم عَلِيم).

قوله تعالى: (تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَاب مُبِين) إشارة إلى ما أُوحي إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي للتعظيم ولبيان سموّ مكانة آيات القرآن، تماماً كما في قوله سبحانه: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ).(البقرة: ٢.)

ثمّ إنّه سبحانه وصف الآيات بصفات أربع:

١. (الْقُرْآنِ)

٢.(كِتَاب مُبِين)

٣.(هُدًى)

٤.(بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ)

قوله: (تِلْكَ)مبتدأ، وقوله: (آيَاتُ الْقُرْآنِ) خبره. أمّا الوصف الأوّل فهو كون الآيات مقروءة، وأمّا الثاني فهي كونها مكتوبة.

ثمّ إنّ الآية الأُولى وردت في مستهل سورة «الحِجر» باختلاف يسير، قال تعالى:(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآن مُبِين) الحجر:١.، حيث قدّم القرآن وأخّر الكتاب في آيتنا هذه على عكس ما في سورة «الحِجر»، وأيضاً عرّف القرآن ونكر الكتاب هنا على خلاف ما في سورة «الحجر».

وقد أجاب عن الأمر الثاني القرطبي وقال: إنّ القرآن والكتاب اسمان يصلح لكلّ واحد منهما أن يُجعل معرفة وأن يُجعل صفة. الجامع لأحكام القرآن:١٣/١٥٥.

والجواب غير واف، لأنّ السؤال لماذا اختار المعرفة في المقام وخلافها في سورة «الحِجر»، وما هو الوجه في ذلك؟

ويمكن الإجابة عن الأوّل بأنّ المقام هنا مقام التنويه بالقرآن ومتّبعيه المؤمنين، والقراءة تناسب حال المؤمنين والمتقبّلين لآياته، ولذلك قدّم القرآن وأدخل اللام، ثم عطف عليه قوله:(وَكِتَاب مُبِين)ليكون جامعاً لأوصافه بأنّه مقروء ومكتوب.

وأمّا ما في أوّل سورة «الحِجر» فبما أنّه في مقام التحسير للكافرين فناسب أن يبتدأ باسم الكتاب المشتقّ من الكتابة دون القرآن لأنّهم بمعزل عن قراءته ولكنّه مكتوب، فلذلك عرّف الكتاب وقدّمه بخلاف القرآن. التحرير والتنوير:١٩/٢١٨ـ ٢١٩، بتوضيح منا.

هذا كلّه حول الوصفين الأوّلين وهما كونه قرآناً وكتاباً، وأمّا الوصف الثالث والرابع فهو قوله تعالى: (هُدًى وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ) فالمصدران حالان من الكتاب وكلاهما بمعنى الفاعل أي هادياً ومبشّراً للمؤمنين، وقد خصّ أمرهما بالمؤمنين لأنّهم هم المنتفعون بهدايته كما أنّ البشرى مختصّة بهم، وهذا لا ينافي أن يكون القرآن هادياً لعامّة الناس كما يقول سبحانه:(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَات مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) البقرة:١٨٥.وذلك لأنّ الدعوة النبوية كانت دعوة عامّة

موجّهة إلى البشر كافّة.

ثمّ إنّه سبحانه ـ إشارة لمقام المؤمنين ـ عرّفهم في الآية التالية وقال:

٣. (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ):

ذكر في تعريف المؤمنين أُموراً ثلاثة:

أمّا الأول: (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ)فالمؤمنون يؤدّون الصلاة مستوفية لحدودها وسُننها وخشوعها كما يقول سبحانه:(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ) المؤمنون: ١و ٢، بخلاف المشركين الذين يقول في حقهم:(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ). المدثر:٤٢ـ ٤٣.

وأمّا الأمر الثاني: (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)فالمؤمنون يزكّون أموالهم بخلاف الكافرين، فهم يمنعون منها قال سبحانه:(وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * اَلَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ). فصلت: ٥ ـ ٦.

فالصلاة تجعل المؤمن على صلة وثيقة ودائمة بالله سبحانه، وأمّا الزكاة فهي تعبير عن صلته بالمجتمع، وهي من أقوى الأسباب الباعثة على بنائه وتماسكه، بالإضافة إلى تأثيرها في نفس الفرد بتطهيرها من دنَس البُخل، وبما أنّ السورة مكّية فالمراد بالزكاة هنا هو مطلق التصدّق على الفقراء، وأمّا الزكاة حسب المعنى المصطلح فقد شرّعت بالمدينة في أوائل الهجرة.

بقي الكلام في الأمر الثالث وهو الاعتقاد الجازم الذي لا يعروه شكّ بالآخرة كما قال: (وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)، فقد عبّر عن الأمرين الأوّلين بالجملة الفعلية، وأمّا الأمر الثالث فعبّر عنه بالجملة الاسمية، ثم فصَل بين المبتدأ والخبر بضمير الفصل (هُمْ) وقال:(هُمْ يُوقِنُونَ)كلّ ذلك للاهتمام بالمضمون، وذلك لأنّ الإيمان بالآخرة أحد الأُصول الثلاثة، ولولا الإيمان بالمعاد لا يصدق على المعتقَد وصف الدين وإنّما يوصف بالمسلك، فمن وحّد الله سبحانه دون أن يعتقد بالمعاد ودعا الناس إلى معتقده، فهو رجل إصلاحي وليس رجل ديني لأنّ أساس الدين هو كون الدنيا مزرعة للآخرة.

٤. (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ):

قد مرّ أنّ الإيمان بالآخرة أساس الدين، ولولاه لما صحّ أن توصف أيّة دعوة إصلاحية بالدين، ولذلك أخذ البيان الإلهي يصف أحوال المنكرين للمعاد بقوله:(إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ)من غير فرق بين الشاكّ والمُنكر، فهم على الوصف التالي: (زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ)، وأنت ترى أنّه سبحانه قد نسب، في هذه الفقرة، تزيين أعمالهم السيئة إلى ذاته المقدّسة، فهل يجوز الأخذ بهذا المعنى الظاهر منها، مع أنّه قد نسب التزيين في مواضع من كتابه المجيد إلى الشيطان، كما في قوله سبحانه: (وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام:٤٣.ولاحظ أيضاً: ١٣٧، الأنفال:٤٨، النحل:٦٣، العنكبوت:٣٨.. وإذا لم يجز ذلك فما هو المراد إذاً من هذه الفقرة؟

والجواب:أنّ النفس الإنسانية إذا خُلّيت وطبيعتها مالت إلى الشهوات واللّذات، وعندئذ يغريها الشيطان بالاسترسال فيها والاستغراق في حياة اللّهو والعبث وممارسة الأعمال السيئة، وذلك بتزيينها وإعطاء عناوين برّاقة وخادعة لها، فتتلقّى النفس ـ مثلاً ـ المجون والفجور تحضّراً وانفتاحاً، والطهرَ والعفاف تشدّداً وانغلاقاً، والظلم والاستبداد قوّة وحزماً والخضوع للغزاة والمحيلّين رؤية سياسية، إلى غير ذلك من القبائح التي يخلع عليها الشيطان ثياباً جميلة.

و لاشكّ في أنّ عدم الإيمان بالبعث واليوم الآخر، يُفضي بالكافرين إلى مخالفة أوامر الله تعالى ونواهيه، والتعدّي على حدوده، ومن ثمّ إلى التمادي في ارتكاب الأعمال السيّئة، الأمر الذي يجعلهم لا يبصرون قبحَها، بل يَرونها مزيّنة جميلة.

ولمّا كانت هذه النتيجة التي يصل إليها المكذّب بالآخرة، أعني أن يرى سوء عمله حسناً، سنّة من سنن الله العادلة في خلقه من

البشر، وقانوناً من قوانينه الصالحة فيهم، أسند سبحانه التزيين إلى نفسه.

وقد يجاب عن ذلك بالقول: إنّ النزوع إلى الفساد والانقطاع عن المُثُل العليا يقطع صلة الإنسان بالله سبحانه، فتكون النتيجة، وقد خلّى الله بينه وبين اختياره تزيين القبائح من عند الله، وهو نظير نسبة الضلال إلى الله سبحانه، فإنّ الإضلال من الله هو انقطاع الصلة بين الإنسان وهداية الله فيكون ضالاً والله مضلّ بهذا المعنى.

ثمّ إنّه سبحانه وصف غير المعتقدين باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، بقوله: (فَهُمْ يَعْمَهُون)والعَمَه ـ كما مضى ـ هو التردّد في الأمر من التحيّر، فهؤلاء يضلّون عن طريق الهدى، ويخبطون سادرين في التّيه، حيث فقدوا البصيرة فلا يعرفون الحقّ من الباطل.

٥. (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ):

الآية ناظرة إلى بيان نتيجة رفض الإيمان باليوم الآخر، فأشارت إلى أنّ لهم عذابين:

١. (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ) أعاد المبتدأ بقوله: (أُولَئِكَ) لغاية تمييزهم عن المؤمنين.

فلو كانت الفقرة ناظرة إلى مشركي قريش فقد أُريد به ما لحقهم من النكال والقتل يوم بدر، وإن أُريد بها مطلق المشركين والكافرين فلعلّ المراد به الاضطراب النفسي خصوصاً بعد أن يتركوا الدنيا.

٢. (وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ) ولعلّ وجه كونهم أخسر الناس أنّ سائر العصاة لهم صحائف أعمال مثبتة فيها سيئاتهم وحسناتهم يُجازون بها، وأمّا هؤلاء فسيئاتهم محفوظة عليهم يجازون بها وأمّا حسناتهم فهي هابطة. الميزان في تفسير القرآن:١٥/٣٤٠.

٦. (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيم عَلِيم):

أي إنّك لتعطى القرآن من لدن إله حكيم عليم، وإدخال (لَدُنْ) في الآية للإشارة إلى كمال القرب وشدّة الانتساب إلى الله، وأمّا الملقي فقد وصف بوصفين:

١. إله حكيم، مُتقن لفعله تشريعاً وتكويناً.

٢. إله عليم، لا حدّ لعلمه ولا نهاية.

والقرآن كلام ذلك الحكيم العليم فيكون مشتملاً على الحكمة والعلم.

والآية ناظرة إلى صدر السورة حيث قال:(تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَاب مُبِين).

ثمّ إنّ في الآية تصريحاً كاملاً بأنّ القرآن من صنع الله سبحانه وهو المعطي، والنبيّ هو الآخذ دون أن يكون له(صلى الله عليه وآله وسلم) أي تأثير فيه، كأن يقول شيئاً لم يؤمر به، أو يغيّر شيئاً فيه من تلقاء نفسه. وفي ذلك ردّ للتُّهم التي ألصقها المشركون بالقرآن الكريم كما في قولهم:(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) الفرقان:٥ و٦..

سورة النمل: الآيات ٧ ـ ١٤ (إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ... فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ).

الآيات: السابعة إلى الرابعة عشرة

(إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَر أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَاب قَبَس لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوء فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوء فِي تِسْعِ آيَات إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا

مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ).

المفردات

آنستُ: أبصرت. والإيناس: وجدان الشيء الذي يُؤنَس به ويُطمأنّ إليه.

بخبر: أي من المكان الذي تلوح النار منه. ولعل المراد الاهتداء إلى الطريق.

بشهاب: بشعلة ساطعة من النار.

قبس: قطعة من النار تُقتبس، أي تؤخذ من معظم النار.

تصطلون: تستدفئون.

قال الشاعر:

النار فاكهة الشتاء فمن يُرِدْ *** أكْلَ الفواكه شاتياً فَلْيصطلِ

جانّ: حيّة صغيرة سريعة الحركة.

ولّى مدبراً: أي رجع إلى ورائه.

لم يعقّب: أي لم يرجع، وكلّ راجع معقّب. والمفسرون يقولون: لم يلتفت.

مبصرة: ظاهرة بيّنة.

جحدوا: الجحد: الإنكار القائم على المكابرة والعناد.

التفسير

تعرض هذه الآيات مشهداً من مشاهد قصة موسى(عليه السلام)، وهو رجوعه مع أهله من (مدين) إلى بلاده (مصر) التي خرج منها خائفاً من أن يطلبه جند فرعون ليقتلوه بالفرعوني الذي ضربه(عليه السلام) ضربة كان حتفه فيها، كما فُصِّل ذلك في سورة القصص لاحظ: القصص:١٤ـ ٢٨. الآتية. إذا عرفت ذلك فلنشرع في تفسير الآيات التي نحن في صددها، والتي تتحدّث عن ابتداء نبوّته(عليه السلام)، وتكليفه بالرسالة.

٧. (إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَاب قَبَس لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ):

لمّا تقدّم قوله سبحانه:(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيم عَلِيم)أتى بهذه القصة لما فيها من الحكمة والعلم والعبرة للمؤمنين وقال: (إِذْ): أي اذكر الذي (قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ): أي لزوجته وأولاده، قال بعض المفسرين: لم يكن معه إلاّ زوجة وابنان صغيران. التحرير والتنوير:١٩/٢٢٤؛ أضواء البيان:٦/٢٧٩. وجاء في سِفر الخروج:٤/٢٤ و ٢٥: أنّ موسى(عليه السلام) ذهب إلى مصر مع امرأته وابنيه، وأنّ اسم ولده الأكبر جِرشوم، واسم الأصغر أليعازر. انظر: قاموس الكتاب المقدس: ١١٣ و ٢٥٩، الطبعة (١٠)، دار الثقافة بالقاهرة. (إِنِّي آنَسْتُ نَارًا): أي أبصرت ناراً، وقد مرّ أنّ الإيناس هو وِجدان الشيء الذي يؤنس به. قال الشريف الرضيّ: هذه استعارة على القلب، والمراد بها ـ والله أعلم ـ إنّي رأيتُ ناراً فآنستني، فنقل فعل الإيناس إلى نفسه على معنى: إنّي وجدتُ النار مؤنسة لي...

وحقيقة الإيناس هي الإحساس بالشيء من جهة يؤنس بها، وما آنستَ به فقد أحسستَ به مع سكون نفسك إليه. تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٩٥.

وأمّا وجه إيناسه بها فيكشف عنه قوله: (سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَر أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَاب قَبَس لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُون)ذكر أنّه بالذهاب إلى النار التي رآها أنّه يقوم بأحد أمرين: إمّا أن يأتي بخبر والمراد به: خبر الطريق، والظاهر أنّه ضلّ الطريق فاحتمل أن يجد عند النار أحداً يدلّه على الطريق، والشاهد على ذلك قوله سبحانه في سورة طه: (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَس أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)،(طه: ١٠

.) فإنّ قوله: (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)قائم مقام قوله:(سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ)، أو يأتي بقطعة من النار ليستدفئوا بها كما يقول:(أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ) و أُريد به القطعة المضيئة كما جاء في سورة القصص: (أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ).

وحاصل الآية: أنّ موسى(عليه السلام) كان يسير في ليلة ظلماء مع أهله إلى مصر وكانت ليلة باردة، وعند ذلك أبصر ناراً، فطلب من أهله المكثَ مدّة قليلة حتى يذهب إلى محلّ النار، وهو إمّا أن يهتدي إلى الطريق لوجود مَن يدلّه عليه هناك، أو يجد هناك علامة ترشده إليه، وإلاّ فيرجع بجذوة من النار يصطلون بها ويحصلون من خلالها على الدفء، وبذلك أقنع أهله بالمكث والبقاء في مكانهم، وأن ينطلق هو وحده إلى جانب النار.

٨ . (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ):

(فَلَمَّا جَاءَهَا): أي جاء النار، فقد كانت ناراً في ظاهرها(كما رآها) ونوراً في باطنها أوجده الله بقدرته (نُودِيَ)بالكلام التالي: (أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) يقع الكلام في تفسير هذه الجملة في أُمور ثلاثة:

١. ما هو المراد من قوله: (بُورِكَ)؟

٢. ما هو المراد من قوله:(مَنْ فِي النَّارِ)؟

٣. ما هو المراد من قوله: (وَمَنْ حَوْلَهَا)؟

الظاهر أنّ المراد من قوله: (بُورِكَ) هو تقدّس، والشاهد على ذلك ما ورد في سورة طه أعني قوله: (نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى). طه:١١ـ ١٢.

وأمّا المراد من قوله: (مَنْ فِي النَّارِ) فالظاهر أنّه موسى نفسه لإحاطة النار به.

وأمّا المراد من قوله:(وَمَنْ حَوْلَهَا) هو الأرض المقدّسة حيث إنّه سبحانه يصف تلك المنطقة بالبركة بقوله سبحانه: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)(الإسراء: ١.) والتعبير عن الأرض المباركة بالموصول المختص بالعاقل (مَنْ) تنزيلاً لها منزلة العاقل لقداستها وبركاتها.

ويؤيّد ما ذكرنا أيضاً من أنّ المراد من قوله: (وَمَنْ حَوْلَهَا) هو الأرض المقدّسة قوله: (نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).(القصص: ٣٠.)

ويحتمل أن يراد منه جبريل(عليه السلام) الذي أرسل إليه بما نودي به. وقيل في تفسير الجملة أقوال أُخرى ذكرها المفسّرون، فلاحظ . (وَسُبْحَانَ اللهِ): أي تنزّه الله عمّا لا يليق به،لماذا؟ لأنّه (رَبِّ الْعَالَمِينَ)ومَن كان خالقاً للعالمين ومدبّراً لهم أَولى بأن يكون منزّهاً عن العجز والنقص، وإنّما أتى بهذه الفقرة لدفع ما ربّما يخطر بالبال أنّه سبحانه موجود في هذا المكان ومتحيّز به، حيث سمع موسى ما يأتي في الآية التالية:

٩. (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ):

وصف نفسه هنا بالعزّة والحكمة، أمّا الأوّل (الْعَزِيزُ) فيناسب ما سيأمره به من الذهاب إلى الطاغية فرعون وأنّه(عليه السلام) يَغلب ولا يُغلب ؛ لأنّ مرسله عزيز قادر لا يُعجزه شيء.

وأمّا الثاني فيناسب الهدف من الرسالة التي كلّفه سبحانه بإبلاغها إلى فرعون وقومه، فبما أنّه سبحانه حكيم في جميع أفعاله، عليم بوجه الصواب في التدبير، فإنّ الرسالة التي بُعث بها(عليه السلام) حكيمة، تُرشد إلى الحق، وتهدي من الضلالة.

١٠. (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ):

ذكر سبحانه هذا المشهد من القصّة أيضاً في سورتي طه والقصص، وفصّل فيهما واختصر هنا، وعلى هذا فقبل أن يأمره بإلقاء

العصا ـ كما في آيتنا هذه ـ شرّفه بالرسالة كما في سورة طه وقال: (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)إلى أن قال: (أَلْقِهَا يَا مُوسَى)، فعلى ضوء ما جاء في سورة طه فلابدّ في المقام من تقدير أنّه شرّفه بالرسالة وكلّفه بمسؤولية الدعوة إلى الله تعالى، فعندئذ يجب أن يكون مزوّداً بالمعجزة حتى يثبت بها صدق نبوّته وصلته بالله سبحانه، ولأجل هذا زوّده في نفس المكان بمعجزتين: العصا، واليد البيضاء، وبما ذكرنا تظهر صلة الآية بما قبلها.

أمّا الأُولى وستأتي الثانية في قوله سبحانه:(وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ)(الآية١٢)، فيشير إليها بقوله: (وَأَلْقِ عَصَاكَ) وأُريد بالعصا ما ورد ذكرها في سورة طه حيث قال: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) طه:١٧ـ ١٨. فلمّا أمره سبحانه بإلقائها على الأرض وأطاع(عليه السلام) الأمر، إذا هي تصير حيّة تتلوّى وتضطرب بشدّة، كما يقول:(فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ): أي كأنّها حيّة صغيرة في خفّة حركتها فإنّ الحيّة الصغيرة تهتزّ بشدّة دون الكبيرة التي يقال لها ثعبان. وهذا لا ينافي ما ورد في موضع آخر من تبدّل العصا إلى ثعبان عندما ألقاها أمام فرعون وملئه: (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ) الأعراف:١٠٧، فالعصا انقلبت ثعباناً في ضخامته، ولكنّه كالحيّة الصغيرة في سرعة حركته واضطرابه. ولمّا رآها موسى(عليه السلام) كذلك، استولى الخوف عليه وانهزم، كما يقول: (وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ)أي: ولم يرجع بعد الإدبار، فخوطب بقوله:(يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)، وليس هذا أمراً مُشيناً لموسى، وذلك لأنّ الأنبياء مع ما لهم من المقامات السامية هم أُناس لهم ما لهم من الأحكام، فإنّ انقلاب العصا اليابسة إلى ثعبان مهتزّ يورث في بادئ النظر أثراً في النفس. ولصديقنا المرحوم العلاّمة محمد جواد مغنية كلام لطيف في المقام، يقول: إنّ موسى إنسان، ومن طبيعة الإنسان الخوف... ومن الذي لا يخاف إذا تحوّل القميص الذي على بدنه إلى حيوان مفترس، والخاتم الذي في إصبعه إلى عقرب، والعصا التي في يده إلى ثعبان؟! خاف موسى لأنّه إنسان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فأمّنه الله سبحانه، وقال له: أنت رسولي، وجميع رسلي في أمان وسلام. التفسير الكاشف:٦/٩.

١١. (إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ):

لا شكّ أنّ الأنبياء معصومون قبل البعثة وبعدها، حسب الأدلّة العقلية والنقلية، وعلى ذلك يقع الكلام عمّا هو المراد من هذا الاستثناء؟ فهنا وجهان:

الأوّل: ما يظهر من الزمخشريّ من جعل (إلاّ) بمعنى «لكن» وقال: ويوشك أن يقصد بهذا التعريف بما وجد من موسى وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها، وسمّاه ظلماً كما قال موسى(عليه السلام):(رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي)،(القصص:١٧.) والحسن والسوء حسن التوبة وقبح الذنب. تفسير الكشّاف: ٣/١٣٥.

وحاصل كلامه: أنّ الفقرة تنطبق على موسى(عليه السلام) حيث إنّه لما(فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)(القصص:١٥)، ثمّ إنّ موسى وصفه بأنّه عمل الشيطان وأنّه بهذا العمل ظلم نفسه، والله سبحانه غفر له. لاحظ : القصص:١٥. فيكون معنى الآية: لكن (مَنْ ظَلَمَ): أي موسى نفسه (ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا): أي تاب (بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ).

وما ذكره الزمخشريّ ينطبق على بعض الأنبياء(غير موسى(عليه السلام)) الذين صاروا مبادئ للمعاصي الصغيرة حسب تعبيره، أو لترك الأَولى حسب تعبيرنا.

ومع ذلك فللآية معنى آخر وهو:

الثاني: كون (إلاّ) للاستثناء لكنّه استثناء منقطع، قال السيد الطباطبائي: إنّ الآية السابقة لمّا أخبرت عن أنّ المرسلين آمنون لا يخافون، فُهم منه أنّ غيرهم من أهل الظلم غير آمنين لهم أن يخافوا، استدرك في هذه الآية حال أهل التوبة من جملة أهل الظلم

فبيّن أنّهم لتوبتهم وتبديلهم ظلمهم ـ وهو السوء ـ حُسناً بعد سوء مغفور لهم مرحومون فلا يخافون أيضاً. فالاستثناء من المرسلين وهو استثناء منقطع، والمراد بالظلم مطلق المعصية، وبالحسن بعد السوء التوبة بعد المعصية أو العمل الصالح بعد السيّئ، والمعنى: لكن من ظلم باقتراف المعصية ثم بدّل ذلك حسناً بعد سوء وتوبة بعد معصية أو عملاً صالحاً بعد سيّئ فإنّي غفور رحيم، أغفر ظلمه وأرحمه فلا يخافنّ بعد ذلك شيئاً. الميزان في تفسير القرآن:١٥/٣٤٥.

١٢. (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ):

قلنا: إنّه سبحانه زوّد موسى(عليه السلام) في ذلك المكان بمعجزتين: إحداهما: انقلاب العصا إلى ثعبان، والثانية: ما جاء في هذه الآية وهو أن يدخل يده في جيب قميصه فإذا أدخلها فيه ثم أخرجها بدت بيضاء متلألئة كتلألؤ الشمس، كما يقول: (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ) لكن (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ): أي من غير مرض كما في المبتلى بالبَرَص. وفيه تعريض لما في التوراة المتداولة في هذا الموضع من القصة والتي ورد فيها: ثم قال له الربّ أيضاً أدخلْ يدك في عبئك، فأدخلَ يده في عبئه ثم أخرجها فإذا يده برصاء مثل الثلج. سفر الخروج: الإصحاح الرابع: الفقرة ٦.

نعم، زوّده في ذلك المكان بمعجزتين لكن زوّده بأكثر من ذلك عندما قابل فرعون كما يقول: (فِي تِسْعِ آيَاتٍ) حال من قوله: (تَخْرُجْ بَيْضَاءَ): أي كونه آية من (تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ).

وأمّا الآيات التسع فهي عبارة عن: العصا، واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدَّم، والقحط، وانفلاق البحر.

وقد ذكر الفيروز آبادي في مادة «تسع» البيت التالي الذي يتضمّن أسماء الآيات التسع:

عصا، سِنَة، بحر، جراد، وقمّل *** يَدٌ، ودم بعد الضفادع، طوفان

قد جرينا في تفسير قوله تعالى: (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) وَفق ما ذكره المفسّرون، وتبعناهم أيضاً في كتابنا «القصص القرآنية»،(لاحظ: القصص القرآنية:٢/٥٣.) غير أنّ لصديقنا السيد مجتبى الموسوي اللاري(رحمه الله) تحقيق في تفسير الآية نشرناه في مجلتنا الكلام الإسلامي، العدد(٧٣)، ونأتي بحاصل تحقيقه:

إنّ موسى(عليه السلام) كان بصدد التحدّي أمام السحرة الذين استخدمهم فرعون للمعارضة وكان التحدّي في يوم الزينة، أي اليوم الذي يجتمع فيه الناس كما في قوله تعالى:(قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) طه:٥٩.فانقلاب العصا إلى ثعبان مهتز معجزة كبيرة، وأمّا إردافها بيد بيضاء يكون بياضها كبياض يد الأبرص لكن من غير سوء لا يُعدّ شيئاً مهمّاً حتى يخضع السحرة وغيرهم أمام إعجازه، بل يجب أن يكون أمراً عظيماً يملأ العيون.

أضف إلى ذلك: أنّه سبحانه عبّر عنه بقوله: (بَيْضَاءَ) وربّما تفسّر البيضاء في اللغة بمعنى الشمس، فعلى هذا يمكن أن يقال بأنّه لمّا أخرج يده من جيبه تشعشع منها النور، بل أعظم من تشعشع الشمس، فعند ذلك خضع له العامّة وعلى رأسهم السحرة، فهذا النوع من المعجزة الباهرة يورث الإيمان والاطمئنان بأنّ موسى مبعوث من الله سبحانه، ولكن لما كان هذا النور والتشعشع أشدّ تلألؤاً من نور الشمس، ومن المعلوم أنّ هذا النور إذا أصاب عين الإنسان ربّما يسبّب تمزّق الشبكية في العين حتى أنّ الإنسان إذا ركّز نظره على قرص الشمس قد يسبّب ضعفاً في النظر أو أذى فيها، فالله سبحانه يشير بقوله: (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) إلى أنّ هذا التشعشع وإن كان فوق نور الشمس، لكنّه كان خالياً من كلّ سوء ولم يورث أذى ولا مرضاً في عيون الناظرين.

١٣. (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ):

ثمّ إنّ المترقّب من مشاهدة تلك المعجزات الباهرة والدلائل الساطعة أن يؤمن بها من لم يكن في قلبه عناد للحق، ولذلك آمن السحرة، وأمّا فرعون وملأه فقد وصفوها بالسحر كما قال: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً): أي واضحة بيّنة (قَالُوا): أي فرعون

وقومه، تبريراً لموقفهم المناهض للحق ودلائله، وسعياً وراء صدّ الناس عن التأثّر بها(هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ): أي سحر ظاهر لا شكّ فيه. وفي إسناد الإبصار إلى الآيات مجاز عقليّ، ويجوز أن يكون مجازاً مُرسلاً والعلاقة سببية، لأنّها سبب الإبصار.

١٤. (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ):

أي عرفوا هذه الآيات وعلموا بصحّتها قلباً، ولكن لم يخضعوا للحق كما يقول:(وَجَحَدُوا بِهَا)بألسنتهم (وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ): أي قلوبهم، وما ذلك إلاّ لوجهين: (ظُلْمًا) من أنفسهم (وَعُلُوًّا): أي طلباً للعلوّ والتكبّر (فَانْظُرْ) يا رسول الله (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) حيث غرقوا في البحر بأجمعهم.

سورة النمل: الآيتان ١٥ ـ ١٦ (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ... إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ).

الآيتان: الخامسة عشرة والسادسة عشرة

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ).

المفردات

ورث:الوراثة والإرث: انتقال قُنية إليك من غيرك من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد، وسمّي بذلك، المنتقل عن الميّت، فيقال: للقنية الموروثة: ميراث وإرث.

منطق الطير: فهم كلّ ما يريده كلّ طائر إذا صوّت.

ونودّ قبل التفسير أن نتطرّق إلى التعريف بالنبيَّين داود وسليمان(عليهما السلام)على وجه الإيجاز، فداود هو من أنبياء بني إسرائيل حاز بعد النبوّة مقام الإمامة، فصار نبيّاً، ملكاً، مدبّراً لأُمورهم، وورد اسمه في القرآن الكريم ست عشرة مرّة، وذكرت قصته في السور التالية: البقرة، الأنبياء، سبأ، ص، وسيمرّ عليك شيء من حياته في سورتي سبأو ص، وقد أوجز سبحانه ذكره في المقام وإنّما ركّز على قصة سليمان ضمن ثلاثين آية.

وأمّا سليمان فهو من الأنبياء العظام، ذوي المنزلة الرفيعة والمقام الكريم عند الله تبارك وتعالى، وقد خصّه سبحانه بفضله العميم حتى سخّر له الجنّ والطير والقوى الطبيعية، وذكر اسمه ست عشرة مرّة في ست سور.

التفسير

هذه هي القصّة الثانية في سورتنا، من قصص الأنبياء التي تلقّى فيها النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أخبارها وما فيها من حكمة وعلم من لدن الحكيم العليم جلّ شأنه، فقال:

١٥. (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ):

بما أنّ في قصة داود وسليمان من خوارق العادة وعجائب الأُمور والمخاطب ربّما يتردّد في صحّتها، ابتدأ الآية بلام القسم وحرف التحقيق (وَلَقَدْ) حتى يزيل ريبه وشكّه (آتَيْنَا): أي أعطينا، وفيه دلالة واضحة على أنّه كان علماً مفاضاً من الله سبحانه، فهو في منزلة قوله في مصاحب موسى(عليه السلام): (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) الكهف:٦٥.، (دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ) مرّ عليك التعريف بهما (عِلْمًا) التنكير للتضخيم، فكان الأب وابنه من عباد الله الشاكرين، فشكرا الله سبحانه على ذلك التفضّل (وَقَالاَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) ظاهر الآية أنّ كلّ واحد منهما حمد الله على النحو الوارد في الآية بأن قال كلٌّ (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ). وأُريد من قوله: (فَضَّلَنَا) الوالد وولده، ويعلم وجه التفضيل مضافاً إلى العلم المفاض، ممّا سيأتي من قصة سليمان في هذه السورة وما سيوافيك عن داود في سورة ص. وعلى كلّ تقدير فكلٌّ من النبيَّين نالا منزلة رفيعة.

١٦. (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ):

ذكر سبحانه في قصة سليمان أُموراً:

١. وراثته المال والمُلك عن أبيه داود.

٢. العلم بمنطق الطير.

٣. أنّ الله أعطاه وأباه من كلّ شيء.

٤. تسخير الجنّ والإنس والطير لخدمته.

٥. عبوره وادي النمل وسماع كلام النملة.

٦. قصته مع الهدهد وملكة سبأ.

نعم جاء في غير هذه السورة أُموراً أُخرى، كتسخير الريح وغير ذلك، فهو خارج عن تفسير هذه السورة. وتمّ بيان كلّ ذلك إلى الآية رقم ٤٤، ثم يبدأ بذكر قصة صالح(عليه السلام).

١. وراثة سليمان أباه داود

أمّا الأمر الأوّل ـ أعني: وراثة سليمان لداود ـ فقد أشار إليه سبحانه بقوله:(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ)، وقد كان داود يتمتّع بأُمور أربعة: ١. العلم، ٢. النبوّة، ٣. المُلك، ٤. المال.

أمّا الأوّل فلم يرثه سليمان من داود ؛ وذلك لأنّ العلم غير قابل للإيراث، مضافاً إلى أنّ الآية المتقدّمة: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا)صرّحت بأنّه سبحانه أفاض عليهما العلم من دون أن يرث أحدهما الآخر.

وأمّا الثاني، أعني: النبوّة فهي أيضاً غير قابلة للإيراث ؛ لأنّها رهن ملَكات وقابليات خاصّة حتّى يختاره الله سبحانه للنبوّة، فلو كان فاقداً لها يمتنع أن يكون نبيّاً، ولو كان واجداً لاختاره الله للنبوّة من دون حاجة إلى أن يرثها عن الآخر.

وأمّا الثالث ـ أعني: الملك ـ فإن أُريد به الإمامة ـ كما هو الظاهر ـ المتمثّلة في تدبير أمر الأُمّة دنيوياً وأُخروياً فهو أيضاً مقام تنصيصي يفاض من الله سبحانه، قال تعالى:(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) البقرة:١٢٤، فليست هي قابلة للإيراث لما ذكر في أمر النبوّة.

ولو فرضنا أنّ المراد بالمُلك هو التدبير بلا تنصيب من الله سبحانه فهو قابل للوراثة.

وأمّا الرابع ـ أعني: المال ـ فهو من أظهر مصاديق الوراثة، فكلّما أطلقت الوراثة ينصرف إليه، ولو استعمل في غيره فإنّما هو نوع من التشبيه كما في قوله تعالى:(وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا) الزخرف:٧٢، وعلى هذا فمقتضى إطلاق الآية أنّ سليمان ورث من داود المال أو هو مضافاً إلى مقام الملك، ولا وجه لتخصيصه بالملك.

قال السيد الطباطبائي: وأمّا قول بعضهم: المراد به وراثة النبوّة والعلم، ففيه: أنّ النبوّة لا تقبل الوراثة لعدم قبولها الانتقال، والعلم الذي يختصّ به الأنبياء والرسل كرامة من الله لهم، والنبيّ لا يرث علمه من نبيّ آخر ولا من غير نبيّ. الميزان في تفسير القرآن:٣٤٩/١٥.

ثمّ إنّ كثيراً من مفسّري مدرسة الخلفاء لمّا تلقّوا ما نُسب إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: «لا نُورَث، ما تركنا صدقة» صحيح البخاري:٢٦٤/٤، برقم ٦٧٢٧، كتاب الفرائض؛ سنن أبي داود:٥٦٨ برقم ٢٩٧٦، كتاب الخراج والإمارة والفيء.، حديثاً صحيحاً عمدوا إلى تأويل الآية، فيقول الراغب الإصفهاني، مثلاً، في تفسير قوله تعالى: (وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) مريم: ٦. فإنّه يعني: وراثة النبوّة والعلم والفضيلة دون المال، فالمال لا قَدْر له عند الأنبياء حتى يتنافسوا فيه، بل قلّما يقتنون المال ويملكونه.(المفردات للراغب: ٥١٩، مادة «ورث».)

وتبعه ابن عاشور ففسّر الآية بقوله: فخلفه سليمان فهو وارث ملكه والقائم مقامه في سياسة الأُمّة وظهور الحكمة ونبوءة بني إسرائيل والسمعة العظيمة بينهم، فالإرث هنا مستعمل في معناه المجازي. التحرير والتنوير:١٩/٢٣٤.

ونسأل هؤلاء ومن تبعهم: هل النبوّة أو العلم ممّا يورثان؟ فكيف تقولون قام سليمان مقام داود في الحكمة والنبوّة؟

إنّ الأمر يدور بين تفسير الوراثة بوراثة المُلك وسياسة الأُمّة أو هو مع المال، والوراثة في الثاني أظهر، والقول بالجمع هو المتّبع، فلا دليل على خروج المال من تحت الوراثة. وأمّا قول الراغب: أنّ المال لا قدر له عند الأنبياء فهو يناقض قوله سبحانه، الذي يصف فيه المال بالخير: (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ). البقرة:١٨٠. نعم إنّ المال يوصف بالخير إذا كان بيد الصالحين وأنفقوه في وجوه البرّ والإحسان والمعروف، وبالشرّ إذا كان بيد الطالحين وعملوا به في المعاصي والآثام.

أضف إلى ذلك: أنّ قول سليمان في ذيل الآية: (وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْء)أفضل دليل على وراثة ما كان يملكه داود، وإلاّ لكان معدماً غير غنيّ، ومعه كيف يقول:(وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْء)؟

ثمّ إنّ الدليل على أنّ الأنبياء يورثون لا يختصّ بهذه الآية، بل هناك دليلان آخران نشير إليهما إجمالاً:

الأوّل: إطلاقات الكتاب في مورد الميراث، يقول سبحانه:(يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ)(النساء:١١.) فإنّ إطلاقه حجّة ما لم يدلّ دليل قاطع على إخراج الأنبياء من الإطلاق، وليس هناك دليل صالح، فالخبر المذكور خبر واحد لا يخصّص به العموم القرآني.

الثاني: أنّه سبحانه ذكر دعاء زكريا وطلبه من الله سبحانه لأن يرزقه ولداً وقال:(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)(مريم: ٥) فالمراد هو وراثة المال لا النبوّة بشهادة قوله: (وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)إذ لو كان المراد وراثة النبوّة، فالنبيّ يمتنع أن لا يكون رضيّاً، وقد مرّ تفصيل ذلك في تفسير تلك السورة.

نعم ربّما يتصوّر أنّ الآيات منسوخة بما نسب إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه قال بصور ثلاثة:

١. إنّ الأنبياء لا يورثون.

٢. إنّ النبي لا يورث.

٣. لا نورث، ما تركناه صدقة.

والجواب عنه بوجهين:

١. لو صحّت الرواية، فالمراد هو أنّ شأن الأنبياء هو إيراث الإيمان والحكمة والعلم والسنّة لا المال، وهذا غير أنّه إذا ترك حصيراً أو إناء أو سجادة فهو ينتقل إلى الأُمّة لا إلى الأولاد، لِما قلنا من أنّ موقف هذه الرواية هو تفكيك شأن الأنبياء عن سائر الملوك وطلاّب الدنيا فهم يتركون الأموال المكدّسة والكنوز المتلئة، ويدلّ على ذلك ما روي عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا أرضاً ولا عقاراً ولا داراً ولكنّا نورث الإيمان والحكمة والعلم والسنّة». شرح نهج البلاغة:١٦/٢١٣.

ويؤيّد هذا المضمون ما رواه الكليني عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام): «إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وذاك أنّ الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً وإنّما أورثوا أحاديث من أحاديثهم....(الكافي:١/٣٢، برقم ٢، كتاب فضل العلم.)

كلّ ذلك يرشدنا إلى أنّ مصبّ الروايات هو مصبّ السلب النسبي وهو تبيين شأن الأنبياء عن غيرهم من أصحاب الدنيا لا أنّه، لا يورث مطلقاً حتى ما ملكه من الحوائج الأوّلية التي لا مناص للإنسان منها.

ثمّ إنّ هنا تأمُّلاً واضحاً في صحّة صدور الحديث عن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ لو كان في صدد الإخبار عن أنّ الأنبياء لا يورّثون المال، لأخبر(صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك من يرثه، أعني: ابنته فاطمة(عليها السلام)،ولَمَا تركها تبتلى بما ابتليت به في قصة

ميراثها من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وانصرافها من أبي بكر مغضبة متظلِّمة، فعدم إخبار بضعته الطاهرة بذلك، وإخبار غيرها، أمر لا ينسجم مع شأن النبوّة.

نقل ابن أبي الحديد عن كتاب السقيفة لأبي بكر الجوهري: أنّ فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله، وهما حينئذ يطلبان أرضه بفدك وسهمه بخيبر، فقال لهما أبو بكر: إنّي سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)يقول: «لا نورث، ما تركنا صدقة»، إنّما يأكل آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)من هذا المال، وإنّي والله لا أُغيّر أمراً رأيتُ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يَصنعه إلاّ صنعته. قال: فهجرته فاطمة فلم تكلّمه حتى ماتت. شرح نهج البلاغة:٢١٨/١٦. ورواه البخاري بإسناده عن عروة عن عائشة:٢٦٤/٤، برقم ٦٧٢٥ و ٦٧٢٦.

ثمّ لا شكّ أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ترك بيوتاً لأزواجه وهي ملك له ولكن بقيت في يد أزواجه دون أن تُصادَر، كما كان عند عليّ سيف رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وخاتمه وبعض ما يختص به، فلم يُطلب ولم يُصادَر، وهذا دليل على أنّ مصادرة فدك كانت ترتبط بقضية سياسية، ولذلك اختلفت سيرة الخلفاء بين ردّها إلى أولاد فاطمة وبين أخذها، يقول ابن أبي الحديد: ولمّا ولي الأمر معاوية بن أبي سفيان أقطع مروان بن الحكم ثلثها، وأقطع عمرو بن عثمان بن عفان ثلثها، وأقطع يزيد بن معاوية ثلثها، وذلك بعد موت الحسن بن علي(عليهما السلام)، فلم يزالوا يتداولونها حتّى خلصت كلّها لمروان بن الحكم أيام خلافته، فوهبها لعبد العزيز ابنه، فوهبها عبد العزيز لابنه عمر بن عبد العزيز.

فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كانت أوّل ظُلامة ردّها، دعا حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب(عليهم السلام) ـ وقيل: دعا علي بن الحسين(عليهما السلام)ـ فردّها إليه، وكانت بيد أولاد فاطمة(عليها السلام)مدّة ولاية عمر بن عبد العزيز، فلمّا ولي يزيد بن عاتكة قبضها منهم، وكان الأمر على هذا النحو إلى أيام العباسيّين.

وكان الأمر في عهد العباسيّين مثله أيام الأمويّين، فتارة كانت بيد الحاكم وأُخرى بيد أبناء فاطمة(عليها السلام)إلى أن جاء عصر المأمون فكتب إلى عامله على المدينة قثم بن جعفر الرسالة التالية:

أمّا بعد، فإنّ أمير المؤمنين بمكانه من دين الله، وخلافة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)والقرابة به أولى من استنّ سنّته، ونفذ أمره وسلم لمن منحه منحة وتصدق عليه بصدقة منحته وصدقته، وبالله توفيق أمير المؤمنين وعصمته، وإليه في العمل بما يقرّبه إليه رغبته، وقد كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أعطى فاطمة بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فدك وتصدّق بها عليها، وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولم تزل تدعى منه ما هو أولى به من صدق عليه، فرأى أمير المؤمنين أن يردّها إلى ورثتها ويسلّمها إليهم تقرّباً إلى الله تعالى بإقامة حقّه وعدله وإلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بتنفيذ أمره وصدقته، فأمر بإثبات ذلك في دواوينه والكتاب به إلى عمّاله، فلأن كان ينادى في كلّ موسم بعد أن قبض الله نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يذكر كلّ من كانت له صدقة أو هبة أو عدة ذلك فيقبل قوله وينفذ عِدته، أنّ فاطمة رضي الله عنها لأولى بأن يصدَّق قولها فيما جعل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لها، وقد كتب أمير المؤمنين إلى المبارك الطبري مولى أمير المؤمنين يأمره بردّ فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة إليها وما فيها من الرقيق والغَلاّت وغير ذلك وتسليمها إلى محمد بن يحي بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لتولية أمير المؤمنين إيّاهما القيام بها لأهلها، فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين وما ألهمه الله من طاعته ووفقه له من التقرب إليه وإلى رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) واعلمه من قبلك، وعامل محمد بن يحي ومحمد بن عبد الله بما كنت تعامل به المبارك الطبري، وأعنهما على ما فيه عمارتها ومصلحتها ووفور

غلاّتها إن شاء الله والسلام. وكتب يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة عشر ومائتين، فلمّا استخلف المتوكّل على الله أمر بردّها إلى ما كانت عليه قبل المأمون. فتوح البلدان للبلاذري:٤٦ـ ٤٧.

وبذلك تقف على صحّة ما في خطبة الزهراء(عليها السلام) حيث كانت تقول: «يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريّاً. أفعلى عمد تركتم كتاب الله فنبذتموه وراء ظهوركم و... وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا؟ أفخصّكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إنّ أهل ملّتين لا يتوارثان؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟ فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعمَ الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون».(. شرح نهج البلاغة:٢٥١/١٦؛ الاحتجاج للطبرسي:١٣٨/١.)

وللعالم المصري الشيخ محمود أبوريّة كلمة قيّمة في هذا الموضوع، يقول فيها:

بقي أمر لابدّ من أن نقول فيه كلمة صريحة، ذلك هو موقف أبي بكر من فاطمة بنت الرسول رضي الله عنها، وما فعل معها في ميراث أبيها، لأنّنا إذا سلّمنا بأنّ خبر الآحاد الظنّي يخصّص الكتاب القطعيّ، وأنّه قد ثبت أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قد قال إنّه لا يورث وإنّه لا تخصيص في عموم هذا الخبر، فإنّ أبا بكر كان يسعه أن يعطي فاطمة رضي الله عنها بعض تركة أبيها كأن يخصّها بفدك، وهذا من حقّه الذي لا يعارضه فيه أحد، إذ يجوز للخليفة أن يخصّ مَن شاء بما شاء، وقد خصّ هو نفسه الزبير بن العوام ومحمد بن مسلمة وغيرهما ببعض متروكات النبي، على أنّ فدك التي منعها أبو بكر من فاطمة لم تلبث أن أقطعها الخليفة عثمان لمروان. مجلة الرسالة، العدد٥١٨، السنة ١١، ص ٤٥٧.

ثمّ إنّ الكلام في المقام أوسع ممّا ذكرنا، وقد فصلنا الكلام فيه في كتابنا المؤلَّف باللغة الفارسية حول الإمام علي(عليه السلام).(لاحظ : فروغ ولايت.)

٢. العلم بمنطق الطير

وهذا هو الأمر الثاني من الأُمور الخمسة، وقد تقدّم أنّ داود وابنه سليمان(عليهما السلام) حمدوا الله على تفضيلهما على كثير من عباده المؤمنين، والغاية من ذلك هو التحدّث بنعم الله تعالى عليهما، لا التفاخر وحبّ الظهور، ومن هذه النّعم العلم بمنطق الطير(وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ)، فسليمان النبي أوّل من رفع الستر عن أنّ للطير لغة تتفاهم بها، كما خُصّ بمعجزة أُخرى وهي معرفة لغة النمل، كما ستوافيك.

إنّ من الأُمور الملموسة أنّ للطيور أصواتاً مختلفة فصوتها في مورد نداء الذكور لإناثها يختلف عن صوتها حينما يمسكها ماسك وهذا لا يختصّ بالطيور، فالقطط مثلاً لها أصوات كثيرة مختلفة كلٌّ يدلّ على مقصد من مقاصدها.

وممّا جاء في الموسوعة العربية العالمية حول أصوات الطيور: تتصل الطيور بعضها مع بعض بعدّة طرق مختلفة، أهمها الاتصال الصوتي من الحنجرة بوساطة النداء والتغريد. وتستخدم الطيور في الغالب نداءها كإشارات لطيور أُخرى، وتنادي صغار الطيور بإحدى الطرق لتخبر والديها أنّها جائعة، وبطريقة أُخرى لتخبرهما بأنّها جريحة أو خائفة، بينما يستخدم الطائر كامل النضج نداءً محدّداً ليميّز به شريكه، ونداءات أُخرى ليميّز بها كلّ مجموعة من الطيور، وقد تحذّر النداءات المجموعة من الخطر، ومثل هذا النداء عادة ما ينبّه أو يحذّر أكثر من نوع واحد من الطيور. ويبدو للأذن الإنسانية أن تغريد كل الطيور من أحد الأنواع، له الصوت نفسه، ولكن في الواقع يختلف صوت كل طائر عن صوت الطيور الأُخرى من النوع نفسه، وحتى في المستعمرات المزدحمة، يستطيع الوالدان ان يتعرّفا على صوت فراخهما، كما تستطيع الفراخ التعرّف على أصوات والديها. الموسوعة العربية العالمية:٣٨٦/١٥ـ٣٨٧.

النطق في التعارف على ما في مفردات الراغب: الأصوات المقطّعة التي يظهرها اللسان وتعيها الآذان، قال تعالى: (مَا لَكُمْ لاَ

تَنْطِقُونَ) الصافات: ٩٢. ولا يكاد يقال إلاّ للإنسان ولا يقال لغيره إلاّ على سبيل التّبع. مفردات الراغب: ٤٩٦، مادة «نطق».

إنّ القرآن يستعمل تلك اللفظة في معنى أوسع ممّا ذكره الراغب، قال تعالى:(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْء) فصلت:٢١.، ومنه قوله سبحانه في المقام: (عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ).

إنّما الكلام ما هو المراد من منطق الطير الذي علمهما الله سبحانه، إذ لا شكّ في أنّ لكلّ صنف أو نوع من الحيوانات أصواتاً ساذجة خاصة في حالاتها حسب تنوّع اجتماعاتها كحال الهياج للسفاد، وحال المغالبة، وحال الوحشة والفزع، وحال التضرّع أو الاستغاثة إلى غير ذلك، من غير فرق بين الطير وغيره، حسب ما مرّ.

ولكن منطق الطير الوارد في الآية غير ذلك بدليل أنّ قول سليمان يرشد إلى تخصيص معرفة منطق الطير لنفسه ولوالده، فلو أُريد هذه الأصوات المختلفة فهذا معلوم لكلّ إنسان، وعلى ذلك لابدّ أن يقال: إنّ لكلّ طير منطقاً خاصّاً تتفاهم به، وهذا هو الذي علمه سبحانه هذين النبيّين(عليهما السلام).

والذي يدلّ على ذلك حوار سليمان(عليه السلام) مع الهدهد وإخبار ذلك الطير عن قوم سبأ وأنّهم كانوا يعبدون الشمس وأنّ لملكتهم عرشاً عظيماً، وبعد ذلك كتب سليمان كتاباً إليهم وأمر الهدهد أن يلقيه إليهم ويأتي بالجواب، كلّ ذلك يدلّ على أنّ المراد المنطق الخاص الموجود بين الطيور الذي علّمه سبحانه داود وسليمان. وسيوافيك توضيح ذلك في كلام النملة.

وما ذكرناه هو المتبادر من الآية وقد أخبر عنه الوحي لكنّ الرازي لمّا استغرب أن يكون للطير منطق خاصّ يعلمه النبي دون غيره ذكر في المقام: إنّ الله تعالى جعل الطير في أيامه ممّا له عقل، وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وإن كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصّت بالحاجة إليها، أو خصّها الله بها لمنافع العباد كالنمل وغيره تفسير الرازي:١٨٧/٢٤.. وقد تبيّن ممّا ذكرنا عدم صحّته.

أضف إلى ذلك: أنّ سليمان يقول: (عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيرِ): أي الجنس منه، من غير فرق بين طيور أيامه وما قبله ومابعده. وسيوافيك توضيحه في تفسير الآيات التالية.

٣. إعطاؤهم كلّ شيء

قال: (وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْء) هذا هو الأمر الثالث الذي يحكي عن عناية الله سبحانه بنبيّه سليمان(عليه السلام)حيث أعطاه كلّ شيء، والقرينة تدلّ على أنّ المراد الكثرة لا الاستغراق، فمَن أُعطي له تسخير الجنّ والإنس والطيور والرياح وغيرها التي يتمكّن بها من بناء حضارة كبيرة غير مسبوقة، صحّ أن يقال في حقّه: أُوتي من كلّ شيء.

ثمّ إنّ وزان قوله :(وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْء) وزان ما جاء على لسان الهدهد واصفاً ملكة سبأ، حيث قال: (وَأُوتِيت مِنْ كُلِّ شَيْء) فالعموم في كلا المقامين للاستغراق العرفي، أي ما يحتاج إليه الحاكم في حكومته.

ثمّ إنّ سليمان صار في مقام التحدّث بنعم الله التي أُوتيها، حيث قال:

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ)، وربّما يتصوّر أنّه من كلامه سبحانه، ولكنّه بعيد عن السياق.

سورة النمل: الآيات ١٧ ـ ١٩ (وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ ... وَأَدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ).

الآيات: السابعة عشرة إلى التاسعة عشرة

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ).

المفردات

حُشر: الحَشْر: الجمع. وفي المفردات: إخراج الجماعة عن مقرِّهم وإزعاجُهم عنه إلى الحرب ونحوها... قال سبحانه: (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) الكهف:٤٧.. المفردات للراغب: ١١٩ ، مادة «حشر».

يوزعون: الوَزْع: الكفّ والمنع، فقوله:(فَهُمْ يُوزعون): أي يُمنعون من التفرّق والتشتّت، أو يوقفون ليلحق بأوّل الجيش آخرُه، فيكونون مجتمعين.

لا يَحْطمنَّكم: الحَطْم: كسر الشيء مثل الهشم ونحوه، والحُطام: الشيء اليابس بعد تكسّره.

جنوده: الجنود: جمع الجند، يقال للعسكر: الجند، اعتباراً بالغلظة من الجَندأي الأرض الغليظة التي فيها الحجارة، ثم يقال لكلّ مجتمع: جُند، قال تعالى: (إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) الصافات:١٧٣..

أوزعني: ألهِمْني، وتأويله في اللغة: كُفّني عن الأشياء إلاّ عن شكر نعمتك وكُفَّني عمّا يباعدني عنك، قاله الزّجّاج. لسان العرب: ٨ / ٣٩١، مادة «وزع».

التفسير

١٧.(وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ):

٤. استعراض الجنود وقول النملة

الآية تحكي عن الأمر الرابع من الأُمور الستة التي مضى ذكرها في صدر النَّصّ، وهو أنّ سليمان(عليه السلام)أحضر جنوده استعداداً للمسير إلى موضع معيّن، ولذلك يقول:(وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ) وأمّا الحاشر فالظاهر أنّه وزيره ومن يقوم ببعض الأُمور ولذلك جاء الفعل بصيغة المجهول، وأمّا صنوف جيشه فيقول عنهم سبحانه: (مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ) قدّم الجن على الإنس لأنّ تسخيره أمر عجيب، وقدّم الإنس على الطير مع أنّ تسخيرها عجيب لأجل التقابل بينهما، ولمّا كانت أعداد الجنود كثيرة أمر المتقدّم من الجيش أن يتوقّف حتى يلحقه المتأخّر كما يقول:(فَهُمْ يُوزَعُونَ): أي يُمنعون من التحرّك حتى يحصل النظم بأن يلحق بالأوائل من تأخّر منهم.

ويحتمل أن يراد من قوله: (يُوزَعُونَ): أي كونهم ممنوعين من التخلّف فيأتمرون بما أُمروا ويجتنبون عمّا نهوا عنه. وعلى كلّ تقدير فالآية تكشف عن دولة قوية ذات نظام صارم وقوّة عسكرية كبيرة لم يسبق أن تهيّأت لأحد من قبل سليمان(عليه السلام) ولا من بعده.

١٨. (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ):

هذا هو الأمر الخامس ـ أعني: عبوره وادي النمل ـ وقد تقدّم منّا أنّ قوله: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ) يدلّ على أنّه استعرض الجيش لغاية المسير إلى وجهة خاصّة، وآيتنا هذه تدلّ على أنّه سار بجيشه ووصل إلى مشارف وادي النمل كما يقول: (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ) دون أن يقول: (إلى واد النمل)، فيدلّ على أنّهم كانوا على مشارف الوادي ولم يدخلوه بعد، ويكشف عن ذلك ما أنذرت به النملة جماعتها، كما سيوافيك. والآية تدلّ على أنّ وادي النمل كان معروفاً آنذاك وإن عرض عليه الإبهام.

كان سليمان يسير بجيشه فبلغ سمعه قول نملة، كما يقول: (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ)وهذه الفقرة تدلّ على أُمور:

١. أنّ النملة نطقت بذلك وتكلّمت به. وعلى ما ذكرنا فلا مانع من أن يكون للنمل في عامة أقطار العالم ذلك المنطق لأنّ معرفتنا بحياتها وخصوصياتها قليلة.

ولمّا استبعد الرازي أن يكون لكلّ نملة ذلك الشعور قال: إنّ الله تعالى قادر على أن يخلق فيها العقل والنطق. تفسير الرازي:٢٤/١٨٧.
وقد عرفت أنّه خلاف ذلك وسيوافيك توضيحه.
٢. أنّ النملة مثل الحمامة والشاة يطلق على الذكر والأُنثى لأنّه اسم جنس، يقال: نملة ذكر ونملة أُنثى، كما يقال: حمامة ذكر وحمامة أنثى، فلفظها مؤنّث، ومعناه يحتمل الجنسين (ذكراً أو أُنثى)، فيمكن أن تؤنّث لأجل لفظها وإن كانت واقعة على ذكر، بل هذا هو الفصيح المستعمل. وعلى هذا فقوله تعالى:(قَالَتْ نَمْلَةٌ) روعي فيه تأنيث اللفظ، وأمّا المعنى فيحتمل على حدّ سواء. انظر: إعراب القرآن وبيانه:٧/١٧٨.
٣. دعت النملة قومها إلى الدخول إلى مساكنهم كما قال: (ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ) وبيّنت السبب لهذا الأمر بقولها: (لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ)لأنّ النّمل لصغره لا يكاد يُشاهد ولا يُرى، فيحطّم بحوافر الدوابّ وأقدام المشاة.
ثمّ إنّها أخبرت النّمل بأنّهم سيقومون بتحطيمهم من دون قصد منهم، كما قالت:(وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ).
وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الجيش قد بلغ من التقوى مرتبة، تحجزه حتى عن قتل الحشرات بلا سبب ولا مجوّز.
وموقفنا في إخبار النملة كموقفنا في منطق الطير، وهو أنّ للنمل في كلّ عصر تلك القابليات والمواهب، ولكن نحن لا ندركها على وجه التفصيل، ولا نعرف الكثير من أسرارها، خلافاً لما ذهب إليه الرازي.
يقول الشيخ الطوسي: إنّه لا يمتنع أن تعرف البهيمة هذا الضرب من الأُمور، كما تعرف كثيراً مما فيه نفعها وضرّها، فمن معرفة النملة أنّها تكسر الحبّة بقطعتين لئلا تنبت إلاّ الكزبرة الكُزْبَرَة: عُشبة حولية تنمو في بلدان حوض البحر المتوسط، لها أزهار بيضاء، ولبذورها الناضجة رائحة عطرة ومذاقها حلو عندما تجفّف.، فإنّها تكسرها بأربع قطع لأنّها تنبت إذا كسرت بقطعتين، فمن هداها إلى هذا، هو الذي يهديها إلى ما يحطمها ممّا لا يحطمها. التبيان:٥/٨٤ـ٨٥ .
ونحن نجد أنّ البحوث العلمية قد كشفت عن وجود شعور عند النمل على نحو يثير الحيرة، كما أنّ ذكاء الحيوانات ومهارتها في أعمالها أمر لا يخفى على أكثر الناس، فهي تدّخر لشتائها في صيفها، وتبني بيوتاً تناسب حياتها، وهي تعرفها من بعيد، وربما تقطع طريقاً طويلاً ثم ترجع إلى نفس مكانها السابق، كما قد تتنبّأ بالحوادث المستقبلية، كلّ ذلك يثبت أنّ في عالم الحيوان مجاهيل كثيرة لا يعرفها البشر، وليكن منها قول النملة لجماعتها وسماع سليمان كلامها.
وقد أشار الإمام علي(عليه السلام) إلى فهمها وشعورها بوجه بليغ، فقال: «انْظُرُوا إِلَى الَّنمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لاَ تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلاَ بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وِرْدِهَا لِصَدرِهَا. مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا؛ لاَ يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ، وَلاَ يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ! وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، فِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً! فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلاَلَةُ إِلاَّ عَلَى أَنَّ فَاطِرَ الَّنمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ». نهج البلاغة: الخطبة ١٨٥.
١٩.(فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ):
الآية تتضمّن أُموراً:
١. أنّ سليمان تبسّم شارعاً في الضحك، أي تجاوز من التبسم إلى الضحك، وأمّا وجه إعجابه وتبسّمه، فهنا احتمالان:

أ. ابتهاجه بما وهبه الله من نعم جزيلة، ومنها إدراك كلام النملة وفهم غرضها.

ب. سروره بمعرفة النملة به(عليه السلام) وبجنده، وثنائها عليهم بالعدل والرحمة كما يدلّ على ذلك قولها: (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ).

كلّ ذلك صار سبباً للتبسّم المنتهي إلى الضحك.

٢. أنّ سليمان استشعر أنّ له وظيفة خاصّة أمام هذه النّعم، فطلب من الله سبحانه أُموراً ثلاثة تتدرّج من الأدنى إلى الأرفع، وهي:

الأوّل: سأل الله سبحانه أن يوفّقه لشكر نعمته (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ) وقد عطف والديه على نفسه ؛ لأنّ الإنعام عليهما كان إنعاماً على سليمان بوجه، لأنّه ورث ما لأبيه (داود) من المُلك والمال، وأمّا الأُمّ فقد كان لها دور في تربيته وتنشئته على الإيمان والاستقامة والصلاح.

وهذه الفقرة تدلّ على أنّ أُمّه كانت مؤمنة صالحة ولذلك يدعو الله لها.

وأمّا العهد القديم فيذكر في حقّ والده ما يندى له الجبين، وحاصل ما جاء فيه هو أنّ داود عشق امرأة جميلة كانت زوجة لأحد جنوده، ولأجل ذلك أرسل داود رسالة إلى قائد جيشه يأمره فيها أن يجعل زوجها في مقدّم الجيوش ليقتل ففعل ذلك فقتل، فلمّا سمعت امرأة أُوريّا أنّه قد مات أُوريّا رجلُها، ندبت بعلها، ولمّا مضت المناحة أرسل داود وضمّها إلى بيته وصارت امرأة له وولدت له ابناً، وأمّا الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الربّ». لاحظ: العهد القديم، صموئيل الثاني، الإصحاح الحادي عشر، ص: ٤٩٧ـ ٤٩٩، طبعة دار الكتاب المقدس.

الثاني: طلب سليمان من الله سبحانه أن يوفّقه للعمل الصالح أي ما يفيد نفسه وأُمّته في الدنيا والآخرة. ومن المعلوم أنّ المطلوب الثاني أرفع شأناً لأنّ الشكر يتحقّق باللسان أيضاً ولكن المطلوب الثاني لا يتحقّق إلاّ ببذل الجهد والقيام بالعمل الصالح، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ ملك سليمان كان ذريعة ومقدّمة للعمل الصالح لا للتفاخر والتكاثر، وقد كتب الإمام علي(عليه السلام) إلى بعض عمّاله: «وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَة وَلكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ». نهج البلاغة: الكتب والرسائل، برقم ٥.

الثالث: طلب صلاح الذات وصلاح النفس الذي هو أرفع قدراً من صلاح العمل، وأنَ صلاح العمل ينشأ من صلاح الذات، والدخول في عباد الله الصالحين يجعله من مصاديق قوله سبحانه:(وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) . النساء:٦٩..

سورة النمل: الآيات ٢٠ ـ ٢٦ (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرى الْهُدْهُد ... رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).

الآيات: العشرون إلى السادسة والعشرين

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَان مُبِين * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيد فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأ بِنَبَإ يَقِين * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْء وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ * أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).

المفردات

تفقّد: قال الراغب: التفقّد: التعهّد، لكن حقيقة التفقّد تعرّف فقدان الشيء، والتعهّد تعرّف العهد المتقدّم. مفردات الراغب: ٣٨٣ ، مادة: «فقد».

الهدهد: طائر معروف وجمعه هداهد. وهو طائر أصفر ـ ورديّ اللون، له تاج رائع من الريش على رأسه، وخطوط سوداء وبيضاء على جناحيه وذيله.(الموسوعة العربية العالمية: ٢٦/٩٣.)

سبأ: أرض في اليمن مدينتها مأرب بينها وبين صنعاء مسافة تقدّر بنحو ١٧٣ كيلومتراً. معجم البلدان:٤١٣/٣؛ معجم بلدان اليمن وقبائلها:٤١٣/٣.يقول العرب: تفرقوا كأيادي سبأ، وذلك لأنّ سيل العرم فرّق أهل هذه الأرض في البلاد وصارت كلّ طائفة منهم إلى جهة فضرب العرب بهم المثل فقيل: ذهب القوم أيادي سبأ، أي متفرّقين. ويطلق سبأ ويراد به تارة المكان كما في الآية وقد يراد به القوم كما في قوله:(لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ). سبأ: ١٥. الخبء: يقال لكلّ مدّخر مستور.
التفسير
٢٠. (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ): هذا هو الأمر السادس وذلك لما حُشر لسليمان جنوده فلم ير فيهم الهدهد، وهذا يعرب عن أنّه كان طيراً واحداً من هذا الجنس، (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ)فلم ير بينها الهدهد (فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرى الْهُدْهُدَ) وهذا يدلّ على دقّة نظر سليمان حيث إنّه بنظرة واحدة إلى الجيش الكبير المحتشد لم ير طيراً واحداً هو الهدهد. وبما ذكرنا لا حاجة إلى ما ذكره المفسّرون من سبب تفقّده، حيث ذكروا هناك وجوهاً ثلاثة: ١. أخلّ بالنوبة التي كان ينوبها ولذلك تفقّده. ٢. تفقّده لأنّ مقاييس الماء كانت إليه وكان يعرف الفصل بين قريبه وبعيده، فلحاجة سليمان إلى ذلك طلبه وتفقّده. ٣. أنّه كان يظلّله من الشمس فلمّا فقد ذلك تفقّده. تفسير الرازي:١٨٩/٢٤. وما ذكره وجوه لا دليل عليها. ثمّ إنّ قوله: (مَا لِيَ لاَ أَرى الْهُدْهُدَ)يشير إلى أنّه لمّا نظر لم يرَ الهدهد، ولكنّه لم يجزم بعدم وجوده، بل أورد على نفسه الشكّ في ذلك، فيُحتمل أنّه موجود، وهو لا يراه، ويُحتمل أنّه غائب:(أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)، وهذا هو شأن المؤمن المتثبّت الذي لا يعجل في إصدار الأحكام. ثمّ لمّا تبيّن له أنّه غائب توعّده ـ إن كان غيابه بلا عذر ـ بإحدى العقوبتين التاليتين (على حسب جريمته): ٢١. (لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ): والآية تدلّ على عدل سليمان وأنّه ليس من الملوك الجبابرة الذين يعاقبون الرعيّة بالظِّنّة والتخمين، ولذلك احتمل أوّلاً أنّه موجود وهو لا يراه، ثم أضرب عنه باحتمال أنّه من الغائبين، وعلى ذلك فلو كان قد غاب بلا عذر فيحكم عليه بأحد أمرين: ١. (لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا) والله يعلم ما أراد من التعذيب الشديد، وهل المراد إيداعه في القفص، أو التفريق بينه وبين إلفه، أو غير ذلك ممّا ذُكر في بعض التفاسير، ولا دليل على أيٍّ منها؟ ٢. (أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ): أي أقتله. وإنْ كان غيابه بسبب مقبول فلا شيء عليه، كما يقول: (أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ): أي بحجّة واضحة تسوّغ غيابه، وفيها نجاته وخلاصه. ٢٢. (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ): لم يمض وقت طويل على تفكير سليمان(عليه السلام) في أمر الهدهد بين الأُمور الثلاثة، حتى حضر الهدهد ملقياً إليه بنبأ عظيم غيّر تفكيره كما يقول: (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ) كناية عن قصر المدّة (فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ)فقد تكلّم مع سليمان دون أن يصفه بما يوصف به الملوك والسلاطين، بل خاطبه بأمر عجيب، وهو أنّه يعلم بشيء لم يعلم به سليمان، و قال: (أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ)من معلومات، وفيه دلالة على أنّ أضعف مخلوقات الله تعالى ربّما يطّلع على شيء لم يُطلع عليه نبيّه، وهذا لا يورث شيناً

في النبوّة.

ثمّ إنّ الهدهد أكّد ما اطّلع عليه بقوله: (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ): أي أرض سبأ (بِنَبَإٍ يَقِين) ليس فيه أي شبهة وريب.

واستخدم كلمة نبأ دون الخبر للدلالة على عظمته، فإنّ الخبر لا يدلّ على عظمة المخبر به، كما أنّ مجيء لفظ (نبأ) بعد لفظ (سبأ)، وهما متجانسان، زاد الكلام حُسناً ورقّة.

٢٣ و ٢٤. (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ *وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ):

لمّا أخبر الهدهد سليمان أنّه أتى بنبأ عظيم صار ذلك سبباً لانتباه سليمان وإصغائه لقوله، فذكر أوصاف قوم في أرض سبأ ضمن أُمور:

١. (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ): أي تحكمهم، واسم هذه المرأة ـ كما يقول المؤرّخون ـ بلقيس بنت شراحيل، وكان أبوها ملك أرض اليمن، وكانت هي وقومها وثنيّين. والضمير في قوله: (تَمْلِكُهُمْ)يرجع إلى سبأ وأُريد به القوم، وقد مرّ في المفردات أنّ لفظ سبأ تارة يطلق على الأرض وأُخرى على القوم.

٢. (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) ممّا لا تقوم الحكومة إلاّ به، من المال والسلاح والجيش، وقد مرّ أنّ قوله: (كُلِّ شَيْءٍ) هنا مثل قول سليمان:(وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) وليست المقابلة دليلاً على أنّ ملكة سبأ تملك النبوّة أيضاً، لِما مرّ من أنّ المراد ما يُعتبر في قوام الحكومة.

٣. (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) وهو السرير الذي تستقرّ عليه، وحوله الوزراء لتدبير أُمور البلد. ولعلّ العظمة ترجع إلى ضخامته وما رصّع به من الجواهر.

٤. أنّهم من الوثنيّين الذين يعبدون الشمس كما قال:(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ)، فهو يُنكر عليهم شركهم. وفيه تعزيز لإرادة سليمان لأن يغزوهم، لأنّ الوثنية أمر غير مقبول في حياة الأنبياء. وهذا لا ينافي قوله سبحانه: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) البقرة:٢٥٦. لأنّ الوثنية ليست ديناً، وإنّما الدين ما يقوم على أساس التوحيد.

٥. (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) حيث استرسلوا مع أهوائهم في ارتكاب قبائح الأعمال، وزيّنها لهم الشيطان فاغترّوا به وتمادوا في اجتراحها، فركب بهم الزلّل وصرَفهم ـ باتّباعهم له ـ عن طريق الحق وإخلاص العبادة لله، كما قال:(فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ). وبذلك يُعلم معنى قوله بعد ذلك (فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ): أي ماداموا منقادين لإغواء الشيطان فلا يهتدون السبيل.

٢٥.(أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ):

الظاهر أنّ هذا من كلام الهدهد، ويحتمل أن يكون كلاماً مستقلاً للتعريض بالمشركين.

كما أنّ قوله: (أَلاَّ) بمعنى هلاّ، وهي كلمة تحضيض، يقول ابن مالك:

وبهما(لولا ولوما) التَّحضيضَ مِزْ وهَلاّ *** ألاّ ألا وأوْلِيَنْهَـا الْفِعْـلا

ووجه الحضّ على الانصراف عن عبادة الشمس إلى عبادة الله، هو أنّهم يعظّمون الشمس بما لها من الخيرات، فالله سبحانه أَولى بأن يُعبد لأنّه هو الذي يُخرج الأشياء والقوى والطاقات الكامنة في هذا الكون، كما قال:

(أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ): أي كلّ مخبوء ومستور في السماوات والأرض كالمطر والنبات والمعادن وغيرها (وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)فالفقرة الأُولى: (يُخْرِجُ الْخَبْءَ) إشارة إلى سعة قدرته، وهذه الفقرة إشارة إلى سعة علمه. ثم ختم كلامه بقوله:

٢٦.(اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ):

وكأنّ الآية بصدد بيان خلاصة كلامه وأنّه لابدّ من رفض عبادة الشمس والتوجّه إلى عبادة الإله الموصوف بوصفين:

١. (اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) فإنّ العبادة من خصائص الإله وليس إلاّ هو، وأمّا الشمس فليس إلهاً بل مخلوقاً.

٢. (رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) فعرش تدبيره أعظم بكثير من عرش ملكة سبأ، حيث صحيفة الوجود عرش الرحمن .

إلى هنا تمّ حوار الهدهد مع سليمان(عليه السلام)، ولمّا كان سليمان من الأنبياء العظام لم يتّخذ من كلام الهدهد موقفاً سلبياً ولا إيجابياً بل وضعه في بقعة الاحتمال ؛ لأنّ لكلّ من الطرفين لوازم خاصّة، فلا يمكن الأخذ به بلا دليل ولا برهان.

ثمّ إنّ هنا سؤالاً، وهو أنّ سليمان(عليه السلام) كان في الشام فكيف طار الهدهد في تلك اللحظة من الشام إلى اليمن ثم رجع إليه؟

والجواب: أنّ السائل فرض أمراً لم يثبت، وهو أنّ سليمان كان في الشام، بل الآية تذكر أنّه كان على مشارف وادي النمل وهو لم يتبيّن بعد، ولعلّه كان في أرض الحجاز.

ثمّ إنّ قوله: كيف رجع في تلك اللحظة إليه؟ أمر غير صحيح إذ ليس في الآية ما يشير إلى أنّه رجع في تلك اللحظة بل يحتمل أنّه كان غائباً مدّة مديدة قبل استعراض الجنود، فإنّما وصل إليه بعد أيام قضاها في السفر ذهاباً وإياباً.

وهذا أمر غير بعيد.

ثمّ إنّ قسماً من الطيور في الزمان الحاضر تقطن قرب قطبي الأرض الشمالي والجنوبي، ثم تهاجر من الشمال إلى الجنوب في الشتاء وفي الصيف بالعكس، كلّ ذلك نراه بأُمّ أعيننا.

سورة النمل: الآيات ٢٧ ـ ٣٧ (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ... أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ).

الآيات: السابعة والعشرون إلى السابعة والثلاثين

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اِذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ *قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّة وَأُولُو بَأْس شَدِيد وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّة فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَال فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُود لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ).

المفردات

فألقه: اللقاء: مقابلة الشيء ومصادفته معاً. وأمّا الإلقاء فهو بمعنى الطرح، يقول سبحانه: (قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا) طه: ١٩ـ٢٠ .

تولّ: إذا عُدّي«التولّي» بـ «عن» لفظاً كما في الآية، أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض وترك قربه، يقول سبحانه: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ).(آل عمران: ٦٣ .)

الملأ: الأشراف من الناس، وربما يفسر بالرؤساء.

أفتوني: الفتوى والفتيا: الجواب فيما يُشكل، يقال: استفتيته فأفتاني بكذا. يقول سبحانه: (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ). النساء: ١٢٧.

بأس: البأس: الشدّة والشجاعة في الحرب.

التفسير

٢٧. (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ):

لمّا أخبر الهدهد عن إحاطته بشيء لم يحط به سليمان(عليه السلام) وأنّه جاء من سبأ بنبأ يقين، صار ذلك مبدأً في تحقيق إخباره ولذلك قال: (سَنَنْظُرُ): أي نفكّر فيما ادّعيت (أَصَدَقْتَ) قدّم احتمال الصدق على ضدّه تقليلاً لروع الهدهد، مضافاً إلى أنّ مقتضى الأدب هو تقديم التكريم على التكذيب، (أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) ولم يقل: أكذبت، بل نسب احتمال كونه كاذباً إلى الماضي، يقول الطبرسي: هذا ألطف وألين في الخطاب من أن يقول: أم كذبت. مجمع البيان:٤٠٢/٧.

٢٨. (اِذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ):

يتّبع القرآن عند سرد القصص أُسلوب التلخيص فلا يتعرّض لذكر ما يُعلم من القرائن، ولذلك ترى في سرده هذه القصة يوجز في أكثر مواردها، ولا يتمّ الكلام فيه إلاّ بضمّ ما يُعلم من القرائن إليه، ففي المقام حُذف ما يُعلم، وهو أنّ سليمان كتب كتاباً وختمه بخاتمه وأمر الهدهد بحمله إلى سبأ: (اِذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ)اتّفق المفسّرون على أنّ الهاء في (أَلْقِهِ)هاء السكت وليس ضمير المفعول، ومع أنّ المخاطب بالكتاب كان هو الملكة، ولكنّ سليمان(عليه السلام) قال:(أَلْقِهْ إِلَيْهِمْ) لإشراك الجميع في الدعوة إلى التسليم. وبما أنّ الغاية من إرسال الكتاب إليهم هو الاطّلاع على ما يتّخذونه من موقف أمام مضمون الكتاب، فلذلك أمر سليمان الهدهد بقوله: (ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ): أي ابتعد عنهم ولا ترجع حتى تقف على موقفهم كما يقول: (فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ): أي ماذا يردّون من الجواب. والظاهر أنّ

سياق الآية سياق تامّ دون أن يكون فيه تقديم وتأخير، حيث أمر سليمان الهدهد بالتولّي عنهم والابتعاد قليلاً حتى ينظر ما هو ردّ فعلهم ممّا جاء في الكتاب.

وربّما يقال إنّ في الآية تقديماً وتأخيراً، وتقدير الآية: فانظر ماذا يرجعون ثم تولّ عنهم.

يلاحظ عليه: بأنّه لو كان هذا هو المراد للزم أن يقول: ثمّ ارجع إلينا، دون أن يقول: ثم تولّ عنهم.

٢٩. (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ):

قلنا: إنّ القرآن يتبع عند سرد القصص أُسلوب التلخيص وهنا أيضاً كذلك، فسياق الكلام يدلّ على أنّ الهدهد حمل الكتاب وطار به إلى مملكة سبأ، فألقاه إلى الملكة (بلقيس)، فلمّا قرأته: (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ): أي قالت الملكة مخاطبة لأهل مجلسها بقولها(يَا أَيُّهَا الْمَلأُ): أي أشراف قومي (إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ)سُلّم إليّ(كِتَابٌ كَرِيمٌ) وذيل الآية يدلّ على أمرين:

الأوّل: أنّ الكتاب سُلّم إلى الملكة دون حضور أعيان مملكتها ورجال دولتها وإلاّ ما خاطبتهم بقولها:(أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ)، لأنّهم على هذا الفرض قد رأوا استلامها للكتاب.

الثاني: أنّها وصفت الكتاب بالكريم.

إنّما الكلام ما هو المراد بكونه كريماً نفيساً، نظير قوله سبحانه:(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) الأنفال:٧٤. وما ذلك إلاّ لأنّ سليمان ابتدأ رسالته بالبسملة (باسم الله) ثمّ وصفه بوصفين (الرحمن الرحيم)، وهذا هو الذي دعاها إلى وصف الكتاب بأنّه كريم.

وربما يقال: بأنّ الكتاب بأناقته وخطّه وختمه يعدّ من نفيس ما يرسله الملوك من كتب، ولذلك صار سبباً لوصفه بالكريم.

والوجه الأوّل هو الذي ذكره الطبرسي، وأمّا الوجه الثاني أي حسن خطّه وجودة بيانه فنسبه إلى القيل.(مجمع البيان: ٧ / ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .)

٣٠ و ٣١. (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ):

الظاهر أنّ الملكة ابتدأت كلامها بقولها:(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ) وذلك لأنّها فتحت الكتاب وعرفت الكاتب من خاتمه. وربّما يقال: إنّه جواب عن سؤال مقدّر، حيث سأل بعض الأشراف بقوله: ممّن الكتاب؟ فأجابت بقولها: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ).

يلاحظ عليه: أنّ لازم ذلك أن تقول (إِنَّهُ بِسْمِ اللهِ) دون أن تقول: (وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ).

ثمّ الظاهر أنّ الكتاب منقول بالمعنى، والشاهد عليه هو أنّه ابتدأ الكتاب بعد البسملة بقوله: (أَلاَّ تَعْلُوا) وهي كلمتان «أن» المصدرية الناصبة و «لا» الناهية فأُدغمت النون في اللام فصارت ألاّ. ومن المعلوم أنّ الكتاب لا يبتدئ بهذا النحو، بل يقال: «لا تعلُوا».

قال الزمخشري: إنّ نسخة الكتاب كانت هكذا: من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: السلام على من اتّبع الهدى. أمّا بعد (أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُوني مُسْلِمِينَ).

وعلى كلّ تقدير، فالكتاب أفضل دليل على أنّه ينبغي للكاتب أن لا يطيل الكلام ولا يُسهب فيه، بل يختصر بما يؤدي المقال.

وعلى كلّ حال، فالكتاب كان مشتملاً على ثلاثة أُمور:

١. البسملة كما قال: (بِسْمِ الله الرّحمن الرّحيم).

٢. (أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيّ): أي لا تترفعوا ولا تتكبّروا عليّ.

٣. (وَأْتُوني مُسْلِمِينَ): أي منقادين طائعين لأمري فيما أدعوكم. ولا تذهب نفسك أنّ النبي سليمان(عليه السلام) أمرهم بالخضوع والانقياد لنفسه بما أنّه ملك وذو سلطة، بل الغاية من النهي عن التكبّر هو إطاعتهم له حتى ينسلكوا في عداد الموحّدين وعباد الله المؤمنين، ولذلك أكّده بقوله: (وَأْتُوني مُسْلِمِينَ): أي مستسلمين.

ومن الطبيعي أنّ مثل هذا النوع من الخطاب الحازم الشديد اللهجة إذا وجّه إلى رئيس البلد ومن حوله من الملأ وهم ذوو قوة وقدرة، يكون كوقع الصاعقة عليهم، ولذلك بدأت الملكة بالحوار معهم لأنّ الجميع أحسّوا بالخطر القريب، فخاطبتهم:

٣٢. (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُوني فِي أَمْري مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ):

تحكي الآية عن أنّ الملكة كانت امرأة عارفة بكيفية إدارة المُلك، وأنّه لا يقوم على أساس الاستبداد ورفض آراء الآخرين، ولذلك: (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ) لتسترشد بآرائهم في الموضوع الذي أشارت إليه بقولها: (أَفْتُوني فِي أَمْري) وهذا يعني أنّها واجهت أمراً مشكلاً، لأنّ كلمة الاستفتاء تستعمل في أمر مُشكل لا يرتفع إلاّ بالتدبّر والتعقّل.

ثمّ أضافته إلى نفسها وقالت: (أَمْري) لأنّها هي الأميرة والمسؤولة عن أُمور البلاد المهمّة.

وفي النهاية قالت: (مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا): أي لا أقضي في المهمّات أمراً إلاّ بالاستشارة (حَتَّى تَشْهَدُونِ): أي تحضرون، وهي كناية عن المشاورة وتبادل الآراء والأفكار. والآية تدلّ على أنّ للشورى جذوراً في الأُمم المتحضّرة السابقة.

قال الشريف الرضي: قوله: (قَاطِعَةً أَمْرًا) استعارة والمراد بقطع الأمر ـ والله أعلم ـ الرجوع بعد إجالة الآراء ومخض الأقوال إلى رأي واحد يصحّ العزم على فعله والعمل عليه دون غيره، تشبيهاً بالإسداء والإلحام أسدى الثوب، أقام سَداه، وهو ما مُدّت خيوطه طولاً. وألحم الثوب: مدّ خيوطه عرضاً. في الثوب النسيج، ثمّ القطع له بعد الفراغ منه، فكأنّها أجالت الرأي عند ورود ما ورد عليها من دعاء سليمان(عليه السلام) لها إلى الإيمان به والاتّباع له. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٧٠ـ ١٧١.

وسياق الآيات يحكي عن أنّه كان لها رأي خاص كتمته عن الملأ وما أبدته إلاّ بعد ما وقفت على آرائهم كما يقول سبحانه:

٣٣.(قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّة وَأُولُوا بَأْس شَدِيد وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُري مَاذَا تَأْمُرِينَ):

اتّخذ الملأ موقفاً واحداً أعربوا فيه عن قدرتهم على مواجهة هذا الخطر الذي يتهدّد مملكتهم، واعتمدوا في ذلك على أمرين، كما حكاهما عنهم سبحانه بقوله:

١. (قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّة) ذوو سلاح فتّاك وقتّال وجيش جرّار.

٢. (وَأُولُوا بَأْس شَدِيد) أصحاب شدّة في الحرب وشجاعة في منازلة العدو.

لقد أظهروا بهذين الأمرين: (سلاح وجيش، وشدّة على العدو)، استعدادهم للحرب والدفاع عن البلد، ومع ذلك احترموا مقام الملكة، وقالوا:(وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) وهذا هو الرسم الدارج في البلاد التي لا يكون فيها الحاكم مستبدّاً، ذا سلطة مطلقة في إصدار القرارات، وإنّما يُشارك في تبادل الرأي فيها الوزراء والمستشارون، ولكنّهم يفوّضون الأمر في النهاية إلى الحاكم، ليتّخذ فيه القرار المناسب.

وهذا النوع من الاستشارة لا بأس به بشرط أن يختار المستشير أحسن الآراء وأفضلها، وهذا هو الظاهر من القرآن الكريم حيث يقول: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) آل عمران:١٥٩، حيث إنّه سبحانه يأمر نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) بالمشاورة، ولكن يجعل القرار النهائي بيده(صلى الله عليه وآله وسلم).

٣٤. (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ):

الآية تحكي عن أنّ الملكة كانت ترجّح جانب السّلم على جانب الحرب الذي يوحي به رأي الملأ، وذلك لأنّ الحرب لا تنتج إلاّ الخراب والدمار والهوان، من غير فرق بين أن يكون المنتصر هو سليمان أو أهل سبأ، فإذا أمكن حلّ العقدة بالطريق السّلمي، فهو أَولى من حلّها بالسلاح وإراقة الدماء، وهذا يحكي عن كمال عقلها وحُسن تدبيرها، كما (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا): أي احتلّوا (قَرْيَةً): أي بلداً (أَفْسَدُوهَا): أي دمّروا ما فيها من عمران (وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً)، ولم تقل: ويذلّونهم؛ لأنّ الأوّل آكد في الدلالة على تحقّق الذلّة حيث يدلّ على تلبّسهم بصفة الذلّة، فاستدلّت بما وقفت عليه من أحوال الملوك، على أنّه لو كانت هناك حرب لترتّب عليها كلا الأمرين، ويُحتمل خمسون بالمئة أن يكون سليمان هو المنتصر ونحن المغلوبون، وكأنّ من طبيعة الملوك الاستبداد والتخلّي عن الأخلاق والمُثُل، حيث لا يرى المَلك إلاّ شيئاً واحداً وهو أنّ العالم خُلق له وهو سيّد العالم والناس كلّهم مملوكون له، ومعلوم أنّ الرئاسة والإدارة بهذه الفكرة لا تنتج إلاّ فساد البلاد، وذلّة العباد.

ثمّ إنّ قولها:(وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) استدلال على أنّ هذه الطبيعة أمر مستمر في الحال والمستقبل ولا يختصّ بالأزمنة الغابرة.

٣٥. (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّة فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ):

المفهوم من الآية السابقة أنّ الملكة ـ كما قلنا ـ جنحت إلى جانب السّلم ولكنّها لم تختره في بدء الأمر بل قدّمت عليه شيئاً آخر وهو اختبار سليمان بإرسال الهدايا الغالية، فإن رفض تلك الهدايا ولم يعتدّ بها وأصرّ على موقفه فليس هو ملكاً بل هو نبي من أنبياء الله ؛ وذلك لأنّ هذه سيرتهم حيث إنّ الدنيا وما فيها حقيرة في نظرهم، ولا يساومون على عقيدتهم ويضحّون من أجلها بكلّ عزيز ونفيس، ومثلهم لا تجوز محاربتهم وتصعب مقاومتهم. وأمّا إذا ما قبل فيُعلم أنّه ملك من الملوك، ومثل هذا يمكن إرشاؤه بها ودفع شرّه عن البلد.

وهذا هو المفهوم من الآية، حيث قال: (وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ) إلى سليمان وضمير الجمع إمّا للتعظيم، أو المراد سليمان ومن حوله من الوزراء (فَنَاظِرَةٌ): أي مترقّبة ومنتظرة(بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)حتى أقوم وفق ما رجعوا به.

وقولها: (المُرسَلُون) يدلّ على أنّ الملكة بعثت إلى سليمان(عليه السلام) وفداً يحمل معه تلك الهدايا.

٣٦. (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَال فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ):

اتّبع القرآن أيضاً ـ كما تقدّم ـ أُسلوب التلخيص في سرد القصّة وترك ما يُعلم من القرائن، وهو أنّ الملكة أوفدت وفداً وجهّزتهم بالغالي من الهدايا وبعثتهم إلى سليمان(عليه السلام)، فلمّا قاموا بين يديه(عليه السلام)وقدّموا إليه الهدايا الغالية، خاطبهم بلهجة شديدة كما يقول:(فَلَمَّا جَاءَ): أي الوفد إلى (سُلَيْمانَ قَالَ)سليمان لرسول الملكة منكراً عليهم هذا الفعل بقوله: (أَتُمِدُّونَنِ بِمَال فَمَا آتَانِيَ اللهُ)من النعم الجزيلة (خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ)فلا أتطلّع إلى هذا المال الزائل الذي لا قدْر له عندي. ثمّ قال موبّخاً لهم على

سرورهم بهديتهم لاستعظامهم لها وإعجابهم بها (بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ)، والآية تحكي عن أنّه ردّ الهدايا ولم يقبل شيئاً منها، بل لم يقتصر على ذلك وإنّما توعّدهم وهدّدهم بأنّه سيغزوهم بجيش لا طاقة لهم به.

٣٧. (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ):

قوله:(ارْجِعْ إِلَيْهِمْ) الخطاب لرئيس الوفد، أي ارجع إليهم بهديّتهم وأخبرهم (فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ): أي لا طاقة (لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا)من بلادهم (أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) مُهانون.

ثمّ إنّ القرآن طوى ذيل القصّة وهو أنّ الرسول رجع بالهدية إلى ملكة سبأ وأخبرها بتهديد سليمان بمهاجمتهم إن لم يأتوا إليه مستلسمين طائعين، وعندئذ لم تجد الملكة أمامها إلاّ أن تستجيب للأمر فارتحلت إليه مع خاصّتها وكبراء قومها، وبلغ خبرها سليمان(عليه السلام). وتشهد على ذلك المجموعة التالية من الآيات.

سورة النمل: الآيات ٣٨ ـ ٤٤ (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا... وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

الآيات: الثامنة والثلاثون إلى الرابعة والأربعين

(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ *وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

المفردات

عفريت: العِفْريت: النافذ في الأمر مع دهاء.

أن تقوم من مقامك: بما أنّه يطلب ذلك مخاطباً للملأ فيكون المراد: قبل انفضاض المجلس.

قبل أن يرتد إليك طرفك: قال الشريف الرضي: المراد بارتداد الطرف هاهنا التقاء الجفنين بعد افتراقهما، وذلك أبلغ ما يوصف به في السرعة، وكأنّ انفتاح الجفنين قائم مقام الخروج، والانطباق مقام الرجوع. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٧١.

نكّروا لها: تنكير الشيء: جعله بحيث لا يُعرف.

صدّها: الصدّ: الحيلولة بين الشيئين.

الصرح: بيت عال كقوله: (يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا)،(غافر:٣٦.) وربّما يطلق على الموضع المنكشف من غير سقف كصحن الدار.

لُجّة: لجّة البحر تردّد أمواجه، ولجّة الليل تردّد ظلامه، قال تعالى: (فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ) . النور:٤٠.

مُمرّد: أي أملس، من قولهم: شجرة مرداء إذا لم يكن عليها ورق.

قوارير: القوارير: الزجاج، واحدها قارورة.

التفسير

٣٨. (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ):

تدلّ الآية على أنّ سليمان(عليه السلام)، قد علم أنّ موكب الملكة في طريقه إليه، فطلب ممّن حوله من كبار مساعديه إحضار عرشها قبل أن تصل إليه، فـ : (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)، وقد أراد بذلك أن يُريها بعض ما

خصّه الله به من عظيم القدرة حتى يكون سبباً لقبول نبوّته، ومن ثمّ دخولها في صفوف الموحّدين.

وهنا انبرى اثنان من معاونيه لتحقيق طلبه:

الأوّل: عفريت من الجنّ، كما في قوله:

٣٩. (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ):

قوله:(قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ) العفريت يطلق على العاتي المارد من هذا الصنف، و:(أَنَا آتِيكَ)الظاهر أنّه صيغة فاعل وإن احتمل بعضهم كونه فعل مضارع (قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ): أي قبل انفضاض المجلس حيث إنّ سليمان كان يجلس للقضاء بين الناس وموعظتهم، وقد مرّ أنّ جيش سليمان يتشكّل من ثلاثة أصناف:(الجنّ والإنس والطير).

ثمّ أضاف هذا العفريت:(وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ) لا يجهدني ثقل العرش (أَمِينٌ)لا أخونك فيما أقول، أولا أخونك في الشيء الذي أحمله.

٤٠.(قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ):

وأمّا الثاني: الذي تعهّد بالإتيان بالعرش، فهو الذي يعرّفه سبحانه بقوله: (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ) فما هو المقصود من علمه بالكتاب؟

قال المفسّرون: المراد به جنس الكتب السماوية أو اللّوح المحفوظ. وأضافوا: إنّ هذا القائل كان يعلم اسم الله الأعظم، ذلك الاسم الذي يخضع له كلّ شيء ويمنح الإنسان قدرة خارقة للعادة.

لكن قد ثبت في محلّه أنّ الاسم الأعظم ليس من قبيل الألفاظ والمفاهيم، وإنّما هو كمال نفساني يوجد في الإنسان فيصبح بواسطته مظهراً لذلك الاسم الأعظم.

فما روي عن ابن عباس وقتادة من أنّه يعرف اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وما قيل من أنّ ذلك الاسم، هو: الله والذي يليه الرحمن، أو: يا حيّ يا قيّوم، أو: يا ذا الجلال والإكرام، أو: إنّه يا إلهنا وإله كلّ شيء إلهاً واحداً لا إله إلاّ أنت، كلّها محمول على أنّه اسم للاسم الأعظم، فما ذكروه اسم للاسم لا نفسه، وعلى ذلك فيكون معنى قوله: (عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ)أنّ القائل وصل، إثر علم شيء من الكتاب، مرتبة عالية نفسية، بحيث تؤثر إرادته في الكون ويخضع له عالم الوجود بإذن من الله سبحانه. وبذلك يفسّر أيضاً ما يقوم به الأنبياء من عجائب الأُمور وغرائب الآثار من إحياء الموتى وخلق الطيور.. كلّ ذلك إثر إرادة نفس طاهرة خاضعة لله نقيّة وصلت إلى حدٍّ إذا أراد، أراد الله سبحانه، وإذا طلب، تحقّق.

وقد تعدّدت أقوال المفسّرين في اسم هذا الذي عنده علمٌ من الكتاب، والذي ورد عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) وغيرهم أنّه آصَف بن بَرْخِيا. تفسير نور الثقلين:٤/٤٨.

قوله: (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) قد مرّ تفسيره في «المفردات»، وقلنا: ارتداد الطرف هو التقاء الجفنَين بعد افتراقهما، والمعنى: أنا أُحضره لك في مدة لا تتجاوز ردّ جفنَيكَ إلى الإطباق بعد انفراجهما، فصارت النتيجة:

(فَلَمَّا رَآهُ) سليمان (مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ) شكر الله سبحانه و(قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي): أي كرامة من الله لي من دون استحقاق (لِيَبْلُوَنِي): أي ليختبرني (أَأَشْكُرُ)هذه النعمة بالطاعة والانقياد له سبحانه والإقرار بفضله (أَمْ أَكْفُرُ)بها وأتنكّر لمُنعِمها؟ (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) لأنّ النتيجة تعود إليه، نظير قوله سبحانه:(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) الإسراء:٧..

ولا شكّ في أنّ الابتلاء بالنِّعم، لا سيما مثل تلك النِّعم التي أفاضها على سليمان(عليه السلام)ومنها تسخير تلك القوى الهائلة له،

يعدّ من أشدّ الابتلاءات والامتحانات، لأنّها مدعاة للشعور بالزهو والغرور، واستغلالها في تأكيد الذات والاستطالة بها على الآخرين.

قوله تعالى: (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ) عن شكر العباد غير محتاج إليه (كَرِيمٌ) متفضِّل على عباده شاكرِهم وكافرِهم.

هذا هو تفسير الآية بحرفيّتها، وهناك أبحاث لابدّ من بيانها:

الأوّل: حكى سبحانه قول القائل الثاني بدون واو العطف، وكان السياق يقتضي أن يقول:(وقال الذي)؟

والجواب: أنّ فيه إشعاراً بمكانته ومقامه السامي، ولذلك فصل كلامه عن كلام العفريت ولم يعطفه عليه، لئلاّ يتوهّم اتّحاد مقامهما.

الثاني: أنّ سياق الآية يدلّ على أنّ سليمان(عليه السلام) كان جالساً على كرسيّه وهذان الشخصان حوله، فوجّه خطابه إلى من حوله، فأجاب عفريت من الجنّ بأنّه مستعدّ لذلك، ثم أجاب الثاني بأنّه مستعدّ لما يطلب في أقلّ مدّة يمكن تصوّرها، ومقتضى الحوار هو أنّ المجيب الثاني شخص غير سليمان النبي(عليه السلام)، بشهادة قوله: (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)فالضمائر الثلاثة ترجع إلى سليمان قطعاً بشهادة أنّ الضمير في قول(عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ) يرجع إلى سليمان(عليه السلام).

لكن ذهب الفخر الرازي إلى أنّ الشخص الثاني هو نفس سليمان، وأيّده بوجوه أربعة غير وافية نذكر منها الوجه الرابع الذي هو أقوى الكلّ، حيث قال: إنّ سليمان(قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان. تفسير الرازي:٢٤/١٩٨. وقد سبقه إلى هذا الرأي الجُبّائي، كما نقل عنه ذلك الشيخ الطوسي في تبيانه:٨/٩٦.

يلاحظ عليه: بأنّ سبب الشكر لا يختصّ بقيام سليمان بنفسه بهذا العمل، وتحقّقه بدعائه، بل يكفي كون أحد أصحابه قادراً على هذا العمل، ولذلك شكر الله سبحانه.

الثالث: أنّ سليمان نفسه كان قادراً على ذلك العمل، فلماذا أوكله إلى غيره؟ والجواب: لعلّ الوجه أنّه (عليه السلام) أراد بذلك أن يبيّن مكانة وصيّه ووزيره للجميع في هذه اللحظة الحسّاسة. وهذا ليس ببعيد، فإنّ الأساتذة ربّما يطلبون من تلاميذهم أُموراً شاقّة، فمن قام بها بأحسن وجه فهو الذي يُقدّر.

قال الإمام علي الهادي(عليه السلام) في جواب هذا السؤال: «(الذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ) فهو آصف بن برخيا، ولم يعجز سليمان عن معرفة ما عرفه آصف، لكنّه(عليه السلام) أحبّ أن تعرف أُمّته من الإنس والجنّ أنّه الحجّة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه الله آصف بأمر الله تعالى، ففهّمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته». مجمع البيان:٧/٤١٣.

الرابع: كيف تصرّف سليمان في عرش الملكة وهي غير راضية وأتى به إلى مملكته؟

والجواب: أنّ قيام سليمان بهذه الأفعال العجيبة لم يكن صادراً عن هوىً، بل كان لغرض الهداية وإرعاب العدو حتّى يستسلم لأمر سليمان ويترك عبادة ما سوى الله وينقاد لعبادته سبحانه. وله الولاية التامّة في الأموال والنفوس في طريق دعوته.

الخامس: ربّما يُطرح سؤال وهو: كيف تحقّق الإتيان بالعرش مع ما بين البلدين من البعد الكبير؟

والجواب: ورد في بعض الروايات أنّ اسم الله الأعظم على ثلاث وسبعين حرفاً وأنّه كان عند آصف منها حرف واحد وتكلّم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس ثم تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين.(مجمع البيان:٧/٤١٠ـ٤١١.)

وفي رواية أُخرى: أنّ الأرض طُويت له، وهو المروي عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام).[1]

وهناك احتمال آخر، وهو أن يكون من قبيل الإعدام والإيجاد بأمر من الله سبحانه الذي إذا قال لشيء كن فيكون.

ثمّ إنّ في الجواب الثاني غموضاً فإنّ طيّ الأرض بمعنى ضدّ نشرها كيف يتحقّق للحامل دون أن يتحقّق للآخرين الذين يعيشون فوق نفس الأرض؟

٤١. (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ):

مرّ أنّ الملكة لمّا بلغها تهديد سليمان(عليه السلام)، أزمعت الحضور بنفسها لديه، والانقياد لحكمه وسلطانه، ولذلك تجهّزت للسفر بمركب يليق بمثلها، لكنّ سليمان(عليه السلام) أراد أن يجرّب حِذقها وذكاءها، فأمر أعوانه بإجراء بعض التغييرات على العرش، وذلك بتغيير بعض أوصافه(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا): أي غيّروه عن الحالة السابقة له، ثمّ إنّه بيّن سبب ذلك وقال: (نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي): أي أتعلم أنّه هو (أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ): أي يختلط الأمر عليها بسبب هذا التغيير، فلا تصل إلى معرفته؟

٤٢. (فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ):

فلمّا جاءت الملكة بموكبها إلى مجلس سليمان(عليه السلام) واطّلعت على العرش قيل لها(أَهَكَذَا عَرْشُكِ)؟ ولم يُقل: أهذا عرشك؟ زيادة في التنكير، فأجابت بما يدلّ على رجاحة عقلها، و(قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) فلم تجزم بأنّه هو نفسه، لاحتمال أن يكون مثله، ولم تنفِ ذلك، لوجود التشابه بينهما. ثمّ اعترفت بحقيقة أرضتْ بها سليمان(عليه السلام)، وقالت:(وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ).

ظاهر السياق أنّ هذه الفقرة من تتمة كلام الملكة، ذلك أنّها أحسّت أنّ سليمان(عليه السلام) أراد بإحضار العرش إظهار القدرة الخارقة للتدليل على صدق نبوّته، فقالت: (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ) بقدرة سليمان (مِنْ قَبْلِهَا): أي قبل هذه الحالة، وإنّ قدومنا إلى سليمان، والنزول على حكمه قبل هذه المفاجأة الغريبة (إحضار العرش) دليل على انقيادنا وطاعتنا، كما يقول سبحانه على لسانها:(وَكُنَّا مُسْلِمِينَ).

٤٣. (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ):

اختلف المفسّرون في المراد من (مَا) في قوله:(مَا كَانَتْ) فهنا قولان:

١. المراد عبادة الشمس، وعندئذ يكون محلّ (مَا) مرفوعاً لكونها فاعل الفعل، والمعنى: وصدّها ما كانت تعبد (أي عبادة الشمس) عن الإيمان بالله تعالى.

وهذا يدلّ على تأثير تقاليد المجتمع ومعتقداته على الإنسان، فالذي صدّ الملكة عن الإيمان بالله ومنعها من التسليم له هو أنّها نشأت وعاشت في جو مشبع بالكفر، كما يقول: (إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ).

٢. المراد من الموصول هو سليمان، وعلى هذا يكون محله منصوباً، والمعنى: وصدّها سليمان عمّا كانت تعبده من دون الله، وحال بينها وبينه ومنعها عنه.

والظاهر أنّ الوجه الأوّل هو الأظهر بالنسبة إلى السياق، لأنّ مآل الوجه الثاني أنّها أسلمت وتركت عبادة الشمس مع أنّها صرّحت بذلك في الآية التالية، وهو يعرب عن أنّها لم تسلم بعد، أو لم تظهر إسلامها باللسان على الأقلّ.

٤٤. (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ):

يدلّ ظاهر الآية أنّه كان لسليمان قصر وله صحن مفروش بزجاج شفاف صاف والماء يجري من تحته، بحيث إنّ من ألقى إليه نظره، من دون علم سابق، يتخيّل أنّه لُجّة ماء، ولأجل أن يصل سليمان(عليه السلام)إلى هدفه الأكبر، وهو هداية الملكة إلى التوحيد من خلال إراءتها قدرته العظيمة الدالّة على ارتباطه بالغيب، دعاها أحد أتباعه إلى أن تدخل الصَّرح، كما قال سبحانه: (قِيلَ لَهَا

(ادْخُلِي الصَّرْحَ) وبناء الفعل للمجهول دليل على أنّ القائل غير سليمان، وقوله:(ادْخُلِي)يدلّ على أنّ المراد من الصّرح هو الصَّحن لا القصر وإلاّ لقيل لها: اصعدي.

فلمّا دخلت تفاجأت بما يُرى كأنّه لجّة، فرفعت ثيابها ظنّاً منها أنّها تريد أن تخوض الماء، كما يقول: (فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا) وعندئذ(قَالَ) سليمان(عليه السلام) (إِنَّهُ صَرْحٌ) صحن (مُمَرَّدٌ)مملّس (مِنْ قَوَارِيرَ): أي من زجاج صاف، وليس بماء. ولمّا رأت ما لسليمان من القدرة الخارقة للعادة، أعلنت عن توبتها وقالت: (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) بعبادة غيرك (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)لأنّها وقفت على صلته بالله تعالى، فآمنت بما آمن به.

ثمّ إنّ الغاية من دعوتها إلى دخول الصّرح هو إراءة عظمة القدرة، وأمّا تخيّلها كونه ماءً والكشف عن ساقيها فلم يكن مطلوباً لسليمان، وإنّما صار من لوازم تخيّلها، ومن هنا يُعلم أنّ ما جاء في تفسير الرازي من أنّ الجنّ كرهوا أن يتزوّجها فقالوا: إنّ في عقلها نقصاناً وأنّها شَعْراء الساقين ورجلها كحافر حمار، فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش، واتّخذ الصّرح ليتعرّف على ساقها، فلما كشفت عنها فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً. تفسير الرازي:٢٤/٢٠١.

كلّ ذلك خرافات إسرائيلية، وليس ما ورد في هذا المشهد هو الوحيد في تاريخ سليمان، بل حيكت حول قصته(عليه السلام) الكثير من الأساطير والخرافات، ومن راجع التفاسير خصوصاً القسم الروائي منها كالدرّ المنثور وغيره، يرى فيها غرائب وعجائب يحكم العقل ببطلانها وعدم صحّتها، وهي من الإسرائيليات التي تسرّبت إلى كتب التفسير والحديث.

هذا، ومن يقرأ حياة سليمان في القرآن الكريم يعرف أنّه كان عبداً مؤمناً شاكراً أوّاباً، موصوفاً بالعلم والحكمة، متمتّعاً بقدرة فائقة على التدبير والإدارة، وأنّه كان يبتغي في كلّ أقواله وأعماله مرضاة الله تعالى.

ثمّ إنّ بعض المتقشّفين غير العارفين بمقامات الأنبياء والأولياء ربّما يستشكلون على سليمان(عليه السلام)جمعه للأموال والحرس، وتشييده للمباني الفخمة وغير ذلك، وهذا الإشكال نابع عن تصوّر خاطئ ونظرة سطحية للدنيا، فللإنسان إذا أقبل على الدنيا أو أقبلت عليه، موقفان:

الأوّل: أن يجعل الدنيا أكبر همّه، ويؤثرها على آخرته، فيتكالب على حطامها، ويهيم بعشقها، ويغرق في ملاذّها. وهذه هي الدنيا الغَرور، التي تعميه وتطغيه، وتصرف وجهه عن طاعة الله.

الثاني: أن يجعلها مزرعة لآخرته، ووسيلة لغايات وأهداف سامية كنشر العدل وبسط التوحيد، وإعانة البائسين، والتزوّد من الخيرات والأعمال الطيّبة. وهذه هي الدنيا المطلوبة التي دعا إليها جميع الأنبياء والأولياء. قال الإمام علي(عليه السلام) في صفة الدنيا: «مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ». نهج البلاغة: الخطبة ٨٢ .

سورة النمل: الآيات ٤٥ ـ ٥٣ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ... وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

الآيات: الخامسة والأربعون إلى الثالثة والخمسين

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ * وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْط يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْم يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

المفردات

يختصمون: يجادل بعضهم بعضاً.

السيئة: العقوبة، وإنّما سمّيت سيئة لأنّها تسوء صاحبها.

الحسنة: ضد السيئة، ما يستحسنه صاحبها.

لولا: تحضيضية بمعنى: هلاّ، وليست ابتدائية.

اطَّيّرْنا:تشاءمنا بك. وأصل التطيّر من زَجْر العرب في الجاهلية للطّير(أي الإشارة إليه بيده أو بعصاً ليطير)، فإذا طار إلى جهة اليمين تفاءلوا، وإذا طار إلى جهة الشمال تشاءموا.

رهط: الرَّهط: العصابة من الثلاثة إلى ما دون العشرة، وقيل الأربعين.

تُفتَنون: تُختَبَرون.

تقاسموا: أي احلفوا.

لنبيّتنّه: البَيات: مباغتة العدو ومفاجأته بالإيقاع به ليلاً.

وليّه: من له حق القصاص.

مَهلِك: مصدر ميمي أو اسم مكان أو اسم زمان، بمعنى الهلاك.

مكروا مكراً: المكر: التدبير الخفيّ لعمل الشرّ.

خاوية: خالية.

التفسير

القصّة الثالثة: نبيّ الله صالح(عليه السلام)وقومه ثمود،

تتضمّن هذه الآيات بيان قصّة ثالثة ـ بعد قصة موسى وسليمان(عليهما السلام) ـ تتعلّق بنبيّ الله صالح(عليه السلام)وقومه ثمود، وقد ذكرت دعوته لقومه في السور التالية: الأعراف، هود، الحجر، الشعراء، النمل، فصّلت، الذاريات، النجم، القمر، الحاقّة، الشمس، وورد اسم النبي صالح(عليه السلام) تسع مرّات، فالإحاطة بجميع خصوصيات دعوته مع ما لاقاه من مصاعب في طريق إبلاغ مهمّته وما انتهى إليه لجاج قومه، رهن جمع الآيات في مكان واحد، وقد استوفينا الكلام في ذلك في كتابنا «القصص القرآنية».

لاحظ: القصص القرآنية:١/١٦٣ـ١٨٤.

ونحن نقتصر هنا على ما ورد في هذه الآيات.

٤٥. (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ):

ابتلي النبيّ صالح(عليه السلام) بقوم مشركين فدعاهم إلى عقيدة التوحيد كما قال:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ) ونداء النبي صالح(عليه السلام)هو عين نداء الأنبياء الذين سبقوه والذين جاءوا من بعده، كنوح وهود وإبراهيم ومحمّد صلوات الله عليهم أجمعين.

انقسم القوم أمام دعوته إلى فريقين: فريق اقتفوا أثر النبيّ(عليه السلام) اقتناعاً بدلائله وبيّناته، وفريق آخر اقتفوا أثر آبائهم عناداً واستكباراً، كما قال تعالى: (فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ)، والتعبير بالجمع مكان أن يقول يختصمان هو لأجل اشتمال كلّ فريق على جماعة، نظير قوله سبحانه: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا). الحجرات: ٩.

٤٦. (قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ):

يظهر من بعض الآيات أنّ النبيّ صالح(عليه السلام) ـ بعدما بلّغهم رسالة ربّه ونصح لهم ـ قد توعّدهم بالعذاب وأنّهم كانوا يبادرون إلى طلبه بسرعة استهزاءً وسخرية، كما يقول سبحانه حكاية عنهم:(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)،(الأعراف: ٧٠.) ويردّ عليهم صالح(عليه السلام)متعجّباً من موقفهم مترفّقاً بهم:(قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ): أي إنّ الله قد مكّنكم من الوصول إلى رحمته وثوابه فلماذا تعدلون عنه إلى استعجال عذابه؟ وعلى هذا فالمراد بالسيئة العذاب، وبالحسنة الاستغفار بشهادة قوله: (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أي: هلاّ تسألون الله أن يغفر لكم شركـكم وآثامكم، فالله يرحم المستغفرين التائبين إليه.

وحصيلة الكلام: إنّ أمامكم أمران:

١. الرجوع من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق والاستغفار عمّا صدر عنكم من السيئات، ففي هذا الحسنة والثواب.

٢. البقاء على الوثنية وطلب العذاب من الله سبحانه، وهذا أمر عجيب منكم، إذ تطلبون الثاني وتتركون الأوّل.

٤٧. (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ):

تمادياً منهم في العناد والبغي ورفض الاستماع لدعوة الحقّ والخير، اتّخذ قوم صالح(عليه السلام) من نبيّهم موقفين ظالمَين:

الأوّل: التشاؤم بالنبيّ

نسب قوم صالح ما أصابهم من محن ومكاره إلى شؤم نبيّهم(عليه السلام)وشؤم الذين آمنوا به و(قَالُوا) له: (اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ): أي تشاءمنا بك، لأنّ ما حلّ بنا من ضرّاء، إنّما هو لشؤمك وشؤم من معك. ثمّ إنّ صالحاً(عليه السلام)أجاب عن تصوّرهم الفاسد هذا بقوله: (قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ): أي ما يصيبكم من الشرّ هو نتيجة أعمالكم عند الله سبحانه، فهؤلاء المترفون العتاة بدل أن يتعرّفوا على الأسباب الحقيقية لما يصيبهم، علّقوا كلّ ما نزل بهم من محن ومصائب على مِشْجَب خصومهم وهم النبي صالح(عليه السلام)والمؤمنون به.

ثمّ إنّ صالحاً(عليه السلام) عدل عن هذا الجواب إلى جواب آخر بقوله: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ): أي تُختبرون بالخير والشرّ، والغاية من الافتتان تمييز المؤمن عن الكافر، أو تنبيه الكافر ليرجع إلى الإيمان.

٤٨. (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْط يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ):

الأمر الثاني: التآمر على قتل صالح(عليه السلام)

تآمر أشرار قوم ثمود فيما بينهم على قتل صالح (عليه السلام)، وحلفوا بالله على تنفيذ هذه الجريمة، لكن بمباغتته وأهله ليلاً ـ لكي لا يراهم أحد ـ وقتلهم جميعاً، فإذا طولبوا بدمه يجيبونهم بأنّهم لم يقتلوه ولا يدرون من قتله، كما يقول:(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْط يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ)، ولمّا كان الرهط يطلق على الثلاثة إلى مادون العشرة جاءت كلمة تسعة لتعيين العدد، وعلى هذا فالرهط بمعنى الجماعة أو بمعنى الأنفس، وقد ذكر الزمخشري أسماء التسعة وهم الذين خططوا لقتل صالح(عليه السلام) وهم الذين عقروا الناقة. وكان هؤلاء من الأشرار.

٤٩. (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ):

(قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ): أي احلفوا على مباغتة صالح(عليه السلام) وأهله ليلاً. و«التقاسم» تفاعل من القسَم، أي: قال بعضهم لبعض ليُقسمْ كلٌّ منّا بالله، و«البيات» مباغتة العدو ليلاً على خلاف الصباح فهو مباغتة العدو صباحاً ولذلك يقولون: واصباحاه. (ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ): أي إذا شاع قتله في القرية وجاء وليّه لأخذ ثأره أنكرنا أي علاقة لنا بقتلهم كما يقول:(لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ): أي هلاكهم، (وَإِنَّا) في قولنا هذا (لَصَادِقُونَ).

لكنّه سبحانه أحبط مؤامرتهم وأفشل مخطّطهم، كما يقول:

٥٠.(وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ):

المكر من المجرم عبارة عن التخطيط الخبيث كما يقول: (وَمَكَرُوا مَكْرًا) وأمّا المكر من الله فهو إبطال التخطيط كما يقول: (وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ).والمراد من مكره سبحانه هو هلاكهم كما تشعر بذلك الآية التالية:

٥١. (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ):

قوله:(فَانْظُرْ) خطاب للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن أُريد به اعتبار المشركين المعاصرين له(صلى الله عليه وآله وسلم) (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ) فهم أرادوا قتل النبي صالح(عليه السلام)فجوزوا بتعجيل هلاكهم وتدميرهم كما يقول: (أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) كلّ ذلك مجازاة لأعمالهم السيئة.

٥٢. (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ):

لمّا أخبرت الآية السابقة أنّ الله سبحانه أهلكهم، أشارت هذه الآية إلى أنّ مساكنهم كانت مشهورة لقريش ولو عن بُعد، ذلك أنّها تقع على طريق قريش في رحلتهم إلى الشام، أي بين المدينة وتبوك، حتى أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)في مسيره إلى تبوك نهى المسلمين أن يشربوا من آبارهم إلاّ البئر

الّتي شربت منها ناقتهم، فلذلك يقول: (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا): أي خالية منهم بسبب ظلمهم(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ): أي في ذلك عبرة وعظة لمن يتّعظ . وفي ذلك تهديد لمشركي قريش بأنّهم قد يحلّ بهم العذاب لو تمادوا في العناد.

ولمّا كان هنا سؤال في ذهن السامع والقارئ أنّ مسكن هؤلاء كان مسكناً للمؤمنين بصالح(عليه السلام)، فإهلاك هؤلاء لا ينفكّ عن إهلاك المؤمنين أجاب سبحانه بقوله:

٥٣. (وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ):

أي (وَأَنْجَيْنَا) من عذابنا الذي حلّ بثمود (الَّذِينَ آمَنُوا) وهم رسولنا صالح ومن آمن به، لماذا؟ لقوله سبحانه: (وَكَانُوا يَتَّقُونَ) ويصدّقون بالنبي(عليه السلام) ويأتمرون بأمره.

وهاهنا نكتة هي أنّه سبحانه ذكر بعد قصة سليمان قصّة صالح وأردفهما بقصة لوط ـ كما سيأتي ـ وما ذلك إلاّ لأنّ الجميع كانوا في منطقة واحدة أي منطقة الشام أو قريباً منها.

سورة النمل: الآيات ٥٤ ـ ٥٨ (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ... فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ).
الآيات: الرابعة والخمسون إلى الثامنة والخمسين
(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ *أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوط مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ).
المفردات
الفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال. الغابرين: الماكثين، ومنه الغُبرة: البقية في الضَّرع من اللّبن.
التفسير

القصة الرابعة لوط(عليه السلام)

كان لوط(عليه السلام) وهو ابن أخي إبراهيم(عليه السلام) ـ كما في كتب الأنساب وغيرها ـ قد آمن بدعوة إبراهيم الخليل (عليه السلام) الذي بعث في أرض بابل من العراق، ثم رافقه في هجرته إلى الأرض المباركة فلسطين، قال تعالى: (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) العنكبوت:٢٦.ولكنّه (أي لوط(عليه السلام)) أستقرّ في إحدى مدن الأردن التي تسمّى سدوم.

قال المسعودي: أرسل الله لوطاً(عليه السلام)إلى سدوم وقراها الخمس وهي: صبغة وعمرة وأدما وسبوغ وبالع. نقله السيد عبد الصاحب الحسني العاملي في كتابه الأنبياء وحياتهم وقصصهم:١٥٨.

وممّا يُذكر أنّه سبحانه ذكر قصة لوط تارة على وجه الإيجاز، وأُخرى على وجه التفصيل في سور كثيرة، وقد أجمل الكلام هنا وذكر ممارسات القوم للخبائث وقال:

٥٤. (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ):

قوله: (وَ) أي اذكر (لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ) أي الفعلة القبيحة الشنيعة (وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ): أي عياناً بحيث يبصر بعضكم بعضاً عند ارتكابها، وهذه الفقرة نظير قوله سبحانه:(وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ). العنكبوت:٢٩.

٥٥. (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ):

إنّ إطفاء الغريزة الجنسية عن طريق الجنس الموافق يضادّ حكمة خلق الذكر والأُنثى ويؤدّي بالنسل البشري إلى الانقطاع، فالغريزة الجنسية نعمة من الله سبحانه لكلّ إنسان ليصون بها نسله ووجوده في المجتمع وقد جعل الله هذه الغريزة في الزوجين المتخالفين في الجنس، فإعمالها في الجنس الموافق انحراف عن الفطرة وصرف للنعمة في غير موردها، كما يقول سبحانه حاكياً عن قوم لوط:(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ) والاستفهام هنا إنكاري توبيخي. ثمّ وصفهم بقوله: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)، وفي آية أُخرى وصفهم بقوله: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) الأعراف:٨١، وفي آية ثالثة: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) الشعراء:١٦٦..

والجهل بالشيء يُطلق على عدم العلم به، ولا شكّ في أنّ ممارسة هذه الفعلة مع معاينة قبحها وشناعتها جهل، كما يطلق الجهل على السَّفَه والحُمق، وهم بشذوذهم عن الطبيعة السويّة، سفهاء أيضاً، وحمقى.

ويظهر من بعض الآيات أنّه ما نزا ذكر على ذكر قبل قوم لوط، كما يقول سبحانه حاكياً عن لوط: (مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) الأعراف:٨٠..

معارضة القوم لنبيّهم لوط

قام النبي لوط (عليه السلام) بمهمته الرسالية على أتمّ وجه وخوّفهم من بأس الله تعالى، لكن كان رد فعل القوم تهديده بالإبعاد من بلدهم كما قال:

٥٦. (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ):

وكان على القوم أن يتفكّروا في دعوته ونصحه لهم، ولكنّهم قابلوه بالعنف وقالوا: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ)والمراد بهم لوط (عليه السلام) وأهله، بحجة (إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ): أي أنّهم يتنزّهون عن أفعال هؤلاء وطرائقهم. لقد بلغ جهل هؤلاء وحمقهم درجة أن صار الأمر الحسن عندهم قبيحاً، فالتنزّه عن الفحشاء الّذي كان سمة آل لوط صار قبيحاً عندهم وسبّب إبعادهم عن مأواهم ومنزلهم، فالمجرم يقيس كل شيء بالمقاييس التي اختارها، وهذا المستوى الهابط يلحق الإنسان بالدوابّ كما يقول الله: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) الأنفال:٢٢.. ولمّا أتمّ لوط(عليه السلام) الحجّة على قومه فترة بعد فترة ولم يرتدعوا عن قبائحهم، اقتضى ذلك استعمال آخر الدواء، وهو الكيّ وتطهير الأرض من هؤلاء الفسقة الذين

يفسدون النسل، كما قال:

٥٧. (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ):

أي أنجاه الله سبحانه وأهله المؤمنين به. وهذا يعني أنّه لم يكن ثمّة من آمن به إلاّ أهله، ويشهد لذلك قول الملائكة المأمورين بإهلاك قوم لوط:(فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْت مِنَ الْمُسْلِمِينَ) الذاريات:٣٦. واستثنى من جملة أهله امرأته وقال: (إِلاَّ امْرَأَتَهُ)وذلك لخيانتها له، حيث كانت توافق الفاسقين على هذا الشذوذ، كما يرشد إلى ذلك قوله سبحانه: (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوح وَامْرَأَةَ لُوط كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) التحريم:١٠..

وأمّا كيفية هلاكهم فذكرته الآية التالية:

٥٨. (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ):

وظاهر الآية يحكي عن إنزال المطر عليهم أي الماء. ولكن الآيات الأُخرى تكشف عمّا هو المراد من الإمطار، منها قوله: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيل) الحجر:٧٤..

سورة النمل: الآيات ٥٩ ـ ٦٦(قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ... بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ).

الآيات: التاسعة والخمسون إلى السادسة والستين

(قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَة مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ *بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ).

المفردات

حدائق: جمع حديقة، وهي البستان يكون عليه حائط يحدق به أي يحوطه.

يعدلون: من العدول، وهو الانحراف من الحقّ إلى الباطل.

قراراً: مستقرّاً.

خلالها: بين أماكنها، واحدها خَلَل.

رواسي: جبالاً ثابتة، جمع راسية.

حاجزاً: الحاجز: الفاصل بين الشيئين.

المضطرّ: الذي أصابته الشدّة وتضرّع إلى الله سبحانه.

خلفاء: من الخلافة والنيابة.

يهديكم: يرشدكم.

بين يدي رحمته: أي الرياح المرسلة أمام المطر.

ادّارك: تتابع وتلاحق، وأصله تدارك، فقلبت التاء دالاً لقرب مخرجهما، ولأجل صعوبة الابتداء بالساكن لحقت به الهمزة فصار: ادّارك.

عَمون: جمع عم بمعنى أعمى. والأصل عميون استثقلت الضمّة على الياء فنُقلت إلى الميم بعد حذف كسرتها.

التفسير

تشتمل هذه المجموعة من الآيات على أربعة عشر موضوعاً طُرحت بأُسلوب الاستفهام ضمن أسئلة تثيرها أمام المشركين، والغاية من هذه الأسئلة هي الاستدلال على التوحيد في الخالقية والربوبية وأنّه لا خالق إلاّ الله كما لا مدبّر إلاّ هو عزّ وجلّ.

والإقرار بوحدانيته فيهما يستلزم توحيده في العبادة أيضاً ؛ لأنّ الخالق المدبّر هو وحده من يستحقّها، ومَن ليس له دور في صحيفة الوجود أو في حياتنا لا يليق بأن يُعبد، فالمشركون يلزمهم، إذا أقرّوا بالحقائق التي أشارت إليها هذه الأسئلة، أن يوحّدوه في العبادة ولا يجعلوا له شريكاً فيها. وهذه المجموعة قليلة النظير في القرآن الكريم، وإليك عناوين هذه المواضيع:

١. من خلق السماوات والأرض؟

٢. من أنزل لكم من السماء ماء؟

٣. من أنبت الحدائق ذات البهجة؟

٤. من جعل الأرض قرارًا؟

٥. من جعل خلال الأرض أنهارًا؟

٦. من جعل للأرض رواسي؟

٧. من جعل بين البحرين حاجزًا؟

٨. من يجيب المضطر إذا دعاه؟

٩. من يجعلكم خلفاء الأرض؟

١٠. من يهديكم في ظلمات البر والبحر؟

١١. من يرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته؟

١٢. من يبدأُ الخلق ثم يعيده؟

١٣. من يرزقكم من السماء والأرض؟

١٤. من يعلم غيب السماوات والأرض؟

وبما أنّ الله سبحانه هو وحده المتفرّد بهذه الأُمور من الخلق، والتدبير، وعلم الغيب، فكيف يُعدَل عنه إلى غيره؟ واختصاصه بهذه الأُمور يستلزم توحيده في العبادة، لأنّ المتفرّد بخلق السماوات والأرض والمالك لها دون غيره ، والمختصّ بعلم الغيب هو اللائق بالعبادة المستحقّ لها.

ثمّ إنّ قوله: (أَمَّن) أصله: أم مَن، فأدغمت الميمان فصار (أمَّن)، ومن المعلوم أنّ السؤال في هذه الآيات بحاجة إلى جواب، فيقدّر الجواب في جميعها قوله سبحانه في الآية ٥٩: (آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)، فيقال مثلاً في صدر جميع الأسئلة قوله:(آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) أمّن خلق السماوات والأرض... إلخ.

وهكذا أمّن جعل الأرض قراراً...، خير أمّا يشركون.

إذا تقرّرت هذه الحقيقة فلنبدأ بتفسير الآيات.

٥٩. (قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ):

الظاهر أنّ الآية كلام مستأنف جاء تمهيداً لما يلقيه سبحانه من الأسئلة ضمن الآيات التالية، والشاهد على أنه كلام مستأنف أنّه ابتدأ بقوله:

(قُلِ)دون أن يقول: فقل، فأمر الرسول بأن ينطق بحمد الله لسانه وقال: (قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ) فحصر ذلك في الله لأنّ الحمد إنّما هو لكلّ فعل جميل اختياري، ومن المعلوم أنّ كلّ جمال وكمال لكلّ موجود، هو من صنعه سبحانه، ولذلك يرجع الحمد في الحقيقة إلى الله سبحانه، سواء أكان بالمباشرة أو بالواسطة.

ثمّ أمره بالتسليم على مَن اختارهم من عباده أئمة للتقى وأدلّة للرشاد، وقال: (وَ) قل(سَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى): أي الذين اجتباهم لهداية الناس وإنقاذهم من الجهالة والضلالة، ثم نجّاهم عند نزول العذاب على أقوامهم الذين مرّ ذكرهم في الآيات المتقدمة.

السؤال الأوّل(آللهُ خَيْرٌ):

أخذ سبحانه في تقريع المشركين بأُسلوب الاستفهام، مبتدئاً بالسؤال الآتي: (آللهُ خَيْرٌ): أي الواجب الوجود الجامع لعامّة صفات الجمال والكمال (أَمَّا يُشْرِكُونَ): أي ما يفتقد لأي صفة كمال وجمال؟ فكأنّ هذه الفقرة ضابطة كليّة وهي أنّ الموصوف بالكمال والجمال هو المتعيّن للأُلوهية دون غيره. ثم شرع في الآيات التالية ببيان الكمالات التي اتّصف بها سبحانه في مقام الفعل، وقال:

السؤال الثاني(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ... بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ):

٦٠. (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ):

الآية تتضمّن موضوعات ثلاثة على سبيل الاستفهام الإنكاري. وقد سبق منّا في المفردات أنّ قوله: (أَمَّنْ)مركّب من لفظين «أم» و«من» والظاهر أنّ «أم» هنا بمعنى: بل وهو إضراب عن سؤال (آللهُ)إلى سؤال آخر، وهكذا إلى نهاية الآيات. وتقدير الآية: بل مَن (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) ولم يشارك في خلقهما أي مخلوق سواه خير أم آلهتكم التي تعكفون عليها؟

(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) السماء ـ على ما ذكره ابن عباس ـ كلّ ما علاكَ وأظلّك، وأُريد بها هنا السحاب. ومن غريب القول ما ذكره الرازي في تفسير الآية: جعل السماء مكاناً للماء، والأرض للنبات. تفسير الرازي:٢٤/٢٠٦.

(فَأَنْبَتْنَا بِهِ): أي بالماء(حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ): أي ذات منظر حسن يورث البهجة والسرور لدى الناظر إليه، ومثل هذا الإنبات بالماء النازل من السماء، حيث تهتزّ به هوامد الأرض، وتزهو بما أُلبست من حُلل زاهية، لا يقدر عليه إلاّ الله سبحانه. ثمّ إنّ في قوله:(فَأَنْبَتْنَا بِهِ) دليل على تأكيد القرآن على تأثير العلل الطبيعية في معاليلها، (أي قانون العلّة والمعلول في صفحة التكوين)، وكأنّ صحيفة الوجود علل ومعاليل تنتهي إلى الله سبحانه فهو علّة العلل، ومع ذلك فليس هو في رأس العلل الطبيعية حتى يكون منعزلاً عنها، بل هو جلّ شأنه دان في عين علوّه، داخل في الأشياء لا بالممازجة، خارج عنها لا بالمباينة.

(مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا): أي ليس للإنسان دور إلاّ تهيئة المقدّمات كحرث الأرض وإلقاء البذور فيها وسقي الماء، وأين هذا كلّه من الإنبات الذي تتحوّل فيه البذور الصغيرة بما أودع الله فيها من قدرة على الإنبات عند توافر الظروف الملائمة (الماء والأُوكسجين ودرجات الحرارة المناسبة) إلى أشجار عظيمة ذات أزهار وثمار متنوعة؟(أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) عن الحقّ إلى الباطل جهلاً وعناداً. وفي الآية دليل على أنّ الإله بمعنى الخالق المدبِّر لا المعبود، وأنّ تفسيره بالثاني تفسير باللازم، فالإله ولفظ الجلالة يشيران إلى معنى واحد غير أنّ الأوّل ليس بعلَم، والثاني علَم.

السؤال الثالث (أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ):

٦١. (أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ):

الآية تتضمّن موضوعات أربعة أي:(آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)، (أَمْ مَنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا) فقد دحاها وسوّاها للاستقرار ولم يجعلها صلبة كما لم يجعلها رخوة، ففي الصلابة يمتنع الزرع والإنبات، وفي الرخوة يغوص فيها الإنسان والحيوان، (وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا) الضمير يرجع إلى الأرض، أي جعل بين مسالكها ونواحيها أنهاراً جارية ينبت بها الزرع ويحيا بها الخلق، من غير فرق بين ما يجري من الجبال بسبب ذوبان الجليد بشكل روافد ثم أنهاراً كبيرة، أو ما يخرج من داخل الأرض على شكل عيون جارية تجتمع وتشكّل غدراناً وروافد،(وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ): أي جبالاً ثابتة لها دور في استقرار الأرض وجعلها صالحة للحياة، حيث إنّ الجبال على سطح الأرض لها امتدادات عميقة(جذور) تخترق الغلاف الصخري للأرض، وهي تُعين على تثبيت الأرض وإرسائها، والتقليل من ترنّحها ومَيَدانها في دورانها حول محورها، كما تقاوم الجزْر والمدّ اللّذين يحصلان بتأثير جاذبية الشمس والقمر دون أن يتفكّك سطح الأرض وقشرتها.

(وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا): أي جعل بين الماء العذب والماء الملح حاجزاً يمنع من اختلاط أحدهما بالآخر، فعندما يصبّ الماء العذب (الذي يجري في الأنهار) في الماء الملح (البحار والمحيطات)، فإنّهما لا يمتزجان بسبب اختلاف درجة كثافة كلّ منهما، وعندئذ يسأل الله سبحانه: (أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ) فعَلَ هذا كلّه وقدّره ذلك التقدير المحكم؟ (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) عظَمة الله في الخلق والتدبير. ووجه جعلهم أنّهم لا يتقنون النظر في دقائق هذه المصنوعات وخصائصها، هو أنهم ألِفوا رؤية هذه الأشياء، فصار ذلك سبباً لذهولهم عمّا فيها من بدائع الدلائل على التوحيد، ولذلك يأمر القرآن المؤمنين بالتفكّر في خلق السماوات والأرض، ويقول مادحاً لهم: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) آل عمران:١٩١..

السؤال الرابع(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ... أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ):

٦٢.(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ):

أُشير في هذه الآية إلى موضوعين:

١. إجابة المضطرّ إذا دعا الله وقت اضطراره

إذا ضاقت الأُمور بالمضطرّ من مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر ودعاه ذلك إلى التضرّع إليه سبحانه، فمَن المجيب لهذا الملتجئ إذا دعا الله سبحانه، كما يقول:(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ): أي البؤس المحدق به؟ لا شكّ أنّ الله سبحانه هو القادر على كشف السوء ورفع البؤس لا غيره، ولذلك نرى الناس حينما تضطرب بهم الفُلك يدعون الله مخلصين له الدين لعلمهم بأنّ ما دونه سبحانه ليس بقادر على إنجائهم. وكأنّ الالتجاء إلى القدرة الغيبية أمر فطري للإنسان، يغشاها الانهماك في الأُمور المادية على نحو تصير ستراً على الفطرة، وأمّا إذا انقطعت الأسباب المادية عن التأثير ووجد الإنسان نفسه تحت مطارق الشدّة والعُسر انكشف الستر عن الفطرة والتجأ إلى الله تعالى.

وقد طرح الرازي في المقام سؤالاً وقال: وكم من مضطرّ يدعو فلا يُجاب؟ وأجاب عنه بقوله: إنّ المفرد المعرّف (المضطرّ) لا يفيد العموم وإنّما يفيد الماهيّة فقط، والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهيّة. ثم أضاف قائلاً: إنّه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنّه يستجيب في الحال. تفسير الرازي:٢٠٨/٤ـ ٢٠٩.

أقول: أمّا الجواب الثاني فليس بشيء، فإنّ الاشكال باق، إذ ربّما لايجاب المضطرّ عبر امتداد سنيّ عمره، وأمّا الأوّل فلو صحّ فلا

يصحّ في قوله: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) غافر٦٠، فإنّه ظاهر في الملازمة بين الدعوة والإجابة.

وأجاب ابن عاشور: أنّ الإجابة منوطة بإرادة الله تعالى وحسب ما يقتضيه حال الداعي وما يقتضيه معارضه من أُصول أُخرى، والله أعلم بذلك. التحرير والتنوير:١٩/٢٨٩.

ولو قال: إنّ لاستجابة الدعاء شرائط وقيوداً تعرّضت لها الروايات والأخبار لكان أصرح وأفضل، إذ رُبّ دعاء على خلاف السنّة الإلهية، ورُبّ دعاء ليس لمصلحة الداعي، فعدم الإجابة يستند إلى فقدان شرط من شروط الاستجابة.

وللسيد الطباطبائي هنا جواب آخر، يقول فيه: إنّه سبحانه قيّده بقوله: (إِذَا دَعَاهُ)للدلالة على أنّ المدعو يجب أن يكون هو الله سبحانه، وإنّما يكون ذلك عندما ينقطع الداعي عن عامّة الأسباب الظاهرية ويتعلّق قلبه بربّه وحده، وأمّا من تعلّق قلبه بالأسباب الظاهرية فقط أو بالمجموع من ربّه ومنها، فليس يدعو ربّه وإنّما يدعو غيره، فإذا صدق في الدعاء وكان مدعوّه ربُّه وحده فإنّه تعالى يجيبه ويكشف السوء الذي اضطرّه إلى المسألة، كما قال تعالى:(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) غافر٦٠. فلم يشترط للاستجابة إلاّ أن يكون هناك دعاء حقيقة وأن يكون ذلك الدعاء متعلّقاً به وحده، وقال أيضاً: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ) البقرة:١٨٦.. الميزان في تفسير القرآن:١٥/٣٨١.

وللإمام علي بن الحسين، سيّد العابدين(عليه السلام)، أدعية كثيرة تتّصل بهذه الفقرة من الآية، منها:

قوله (عليه السلام): يا مَن تُحَلُّ به عُقَدُ المكاره، ويا مَن يُفثَأُ به يُفثأُ به: يُسكّن به. حدّ الشدائد، ويا مَن يُلتَمسُ منه المخرَجُ إلى رَوحِ الفَرَجِ، ذلّتْ لقدرتكَ الصّعابُ، وتَسَبَّبتْ بلُطفكَ الأسبابُ... أنت المدعوّ للمهمّات، وأنت المَفزَعِ في المُلمّاتِ، لا يندفع منها إلاّ ما دفعتَ، ولا ينكشفُ منها إلاّ ما كشفتَ.(الصحيفة السجّادية: ٦٧، دعاؤه في المهمّات.)

وقوله: اللّهمّ يا مَن برحمتهِ يستغيثُ المذنبونَ، ويا مَن إلى ذِكرِ إحسانِهِ يَفزَعُ المضطرُّونَ، ويا مَن لخيفَتهِ يَنتحِبُ الخاطئونَ، يا أُنسَ كلِّ مُستوحِشٍ غريب، ويا فَرَجَ كلِّ مكروب كئيب، ويا غَوثَ كُلِّ مخذول فريد، ويا عَضُدَ كُلِّ محتاج طريد. الصحيفة السجادية: ٩٩، دعاؤه (عليه السلام)في الاستقالة والتضرّع في طلب العفو.

٢. خلافة الأرض ومالكيّتها

يظهر من قوله: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ)، أنّه سبحانه جعل الإنسان خليفة له في الأرض لإعمارها، وقد يُراد منه أنّه جعل كلّ جيل من البشر في عصر متأخّر يخلف جيلاً متقدّماً في الزمن، قال تعالى: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)،(هود:٦١.)

فتعلّق السؤال بالذي جهّز الإنسان بمقدرة مادية وعلمية يتمكّن من خلالها من الانتفاع بالأرض، فمن الذي أقدره على ذلك؟ ولذلك يسأل باستفهام إنكاري ويقول: (أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ).

قد تقدّم أنّ المراد بالخلافة هو خلافة الإنسان عن الله الذي وهبه مختلف القوى والاستعدادات اللازمة لإعمار الأرض وإخراج مكنوناتها واستثمار ثرواتها، لكن جلال الدين السيوطي حمل اللفظ على المعنى المصطلح أي السلطة على الناس خلافة من الله سبحانه، واستشهد بالرواية التالية: عن سعد بن جنادة: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): مَن فارق الجماعة فهو في النار على وجهه؛ لأنّ الله تعالى يقول:(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ)فالخلافة من الله عزّ وجلّ، فإن كان خيراً فهو يذهب به، وإن كان شرّاً فهو يؤخذ به. عليك أنت بالطاعة فيما أمر الله به. الدر المنثور:٦/٣٧٣.

أقول: على مثل هذه الرواية وأمثالها بنى جلّ محدّثي مدرسة الخلفاء رأيهم في لزوم إطاعة السلطان الجائر والصبر على ظلمه وطغيانه، مع أنّه سبحانه يقول: (وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا). الكهف:٢٨.

وعلى أساس هذه الروايات المختلقة المخالفة للذكر الحكيم، صوّبوا الحكم الأموي والعباسي وشايعوا حكّامهم الذين خضبوا الأرض بدماء الأبرياء وسوّدوا صحائف تاريخ حياتهم. وقد فصلّنا الكلام في الموضوع في موسوعتنا: بحوث في الملل والنحل. لاحظ : الملل والنحل: ١ / ٢٤١ ـ ٢٥٧، «إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة».

السؤال الخامس(أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.... تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ):

٦٣. (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ):

أُشير في هذا السؤال إلى موضوعين:

١. الهادي في ظلمات البر والبحر.

٢. مرسل الرياح أمام المطر.

أمّا الأوّل فقال فيه سبحانه: (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ): أي في الليل المظلم الذي لا يُرى فيه بصيص من النور، وقد أجاب عنه سبحانه في بعض الآيات بقوله: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) الأنعام:٩٧ فهذا النظام الثابت للنجوم والكواكب في السماء لا يمكن أن يكون من صنع الإنسان ولا من غيره كالأصنام والأوثان، فالله هو الخالق.

وأمّا الثاني فقال فيه سبحانه:(وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ): أي قُدّام رحمته، كما يقدّم الشيء بين يدي الإنسان؟ والمراد بالرحمة هنا المطر لأنّه أثر من آثارها.

وقد أجاب عنه سبحانه في آية أُخرى وقال: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) الأعراف:٥٧.. ثم أتمّ السؤال بقوله: (أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)أي هل ثمّة خالق ومتصرّف مع الله سبحانه في هذا الوجود؟

وهذه الفقرة كنظيرتها دليل على أنّ الإله بمعنى الخالق والمدبِّر أو ما يقوم مقامها من الألفاظ التي تعبّر عمّا في نفوس الناس من معنى الإله.

السؤال السادس(أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

٦٤. (أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ):

هذه الآية تتحدّث عن موضوعين:

١. مَن المبدئ والمعيد؟

٢. مَن الرازق من السماء والأرض؟

أمّا الأوّل فتناولته الفقرة التالية: (أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)، وهي تشتمل على نعمتين : نعمة الإيجاد في الحياة الدنيا، ونعمة إعادة الحياة في الآخرة، فأشار إلى الأوّل بقوله: (أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ) و إلى الثاني بقوله: (ثُمَّ يُعِيدُهُ)، وهناك سؤال وهو: أنّ المشركين لم يكونوا معتقدين بالإعادة، فكيف يؤخذ منهم الاعتراف؟

والجواب: أنّ ما مرّ من الدلائل والحجج الساطعة على قدرته سبحانه في عالم الكون كاف لإثبات قدرته على الإعادة، ولازم ذلك الاعتراف بصدق إخبار الأنبياء بها.

ثم إنّ التعبير بالإعادة من لطائف البيان، حيث يدلّ على أنّه لا بطلان في الوجود وأنّ ما أوجده الله سبحانه سيعيده، وأنّ البعث من قبيل إعادة الموجود لا إعادة المعدوم.

نعم عنوَن الفلاسفة جواز إعادة المعدوم وعدمه، وذهب الأكثر منهم إلى امتناعه قائلاً:

إعادة المعدوم ممّا امتنعا *** وبعضهم فيه الضرورة ادّعى

لكن هذا البحث الفلسفي لا صلة له بالمعاد.

وأمّا الثاني فقد أشار إليه بقوله تعالى:(وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) فإنّ المصدر الأساسي لغذاء الناس هو النباتات (الحبوب والفواكه والخضروات) والحيوانات التي تتغذّى بالنباتات، وهذه تحتاج إلى الماء النازل من السماء، والهواء، وضوء الشمس، والأملاح المعدنية في التربة، وكلّ ذلك من النّعم السماوية والأرضية التي هي من مواهب الخالق القادر الحكيم.

وبعد أن دمغهم بهذا البرهان الدالّ على وحدانيته، وبّخهم بقوله:(أَإِلهٌ مَعَ اللهِ)؟

ثمّ إنّه سبحانه أتمّ الآية بكلمة دُرّيّة وقال: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وهذه الفقرة من الآية تدلّ على أنّ العقيدة الإسلامية تعتمد على البرهان والدليل وفي الوقت نفسه تطلب من الخصم البرهان على صدق ما يتقوّل به، فتكون نتيجة الجميع أنّ على الإنسان أن لا يقبل شيئاً إلاّ بالدليل والبرهان، وقد ذكر الشيخ الرئيس في بعض كتبه: أنّ من خضع لقول قائل بلا دليل ولا برهان فقد خرج عن الفطرة الإنسانية. وبذلك يُعلم أنّ ما اشتهر من تعاليم المسيحية من لزوم الإيمان بالتثليث مجرّداً عن البرهان، على خلاف الفطرة وخلاف العقل الحصيف.

فإذا سئل القُسّ: كيف يجتمع التثليث مع الاعتقاد بالتوحيد؟ لأجاب: يجب عليك الإيمان بالتثليث وإن لم يقم عليه برهان، بل وإن قام على بطلانه.

٦٥. (قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ):

قوله: (أَيَّانَ) مركّب من كلمتين هما: «أيّ» و «آن» فصارت (أيّان) بمعنى متى.

وصياغة هذه الآية تختلف عمّا سبق من الآيات المتقدّمة الّتي كان فيها السؤال على نحو الاستفهام التقريري، ولكن صياغة هذه الآية فاقدة للسؤال، ومع ذلك تُعدّ برهاناً مستقلاً على حصر الربوبية بالله تعالى، ولذلك جعلنا هذه الآية جزءاً من المجموعة السابقة.

وحاصل البرهان: إنّ الله هو الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ولا يوجد في صحيفة الوجود من يعلم الغيب فيهما، غيره، وهذا دليل على أُلوهيته وبطلان أُلوهية غيره كالملائكة، ولو كان أمر الخلق والتدبير بيد هذه الآلهة لَلزمهم الاطّلاع على ما فيهما من الأسرار، ولعلموا وقت الساعة، والمفروض عدمه، فثبت كونهم مخلوقين لا خالقين ولا مدبِّرين، كما يقول: (قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ)والظاهر أنّ المراد من الغيب مطلق ما غاب عن الحسّ، ومنه العلم بيوم الساعة، فقوله: (وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)والضمير في كلا الفعلين يرجع إلى (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)من غير فرق بين المشرك وغيره. وأمّا الاستثناء في قوله: (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلاّ اللهُ) فلا يراد منه كونه سبحانه في السماوات والأرض حتى يلزم التجسيم والجهة، وذلك من وجهين:

١. أنّ مَن قال إنّ لله تعالى مكاناً وجهة زعم أنّه فوق السماوات لا في السماوات والأرض كما هو ظاهر الاستثناء في الآية.

٢. الظاهر أنّ قوله:(مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) بمنزلة مَن يقول: لا يعلم أحد الغيب إلاّ الله سبحانه. وعلى هذا يكون الاستثناء متّصلاً من دون دلالة على كونه سبحانه ممّن في السماوات والأرض، وهذا النوع من الاستثناء شائع، كما في قول القائل: ما أتاني زيد إلاّ عمرو، وما أعانه إخوانكم إلاّ إخوانه، قال ابن مالك: إنّ الأصل فيها: ما أتاني أحد إلاّ عمرو، وما أعانه أحد إلاّ إخوانه، فجعل مكان (أحد) بعض مدلولاته وهو (زيد) و (إخوانكم). روح المعاني:٢٠/٩.

ثمّ لو قلنا بأنّ المراد من الغيب هو علم الساعة كما هو المتبادر من سياق الآيات فالحصر حقيقي، وأمّا لو قلنا بإطلاق الغيب

وشيوعه فالمراد هو العلم الذاتي بلا اكتساب ولا واسطة ولا محدود بحدّ ولا كيف، فهذا النوع من العلم يختصّ بالله سبحانه.

وبذلك يُعلم أنّ ما ربّما يخبر به المرتاضون أو بعض السالكين المكرّمين فلا يُعدّ تخصيصاً للآية وذلك لكون علمهم محدوداً ومكتسباً بالرياضة والسلوك الديني، كما أنّ ما يخبر به المنجّمون من زمني الكسوف والخسوف إنّما هو نتيجة حسابات علمية لا دخل لها بعلم الغيب، فرُبّ طبيب يخبر عن وضع المريض صحّة وسقماً، ومَن قرأ سورة يوسف يقف أنّ فيها أُموراً غيبية أخبر عنها الوالد (يعقوب) والولد (يوسف)، ولا يعدّ ذلك نقضاً لحصر علم الغيب بالله.

٦٦. (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ):

قوله:(بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ) أقول: (ادَّارَكَ): أصله تدارك فأُدغمت التاء في الدال وأُدخلت ألف الوصل في أوّله ليمكن النطق بالساكن الذي بعده، وقد وردت هذه اللفظة بصيغة الجمع في آية أُخرى، قال سبحانه: (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ) الأعراف:٣٨.واتّفق المفسّرون أنّ المراد هنا: تلاحقوا واجتمعوا.

إذا وقفت على ذلك فاعلم أنّه سبحانه يصف منكري البعث بأُمور أربعة:

١. (وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ).

٢. (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ).

٣.(بَلْ هُمْ فِي شَكّ مِنْهَا).

٤. (بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ).

ثمّ إنّ هذه الإضرابات الثلاثة يجب أن تكون إضراباً من الأضعف إلى الأقوى أو من الفظيع إلى الأفظع، وقد شغل بال المفسّرين بيان كيفية الإضراب في المقام، وقيل هنا وجوه نذكر منها ما هو الأظهر:

قد عرفت أنّ لفظة (ادَّارَكَ) بمعنى تلاحقَ وتتابعَ وبلغ النهاية، فعلى هذا فالمراد: تتابع علمهم وتلاحق إلى حدٍّ انتهى ولم يبق منه شيء بشأن الآخرة، وعلى هذا فلفظة (فِي) في قوله: (في الآخرة)بمعنى الباء أي: بل ادّارك علمهم وتلاحق إلى نهايته بالآخرة.

عندئذ يصحّ الإضراب من قوله: (وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) إلى قوله: (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ)، ففي الفقرة الأُولى يصفهم بالجهل، وفي الفقرة الثانية يصفهم بجهل أفحش بمعنى فناء علمهم وانقطاعه وزواله.

لا أقول:إنّ قوله (ادَّارَكَ) بمعنى فنيَ أو انقطع، بل هما لازم تلاحق علمهم ومجيء بعضه مع بعض إلى آخره كما هو الحال في قوله: (حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ): أي إذا تمّ مجيئهم وصاروا مجتمعين. وقريب ممّا ذكرنا ما ذكره السيد الطباطبائي، حيث قال: بأنّ التدارك عبارة عن تتابع أجزاء الشيء بعضها بعد بعض حتى تنقطع ولا يبقى منها شيء، ومعنى تدارك علمهم في الآخرة أنّهم صرفوا ما عندهم من العلم في غيرها حتى نفد علمهم فلم يبق منه شيء يدركون به أمر الآخرة على حدّ قوله تعالى: (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) النجم:٢٩ـ ٣٠. ،(الميزان في تفسير القرآن: ١٥/٣٨٦ـ٣٨٧.) فقوله: (ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ): أي لا علمَ لهم بها كأنّها لم تقرع سمعهم.

نعم هناك وجهان آخران لا بأس بهما لكنهما دون الوجه السابق، وهما:

الأوّل: أنّ (ادَّارَكَ) بمعنى استحكم وتكامل لكن وصفهم به من باب التهكّم بهم كما تقول لأجهل الناس: ما أعلمَك على سبيل الهزء، ومآل التهكّم المذكور نفي علمهم بذلك كما في الوجه السابق لكن على الوجه الأبلغ.

والإضرابان من باب الترقّي من الوصف بالفظيع إلى الوصف بالأفظع.

الثاني: أنّ (فِي الآخِرَةِ) متعلّق بـ(ادَّارَكَ) وعلى هذا استحكمَ علمُهم (فِي الآخِرَةِ) بما جهلوا في الدنيا حيث رأوا ذلك عياناً، وكان

الظاهر أن يقول:«يتدارك» بصيغة الاستقبال إلاّ أنّه جاء بصيغة الماضي لتحقّق الوقوع. مجمع البيان:٧/٤٢٤.

ويؤيّد هذا الوجه قوله: (فِي الآخرة) الذي هو ظاهر في كونه ظرفاً للفعل(ادَّارَكَ)فتكون الفقرة ناظرة إلى الآخرة، لكن الذي يُبعده أنّه على خلاف سياق الآية، فإنّ المتبادر أنّ الأُمور الأربعة كلّها ناظرة إلى الحياة الدنيا بشرط القول بأنّ (فِي) بمعنى الباء كما في الوجه الأوّل.

قوله:(بَلْ هُمْ فِي شَكّ مِنْهَا).

هذه الفقرة من باب الترقّي من الفظيع إلى الأفظع وهو أنّهم وُصفوا في الفقرة السابقة بنفاد علمهم وانقطاعه وزواله بالنسبة إلى الآخرة، لكنّه في هذه الفقرة يصفهم بشيء أفظع وهو أنّه قد قُرع سمعهم بشيء لكن ارتابوا كما يقول: (بَلْ هُمْ فِي شَكّ مِنْهَا) أي من الآخرة.

قوله:(بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ) انتقال إلى الأفظع من السابق وهو أنّهم فاقدو البصيرة، فهم في عمىً عن رؤية البيّنات والدلائل الّتي تهدي إلى الحقّ وترشد إلى الإيمان بالآخرة، وأيّ فظاعة أكثر من أن يضرب الله سبحانه على بصيرتهم.

وهنا نكتة ذكرها الشريف الرضيّ، قال:

وهذه استعارة لأنّ العمى هاهنا ليس يراد به فقد الجارحة المخصوصة وإنّما يراد به التعامي عن الحقّ والذهاب صفحاً عن النظر والفكر، أمّا قصداً وتعمّداً أو جهلاً وعمياً، وإنّما أجرى الجهل مجرى العمى في هذا المعنى ؛ لأنّ كلّ واحد منهما يمنع بوجوده من إدراك الشيء على ما هو عليه، إذ الجهل مضادّ للعلم والمعرفة، والعمى مناف للنظر والرؤية، وإنّما قال سبحانه: (بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ) ولم يقل (عنها) لأنّ المراد أنّهم يشكّون فيها ويمترون في صحّتها فهم في عمىً منها، ولا يصلح أن يكون في هذا الموضع (عنها)، لأنّه ليس المراد ذكر عماهم عن النظر إليها، وإنّما القصد ذكر عماهم بالشكّ فيها، وهذا من لطائف المعاني. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٧٢.

سورة النمل: الآيات ٦٧ ـ ٧٥ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا ... إِلاَّ فِي كِتَاب مُبِين).

الآيات: السابعة والستون إلى الخامسة والسبعين

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْق مِمَّا يَمْكُرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْل عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَة فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَاب مُبِين).

المفردات

ضَيق: حرَج الصدر.

ردف: قال الراغب: الرِّدْف: التابع، والتَّرادُف التتابع، والرادِف المتأخِّر، والمُردِف المتقدّم الذي أردف غيره. قال تعالى: (فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْف مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ) الأنفال:٩..

تُكِنّ: الكِنّ: ما يحفظ فيه الشيء، وخُصّ بما يُستر ببيت أو ثوب.

غائبة: قال الزمخشري: سمّي الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية، فكانت التاء فيها بمنزلتها في العاقبة والعافية والنطيحة والذبيحة والرمية، في أنّها أسماء غير صفات.

التفسير

٦٧ و ٦٨.(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ):

لمّا تقدّم في الآية السابقة موقف المشركين من البعث، عطف عليه ما يحتجّون به على امتناعه، وتضمّنت الآيتان بيانين لهم في هذا المضمار، وعبّر عن المشركين المنكرين بالكافرين، ليكون دليلاً على سبب إنكارهم.

أمّا البيان الأوّل فكما يقول:(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ) فتحوّلُ ترابنا وتراب آبائنا إلى إنسان جديد، أمر محال.

وقد تكرّر منهم هذا القول القائم على التعجّب والاستبعاد في غير واحدة من السور، قال سبحانه: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) يس:٧٨.، وأُجيب عن هذا القول بقوله سبحانه: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْق عَلِيمٌ) يس:٧٩. فالقادر على الإبداء قادر على الإعادة بطريق أَولى.

وأمّا البيان الثاني فهو قولهم:(لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)وحاصل هذه الشبهة: هو أنّ القول بالبعث وإعادة الأموات له جذور في التاريخ، وهو من القصص الخرافية، ولم يزل يُطرح في كلّ عصر، ولكنّنا لم نجد أحداً ممّن مات في العصور الماضية قد بُعث، فهو من قبيل الأساطير والخرافات القديمة.

ثمّ إنّه سبحانه ذكر هاتين الشبهتين في سورة «المؤمنون» باختلاف يسير، قال: (قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) المؤمنون: ٨٢ـ ٨٣..

والموضعان يختلفان في أنّ اسم الإشارة جاء متأخّراً في سورة «المؤمنون»، وتقدّم في سورتنا هذه.

وبما أنّه سبحانه أجاب عن ترّهاتهم في غير واحدة من السور، انتقل إلى تهديدهم بأن يسيروا وينظروا نظر اعتبار إلى آثار المكذبين بالمعاد من قبلهم، وكيف أهلكهم الله ودمّرهم تدميراً. ولعلّ الصورة العملية لنتيجة التكذيب أوقع في النفوس من البرهنة عليها، ولذلك قال:

٦٩.(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ):

أمر الله سبحانه رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يقول لهم: (سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا)إلى عاقبة الذين كذّبوا الأنبياء وكذّبوا بالبعث كما قال: (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) حيث أُهلكوا وبادت مساكنهم وصارت خاوية. وقد جعل السيد الطباطبائي ما ورد في هذه الآية حجّة على المعاد وقال: إنّ

انتهاء عاقبة أمر المجرمين إلى عذاب الاستئصال دليل على أنّ الإجرام والظلم من شأنه أن يؤاخذ عليه وأنّ العمل إحساناً كان أو إجراماً محفوظ على عامله سيحاسب عليه، وإذ لم يقع هذا الحساب والجزاء ـ وخاصّة على الأعمال الصالحة ـ في الدنيا فذلك لا محالة في نشأة أُخرى وهي الدار الآخرة، فتكون الآية في معنى قوله تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) ص: ٢٨.. الميزان في تفسير القرآن:١٥/٣٨٨.

ولا يخفى أنّ ما ذكره يعدّ من البراهين الدالّة على لزوم البعث، وأمّا كون الآية ناظرة إليه فبعيد عن سياقها، بل ظاهر الآية هو التهديد وإراءة مصير المكذّبين.

٧٠. (وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْق مِمَّا يَمْكُرُونَ):

الآية تسلية للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وتطييب لنفسه حيث كان صلوات الله عليه يحرص كلّ الحرص على هداية الناس، ويستشعر الحزن عليهم لرغبتهم عنها، فجاءت هذه الآية توصيه بأمرين:

الأوّل: النهي عن الحزن عليهم فقال: (وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) لأنّك أتممت الحجّة عليهم وأوقفتهم على ما يترتّب على أعمالهم من نتائج، ومثل هؤلاء المُعرضين عن آيات الله ليسوا بأهل لأنْ تغتمّ لأجلهم.

الثاني: أن لا ينتابه القلق من مخططاتهم الكيدية ضد دعوته، ذلك القلق الذي كان يضغط عليه(صلى الله عليه وآله وسلم) فيضيق صدره ممّا يدبّرونه في الخفاء، والله سبحانه يطمئنه من مكرهم ويقول له: (وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْق مِمَّا يَمْكُرُونَ)فالله سبحانه يدمِّر مكرهم ويبطله.

٧١. (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ):

لمّا أنكروا إمكان البعث بالشبهتين الماضيتين، عطفوا على كلامهم السابق تعلّة يتذرّعون بها للإنكار، وهي السؤال عن وقت العذاب كما قال: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ): أي ما أُنذروا به من العذاب، (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). والمتبادر من قولهم: (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) هو وعد الآخرة وعذابها، لكن الآية التالية تدلّ على أنّ المراد هو أعمّ منه، وكأنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)أوعدهم بكلا العذابين فجاءت لتبلغهم، قال تعالى:

٧٢. (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ):

قوله:(قُلْ) أمر للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقول لهم: (عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ): أي قرُب منكم (بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ)ولعلّه إشارة إلى الخسائر الفادحة التي ستصيب قريشاً في غزوة بدر ونحوها. إنّما الكلام في معنى الترجّي في قوله تعالى: (عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ)، فالترجّي هو آية الجهل بوقوع المرجوّ، والله سبحانه منزّه عنه، فكيف جاء في كلامه؟ وقد أجاب عنه الزمخشري بقوله: إنّ عسى و لعلّ في وعد الملوك ووعيدهم تدلّ على صدق الأمر وجدّه، وما لا مجال للشكّ بعده، وإنّما يعنون بذلك إظهار وقارهم وأنّهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أنّ عدوّهم لا يفوتهم، وأنّ الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم، فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده. تفسير الكشّاف:٣/١٥١.

وهناك وجه آخر، وهو التفريق بين المراد الاستعمالي والمراد الجدّي وهو أنّ هذه الأسماء وهكذا ما يدلّ على التمنّي يستعمل حسب الإرادة الاستعمالية في نفس المعنى، لكن الغاية أي المراد الجدّي يختلف، ففي مثله سبحانه الغاية هي الدلالة على المطلوبية، وأنّه يرغب في تحقّق المرجوّ، نظير قوله سبحانه:(فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَة مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)(التوبة:١٢٢.) فأتى بلعلّ في نفس المعنى اللغوي الذي يلازم الجهل، ولكن صار كناية عن كون النفر أمراً مطلوباً ومحبوباً لله سبحانه. وللسيد الطباطبائي بيان آخر، فمن أراد فليرجع إلى الميزان. لاحظ: الميزان في تفسير القرآن:١٥/٣٨٩.

وقبل الانتقال إلى الآية التالية، ننقل كلام الشريف الرضيّ عن معنى (الردف) في الآية حيث قال: وهذه استعارة لأنّ حقيقة الردف هي حمل الإنسان غيره ممّا يلي ظهره على مركوب تحته، والفرق بين الردف والتابع أنّ في التابع معنى الطلب لمرافقة الأوّل وليس ذلك في الردف، فالمراد بقوله تعالى: (رَدِفَ لَكُمْ) هاهنا ـ والله أعلم ـ أي عسى أن يكون العذاب الذي تتوقّعونه قد قرُب منكم وهو في آثاركم ولاحق بكم. وقد قيل أيضاً: إنّ المراد بردف لكم أي رَدِفَكم فصار العذاب في الالتصاق بكم كالمرادف لكم، والمعنى واحد. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٧٢.

٧٣. (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْل عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ):

لمّا كانت هنا مظنّة سؤال وهو: لماذا يُمهل سبحانه هؤلاء ولا يعجّل لهم العذاب، أُجيب عنه بقوله:(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْل عَلَى النَّاسِ): أي متفضّل عليهم بتأخير العقوبة زمناً يُتاح لهم فيه أن يراجعوا أنفسهم، بَيد أنّ أكثرهم لا يعرفون هذه النعمة ولا يشكرونها، إذ في ظل التأخير ربّما يؤمن بعضهم ويدخل في حظيرة الإسلام (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ): أي لا يعرفون قَدْر

هذه النعمة، ويستعجلون بالعذاب.

وقد نبّه الإمام علي بن الحسين، زين العابدين(عليه السلام) إلى هذه النعمة التي تشمل المؤمن أيضاً، بقوله في أحد أدعيته:

وأعجب من ذلك أناتُكَ عنّي، وإبطاؤكَ عن مُعاجلتي، وليس ذلك من كَرَمي عليك، بل تأنّياً منك لي، وتفضُّلاً منك عليَّ لأنْ ارتدعَ عن معصيتك المُسخِطة، وأُقلعَ عن سيّئاتي المُخلِقة، ولأنّ عفوكَ عنّي أحبُّ إليك من عقوبتي. الصحيفة السجادية: ١٠١، دعاؤه في الاستقالة والتضرّع في طلب العفو.

٧٤. (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ):

لمّا دلّ قوله:(وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْق مِمَّا يَمْكُرُونَ) بأُسلوب الكناية أنّه سبحانه يَعِده بالنصر وأنّ مكرهم لا يصل إليه، ونهاه عن الإحساس بالكرب والضيق من مكرهم، أتمّ الوعد في هذه الآية بأنّه سبحانه يحيط بكلّ ما يخفون وما يعلنون وقال: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ): أي ما يضمرونه من أفكار وأعمال(وَمَا يُعْلِنُونَ): أي يظهرون، فالله سبحانه عالم بما يخفون من نوايا سيّئة وما يدبّرون من كيد في الخفاء ضدّ الرسول ودعوته، وما يعلنون، ولكنّه يحفظ رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) من شرورهم جميعاً، وينصر رسالته.

٧٥. (وَمَا مِنْ غَائِبَة فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَاب مُبِين):

قد مرّ في المفردات أنّ الشيء الذي يغيب ويخفى يوصف بالغائبة والخافية، والتاء للمبالغة.

ولمّا تقدّم في الآية السابقة أنّ الله سبحانه عالم بما يظهره الطغاة المجرمون من العداء وما يخفون، انتقل البيان القرآني إلى ضابطة عامّة وهي إحاطة علمه سبحانه بكلّ ما في الكون الغائب والظاهر، وأنّ كلّ ذلك مسطور في كتاب قال: (وَمَا مِنْ غَائِبَة): أي خافية مكنونة (فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)قبل أن تُخلق محفوظة عند الله (فِي كِتَاب مُبِين) والآية دليل على سعة علمه بكل أمر جزئيّ، وأنّ علمه كما يتعلّق بالكليات سبباً يتعلّق بالجزئيات، والتغيير في المعلوم الذي صار بيد بعض الفلاسفة لنفي علمه سبحانه بالجزئيات، مردود بأنّ التغيير في المعلوم لا يوجب التغيير في العلم، وأصرح آية في علمه سبحانه بكلّ أمر جزئيّ ـ وراء هذه الآية ـ قوله سبحانه: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَة إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّة فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْب وَلاَ يَابِس إِلاَّ فِي كِتَاب مُبِين) الأنعام:٥٩..

سورة النمل: الآيات ٧٦ ـ ٨١ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ... فَهُمْ مُسْلِمُونَ).

الآيات: السادسة والسبعون إلى الحادية والثمانين

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ).

المفردات

يقصّ: القَصّ: تتبُّع الأثر، يقال: قصصت أثره، والقصص الأثر، قال تعالى: (وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ) القصص: ١١، والمراد هنا: يتحدّث، فإنّ في التحديث تتبّع الآثار.

يقضي: القضاء: فصل الأمر.

بحكمه: بعدله، لأنّه لا يقضي إلاّ بالعدل.

مسلمون: مخلصون، نظير قوله: (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ)، البقرة:١١٢. أي جعله سالماً لله خالصاً له.

التفسير

٧٦. (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ):

لمّا تقدّم ذكر قصص الأنبياء الخمسة في هذه السورة بين موجز ومفصّل، وأنّ بني إسرائيل يختلفون في هذه القصص خصوصاً فيما يرجع إلى سليمان(عليه السلام)، جاء البيان القرآني بأنّ هذا الكتاب هو المرجع في تصحيح تاريخهم وقصص أنبيائهم ويقول: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ)يحدّث (عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)، فالآية تأمر بني إسرائيل أن يرجعوا إلى القرآن فيما فيه يختلفون من المعارف والأحكام ومسائل العقيدة، نظير اختلافهم في المسيح، فالنصارى يقولون إنّه ثالث ثلاثة، وبعضهم يقول إنّه نبي كسائر الأنبياء، وأمّا اليهود فيتّهمونه بالكذب في دعواه النبوة وينسبون إلى أمّه ما هي منزّهة عنه.

ثمّ إنّهم اختلفوا في الأحكام الفرعية فاليهود على حرمة أكل الخنزير، وقالت النصارى بحلّه، وهذان المقالان أُنموذجان لاختلافهم.

وعلى هذا فالقرآن الكريم هو المرجع في تصحيح ما جاء في العهدين القديم والجديد في التكوين والتشريع والتاريخ، فلو أراد علماء العهدين التصحيح، فعليهم أن يجعلوا القرآن مقياساً لرفع الاختلاف الموجود بينهم، ولذلك يصف سبحانه الكتاب في الآية التالية بقوله:

٧٧. (وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ):

وقد جاءت تلك الآية أيضاً في صدر السورة باختلاف يسير، حيث قال: (هُدًى وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ).

٧٨.(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ):

(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ): أي بين المختلفين(بِحُكْمِهِ) العدل فيفرّق بين الحقّ والباطل (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ): أي عزيز لا يُغلب في قضائه، وعليم لا يفوته الحقّ.

٧٩.(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ):

لمّا سبق في الآية السابقة أنّ الله سبحانه يقضي بين المختلفين في شأن القرآن وشأن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، عاد البيان القرآني إلى تقوية قلب النبي بأن يطمئنّ ويتوكّل على الله ويفوّض تدبير الأُمور إليه فإنّه سبحانه يقضي بعلمه بينه وبينهم، ولكنّه سبحانه قضى للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بشهادة(إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)فمن كان مخالفاً للحقّ الواضح فهو محكوم وغيره حاكم.

٨٠ .(إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ):

يشبّه سبحانه العتاةَ المشركين في هذه الآية وما بعدها بالموتى أوّلاً، وبالصُّمّ ثانياً، وبالعُمي ـ في الآية التالية ـ ثالثاً، والغاية من كلّ هذا هو قطع طمع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في هدايتهم ودخولهم حظيرة الإيمان، ووجه الشَّبه هو عدم انتفاعهم بتذكير النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وتلاوة الآيات، كما لا ينتفع بها الموتى والصُّمّ.

هذا هو ملخص المعنى الجملي للفقرتين، وإليك تفسيرهما:

لمّا تقدّم في الآيات السابقة أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كان حزيناً من تولّي قومه عن دعوته وكان مصرّاً على هدايتهم، أخبره سبحانه بأنّك قد أتممت الحجّة عليهم ولكنّهم لا يهتدون، فدعوة هؤلاء كدعوة الموتى، فكما أنّ الموتى لاينتفعون بالدعوة فهكذا هؤلاء كما قال: (إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى)، ثم شبّههم بالصُّمّ (وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ) إذ لا يسمعون كلامك حتى ينتفعوا به.

وحصيلة الكلام:إنّ هؤلاء قد بلغوا في العناد والعداء والإعراض عن الحقّ درجة تمنعهم من أي تأثّر بآيات الله وبيّناته، فحال هؤلاء حال الموتى وحال الصُّمّ(إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) قَيْد للصُّمّ لا للموتى، فإنّ الأصمّ إذا أدبر وأعطى ظهره لا يمكن أن يفهم شيئاً،

بخلاف ما إذا كان مقبلاً غير مدبر فيمكن أن يفهم من خلال الإشارة أو من حركة الشفتين ببعض الكلمات.

٨١ . (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ):

شبّه سبحانه في الآية السابقة حال هؤلاء المعاندين بالموتى في عدم الانتفاع بكلام الناصح أوّلاً، وبالصمّ في عدم استماعهم ثانياً، وشبّههم في هذه الآية بالعُمي في عدم التمييز، حيث لا يميّزون بين الحقّ والباطل، فهم كالموتى في عدم الانتفاع، وكالصُّمّ في عدم السماع وعدم الفهم والإدراك عند الابتعاد، وكالعميان في عدم التمييز بين الحقّ والباطل.

وفي مقابل هؤلاء هناك طائفة قال عنهم: (إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا): أي كان مستعدّاً للإيمان قلبُه، فاستعدّ لسماع كلمة الحقّ (فَهُمْ مُسْلِمُونَ): أي مخلصون ومسلّمون الأمر لله سبحانه ومنقادون للحقّ.

***

قد عرفت أنّ وجه تشبيه المشركين بالأُمور الثلاثة هو عدم الانتفاع لا عدم السماع بشهادة أنّ الصُّمّ قد يفهمون إذا لم يُدبروا مبتعدين، ولذلك قيّد الحكم بقوله سبحانه:(إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)، فهذه الآيات بمنزلة قوله سبحانه:(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) الأنعام:٣٦..

وكان مقتضى الظاهر أن يقول: والموتى لا يسمعون، ولكن قال: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ). وهذا دليل على أنّ وجه التشبيه هو الانتفاع الذي يعبّر عنه بالاستجابة وعدم الانتفاع الذي يحكم عليه بالعذاب يوم القيامة.

وبذلك يُعلم أنّ استدلال الوهابيّين بهذه الآيات وأمثالها على عدم سماع الموتى واقع في غير مورده، كيف والآيات القرآنية دلّت على أنّ نبيَّين عظيمين تكلّما مع جثث الموتى من قومهما الذين هلكوا بدعائهما عليهم، قال سبحانه حاكياً عن هلاك قوم النبي صالح: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ* فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ).(الأعراف: ٧٨ ـ ٧٩.) ترى أنّ صالحاً يخاطب قومه بعد هلاكهم ويقول: (يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ...).

ونظير ذلك خطاب شعيب في نفس السورة قال سبحانه: (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ* فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ) الأعراف:٩٢ـ٩٣. فكلّ من النبيَّين العظيمين خاطبا قومهما بعد هلاكهم وصيرورتهم جثثاً ملقاة على الأرض. نعم لم يخاطبا الجثث المادّية الفاقدة لكلّ روح، وإنّما خاطبا الأرواح.

وسيوافيك تفصيل ذلك عند تفسير قوله تعالى:(فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ).(الروم: ٥٢.)

ومن أوضح ما يدلّ على سماع الموتى، ما تضافر عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه كان يزور بقيع الغرقد ويخاطبهم بقوله: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية. صحيح مسلم: كتاب الجنائز، الحديث ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤.

وظاهر الآيات والروايات أنّ الخطاب مع روح الميّت المحشور ببدنه البرزخي لا بالبدن المدفون تحت التراب، والخطاب للأموات عند قبورهم رمز للخطاب مع أرواحهم، وبذلك يعلم ضعف ما ذكره ابن تيمية، إذ قال: وقد تُعاد الروح إلى البدن في غير وقت المسألة كما في الذي صحّحه ابن عبد البرّ عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «ما من رجل يمرّ بقبر رجل، الذي كان يعرفه في الدنيا فيسلِّم عليه إلاّ ردّ الله عليه روحه حتى يردّ عليه السلام». مجموعة الفتاوى لابن تيمية: ٤ / ٢٩٥.

ولا يخفى ما فيه، فإنّ معنى ذلك أنّ روح الميّت تعود إلى الجسد إذا سُلّم عليه، فإذا انقطع السلام تخرج منه ثم تعود إليه في المرة الثانية إذا زاره آخر وهكذا، وهذا أشبه بالمهزلة، فبما أنّ القوم لم يتعمّقوا المسائل العقلية وحياة الروح مع الجسد البرزخية، لجأوا

إلى هذا الحلّ مستندين إلى رواية لم تثبت عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

سورة النمل: الآيات ٨٢ ـ ٨٥ (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ... فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ).

الآيات: الثانية والثمانون إلى الخامسة والثمانين

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّة فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ *حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ).

المفردات

وقعَ القول: الوقوع: ثبوت الشيء وتحقّقه، نحو قوله تعالى: (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) الواقعة:١. ووقوع القول: حصول مضمونه، قال تعالى: (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا): أي وجب العذاب الذي وُعدوا به لظلمهم.

دابّة: كلّ ما يدبّ في الأرض ويأكل ويمشي ولا يختصّ بغير الإنسان بل يعمّه، لقوله سبحانه:(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّة).(النحل:٦١.)

فوجاً: الفوج: الجماعة، جمعه أفواج قال تعالى: (يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا) النصر:٢..

يوزعون: يُحبس أوّلهم ليلحق آخرهم لكثرتهم، من قولهم: وزعته أي كففته.

التفسير

تمهيد

إنّ هذه المجموعة من الآيات يحوطها إبهام خصوصاً الآية الأُولى ـ أعني قوله: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ...) ـ حيث إنّها هي الآية الوحيدة في القرآن فلا تجد فيه ما يفسّرها ولذلك بقيت على إبهامها، وأمّا الروايات حولها ففيها من غرائب الأُمور وعجائبها ممّا لا يصدّقه العقل الحصيف، ولا يصحّ لعاقل أن ينسبها إلى النبي الصادع بالحق(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته الطاهرين(عليهم السلام).

أمّا الإبهام حول هذه الآيات فمن أُمور:

١. ما هي هذه الدابّة؟ هل هي حيوان كما يتبادر من لفظة دابّة؟ أو إنسان؟

٢. ما هي أوصافها وخصائصها، حيث وردت في الروايات أُمور غريبة عنها؟

٣. كيف تخرج من الأرض؟

٤. من أي أرض تخرج؟

٥. كيف تستطيع دابّة واحدة أن تكلّم الناس، إذا أُريد به العموم، لا جماعة خاصّة؟

٦. هل تخرج قبل القيامة أو عند وقوعها؟

٧. ما هو المراد بالآيات في قوله: (أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ)... إلى غير ذلك من الأسئلة المطروحة حولها.

من أشراط الساعة

٨٢ . (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ):

سياق الآيات يدلّ على أنّ خروج الدابّة من أشراط الساعة لا عند قيام الساعة، بشهادة أنّه يأتي الحديث عن يوم القيامة في الآية السابعة والثمانين يقول:(وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ).

النمل:٨٧.وعلى هذا فمعنى قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾: أي ثبت وتحقّق ما وعد به من الآيات التي تبيّن لهم الحقّ قبل موعد القيامة، فعندئذ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ﴾، ولعلّ إخراج الدابّة من الأرض ليري الذين ينكرون البعث كيف يحي الله الموتى، وعندئذ كلامها مع الناس آية حلول الوعيد الذي أُنذروا به.

وأمّا قوله سبحانه: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾، فهنا أمران:

١. هل هذا هو من كلام الدابّة؟ أو من كلامه سبحانه؟ ظاهر السياق أنّه من كلام الدابّة، ولكن قوله: ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ يرجّح القول أنّه من كلام الله سبحانه، وأنّه تعليل لوقوع القول عليهم،وذلك بتقدير الباء، أي بسبب أنّ الناس لم يكونوا موقنين بالله سبحانه ولا مطيعين لأوامره ونواهيه.

٢. ما هو المراد بالآيات؟

ذهب السيد الطباطبائي إلى أنّ المراد هو الآيات السماوية والأرضية على ما في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ . فصلت:٥٣، وربّما يقال إنّ المراد هو الآيات القرآنية. الميزان في تفسير القرآن:٣٩٥/١٥.

والظاهر أنّه يراد بالآيات كلّ ما يدلّ على توحيده سبحانه ورسالة أنبيائه وبعث الناس بعد الخروج من الدنيا، وهي بين ما هي آيات كونية أو آيات تشريعية.

هذا هو توضيح الآية حسب ما يمكن، وأمّا الروايات التي وردت حول الآية فلا يمكن الاعتماد عليها، فنرجئ علمها إلى أصحابها. ولقد أحسن العلاّمة الشيخ محمد جواد مغنية إذ قال: أمّا الدابّة فقد كثر الكلام فيها، والله سبحانه لم يبيّن لنا ما هي؟ والحديث عن المعصوم في بيانها لم يثبت، حتى ولو صحّ سنده لم نعمل به لأنّه خبر واحد، وهو حجّة في الأحكام الفرعية، لا في الموضوعات وأُصول العقيدة، والقول بغير علم حرام، فلم يبق إلاّ الأخذ بظاهر الآية الذي يدلّ على أنّ الله سبحانه عند ما يحشر الناس للحساب يُخرج من الأرض مخلوقاً يعلن أنّ الكافرين جحدوا الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته، ونبوّة رسله. التفسير الكاشف:٤٠/٦.

٨٣ . ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾:

رجعة جمع من المكذّبين قبل القيامة

قوله:﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب على تقدير اذكر، أي﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ وهذا حشر خاص قبل حشر جميع الخلق المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾، ومن فسّره بأنّه حشر خاص بعد حشر الجميع فقد خالف السياق، إذ لو كان هذا الحشر بعد قيام القيامة فما وجه ذكره هنا؟ بل كان عليه أن يؤخّره. ولمّا كانت الآية من أدلة القول بالرجعة في الدنيا، نرى أنّ المخالف يجهد في ذكر وجه للتقديم.

والدليل على أنّ هذا الحشر قبل حشر الجميع، مضافاً إلى أنّ ذكر حشر الجميع يأتي في الآيات اللاحقة، هو قوله: ﴿ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾فيخصّ الحشر بجماعة خاصّة، ولو كانت الآية ناظرة إلى يوم القيامة

لما كان معنى لقوله: ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ فإنّ الحشر يوم القيامة يتعلّق بالجميع، قال سبحانه: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ الكهف:٤٧..

ثمّ إنّ «مِنْ» في قوله: ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ للتبعيض ولكنّها في قوله: ﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾للتبيين، مثلها في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ الحج:٣٠.. والمراد بالآيات كلّ ما أقامه لهم من دلائل وبيّنات دالّة على قدرته على الخلق والإعادة.

ثمّ إنّ بعد الحشر ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي تمنعهم الملائكة من الذهاب يمنة ويسرة، فالآية تدلّ على أنّ المكذّبين بآيات الله من كلّ

أُمّة يُحشرون قبل حلول يوم القيامة.

والآية تدلّ على رجعة أفواج من المكذِّبين إلى هذه الدنيا قبيل يوم القيامة فقط، وأمّا رجعة جماعة من المؤمنين المخلصين إلى هذه الدنيا فالآية ساكتة عنه، فلابدّ إذاً من الرجوع فيه إلى الروايات.

٨٤ . (حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

قوله: (حَتَّى إِذَا جَاءُوا): أي حضروا في موضع الخطاب فيخاطبون بالقول: (أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي)التي دلّت على التوحيد وإرسال الرسل والبعث في يوم القيامة إلى غير ذلك ممّا يدلّ على مسؤولية الإنسان أمام الله سبحانه: (وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا) جملة حالية، أي: كذّبتم بالآيات حال عدم إحاطتكم بها علماً، لأجل تولّيكم وإعراضكم عن سماعها أو التدبّر فيها(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ): أي بأيّ شيء كنتم تشغلون أنفسكم غير التكذيب؟

٨٥ . (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ):

بما أنّ المكذّبين صاروا مُدانين في المحكمة الإلهية، فقد صدر الحكم عليهم بالعذاب في هذا الحشر كما يقول: (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا): أي حقّ عليهم العذاب في الدنيا قبل يوم القيامة بسبب ظلمهم حيث كذّبوا بما أظهر لهم من آيات وبيّنات دالّة على الحق (فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ): أي لم يكن عندهم اعتذار وجواب عمّا حكم به عليهم.

وأمّا ما هو مصير هؤلاء في هذا الحشر فالآية ساكتة عنه.

كلام في الرجعة

ما ذكرنا هو حصيلة الآية، وقد قلنا: إنّ الآية تدلّ على حشر المكذِّبين وتقريعهم وتعذيبهم قبل وقوع يوم القيامة، وأمّا رجوع قسم من المؤمنين المخلصين، فالآية ساكتة عنه.

ثمّ إنّ الرجعة بمعنى أنّ الله تعالى سيعيد عند قيام الإمام المهدي(عج) قوماً ممّن تقدّم موتهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ويبتهجوا بظهور دولته، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم وينالوا بعض ما يستحقّونه من العقاب بالقتل أو الذلّ والخزي بما يشاهدون من علوّ كلمته، أمر مقدور لله سبحانه. نعم ليس كلّ مقدور واقع.

أمّا أنّه مقدور وواقع في الأُمم السابقة فيكفي للتدليل عليه ما يلي:

١. إحياء نبيّ الله عُزير(عليه السلام)، قال تعالى: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَة وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَام ثُمَّ بَعَثَهُ...). البقرة:٢٥٩.

٢. إحياء جماعة خرجوا من ديارهم خوفاً من الموت، قال سبحانه: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْل عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ) البقرة:٢٤٣.

٣. إحياء المقتول من بني إسرائيل، قال سبحانه:(وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ). البقرة:٧٢ـ ٧٣.

٤. إحياء مَن كان مع موسى(عليه السلام) في الميقات، قال تعالى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ). البقرة:٥٥ـ٥٦.

٥. إحياء الموتى بالإعجاز، حيث زوّد الله سبحانه المسيح(عليه السلام) بمعاجز منها إحياء الموتى، كما يقول: (وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي). المائدة:١١٠.

وهذه الآيات تدلّ على إعادة الموتى إلى الحياة الدنيا لغاية من الغايات، إنّما الكلام في وقوعها في الأُمّة الإسلامية.

فالمرجع هنا هو الروايات الكثيرة عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) وقد جمعها العلاّمة المجلسي في الجزء الثالث والخمسين من موسوعة «بحار الأنوار»، وإجمال القول في الرجعة ما في قول الإمام الصادق(عليه السلام): «إنّ الرجعة ليست بعامّة، وهي خاصّة، لا يرجع إلاّ مَن مَحَض الإيمان محضاً، أو محض الشرك محضاً». بحار الأنوار:٣٩/٥٣.

ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب المؤلّفة في هذا الموضوع.

هذا، وللسيد الآلوسي اعتراضات على مسألة الرجعة، نأتي بها مع التحليل:

الأوّل: يقول: إنّ أوّل من قال بالرجعة عبد الله بن سبأ ولكن خصّها بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتبعه جابر الجعفي في أوّل المئة الثانية فقال برجعة الأمير كرّم الله تعالى وجهه أيضاً لكن لم يوقّتها بوقت، ولمّا أتى القرن الثالث قرّر أهله من الإمامية رجعة الأئمة كلّهم وأعدائهم وعيّنوا لذلك وقت ظهور المهدي، واستدلّوا على ذلك بما رووه عن أئمّة أهل البيت. روح المعاني:٢٧/٢٠.

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّ أوّل من قال بالرجعة هو عمر بن الخطاب، حيث روى ابن إسحاق: قال الزهري: وحدّثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: لمّا توفّي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قام عمر بن الخطّاب فقال: إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قد تُوفّي، وإنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ما مات، ولكنّه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كما رجع موسى، فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)]قد [مات. السيرة النبوية لابن هشام:٦٥٥/٤.

وثانياً: أنّ ما نسبه إلى عبد الله بن سبأ أمر فنّده المحقّقون، وأنّ الرواية سندها مظلم ينتهي إلى يزيد الفَقْعسي (وهو مجهول ذاتاً ووصفاً)، وفي طريقه سيف بن عمر ذلك الرجل الضعيف الكذّاب. انظر: الأسطورة السبئية للسيد مرتضى العسكري:٤١/١، وواحة اليقين لحيدر الطحان البغدادي:١٥٠ـ ١٥١.

وثالثاً: أنّ ما نسبه إلى الإمامية من أنّهم قالوا بالرجعة في القرن الثالث يردّه ما روي فيها عن الباقر والصادق (عليهما السلام)، وأنّ القول بالرجعة يستند إلى ما روي عن هذين الإمامين في القرن الثاني.

الثاني: أنّه سبحانه يوبّخ هؤلاء(مِنْ كُلِّ أُمَّة فَوْجًا) على تكذيبهم بآياته سبحانه (مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا) والمعروف من الآيات لمثل ذلك هو يوم القيامة.

يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره استحسان لا يعادل السياق، فأيّ مانع أن يوبّخهم سبحانه في الرجعة التي هي من أشراط الساعة بمثل ما يوبّخهم يوم القيامة؟

الثالث: الظاهر استمرار حياتهم وعذابهم بعد هذا الحشر ولا يتسنّى ذلك إلاّ إذا كان حشر يوم القيامة.

يلاحظ عليه: أنّ الآية ساكتة عن استمرار حياتهم أو موتهم ولا دليل على بقائهم أحياء إلى يوم القيامة.

الرابع: أنّ في الرجعة راحة لهؤلاء في الجملة حيث يفوت به ما كانوا به من عذاب البرزخ الذي هو للمكذّبين كيف ما كان أشدّ من عذاب الدنيا.

يلاحظ عليه: أنّ الغرض من حشر هؤلاء هو الانتقام منهم فينالوا بعض ما يستحقّونه من العقاب بالقتل على أيدي شيعته أو الذلّ والخزي بما يشاهدون من علوّ كلمته. ومن أين علم المعترض بأنّ العذاب البرزخي هو أشدّ من هذا؟

الخامس: أنّ في الآيات ما يأبى، ذلك منه قوله تعالى:(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِي مَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) المؤمنون:٩٩ـ١٠٠..

يلاحظ عليه: أنّ الآية التي ذكرها ناظرة إلى ردّ مَن طلب الرجوع إلى الدنيا، وأمّا مَن يرجعون في الرجعة فهم الذين أراد الله

رجوعهم إلى الدنيا، فالموضوع في المرحلتين مختلف. على أنّك قد عرفت فيما سبق رجوع جماعة كثيرة بعد الموت إلى الدنيا، فتكون هذه الآيات كالمخصّصة لما دلّ على عدم الرجوع.

وحصيلة الكلام: إنّ ما هو المتّفق عليه من الرجعة هو رجوع طائفة من الصالحين والطالحين إلى الدنيا عند ظهور الإمام المهدي(عج) للترحيب أو التعذيب، وأمّا ما وراء ذلك فليس مورد إجماع ولا اتّفاق.

سورة النمل: الآيات ٨٦ ـ ٩٠ (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ... هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

الآيات: السادسة والثمانون إلى التسعين

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ * وَتَرى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

المفردات

مبصراً: مضيئاً للأبصار. قال الشريف الرضي: والمراد بوصف النهار بالإبصار، إبصار أهله فيه. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٧٤.

الصُّور: مثل قَرن يُنفخ فيه، فيجعل الله ذلك سبباً لعود الأرواح إلى أجسامها.

ففزع: الفَزَع: انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الجزع، ولا يقال: فزعتُ من الله، كما يقال: خِفتُ منه.

داخرين: أذلاّء صاغرين.

جامدة: ثابتة في مكانها.

أتقنَ: أحكمَ، يقال: رجل تِقْن ـ بكسر التاء وسكون القاف ـ أي حاذق بالأشياء.

كُبّتْ: أُلقيت منكوسة.

التفسير

٨٦ . (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ):

هل الآية ناظرة إلى التوحيد في التدبير، أو ناظرة إلى إمكان المعاد، أو إلى كليهما؟

أمّا الأوّل، فيقال فيه: إنّ تعاقب الليل والنهار، الذي يشهد بدقّة النظام ولطف التدبير، هو ضروري للحياة، حيث جعل سبحانه الليل مظلماً حتى يسكن فيه الإنسان ويخلد إلى الراحة والنوم ليستعيد نشاطه الجسمي والذهني، كما قال:(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ)مظلماً (لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ) جعلنا (النَّهَارَ مُبْصِرًا)مضيئاً ليعمل فيه الإنسان ويكدّ من أجل القيام بتكاليف استخلافه في الأرض من تنمية حياته وترقيتها وعمارة الأرض واستثمار القوى المختلفة في هذا الكون (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)فالإنسان من جانب موجود حيوي يحتاج في حياته إلى تحصيل أُمور يقيم بها حياته وهي فرع وجود النور، ومن جانب آخر يحتاج إلى السكون والهدوء حتى يستريح من تعب الأعمال اليومية، فالله سبحانه جعل الليل مظلماً لتلك الغاية، والنهار مبصراً للغاية الأُخرى، فحياة الإنسان وبقاؤه بيد المدبّر سبحانه فهو أَولى بالعبادة. وهذه الآيات لا يدرك دلالاتها إلاّ الذين يملكون الاستعداد للإيمان بالحقّ إذا قادتهم الأدلّة إليه.

وأمّا الثاني، فيمكن أن يقال فيه: إنّ تعاقب النور والظلمة على وجه مخصوص لا يكون إلاّ بقدرة قادرة، وإنّ من قدر على إبدال

الظلمة بالنور في مادة واحدة قدر على إبدال الموت بالحياة في مواد الأبدان. روح المعاني:٢٠/٢٩.

٨٧ . (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ):

مقدّمات القيامة

يظهر من مجموع الآيات الواردة حول مقدّمات القيامة، وجود النفخات الثلاث:

الأُولى: النفخ في الصور عند نهاية الدنيا وقبل القيامة، وفيها يفزع مَن في السماوات والأرض إلاّ مَن شاء الله. وإلى هذا يشير قوله سبحانه: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ): أي خاف وذُعر (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ)خائفاً من الله سبحانه.

الثانية: النفخة المميتة وهي نفخة الصّعق التي يموت الجميع من سماعها، وسمّيت أيضاً بالصيحة.

الثالثة: نفخة البعث وقيام القيامة، وهي التي يحيا الناس بها جميعاً. وإلى النفختين الأخيرتين يشير قوله سبحانه: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ). الزمر:٦٨.

وبما أنّ هذه الآية بصدد البيان، ولم تتحدّث إلاّ عن نفخة واحدة قبل القيامة، فيمكن أن يقال بوحدة النفخة الأُولى مع الثانية، فقوله سبحانه: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ)يحتمل أن يكون ناظراً إلى النفخة الأُولى أو إليها وإلى الثانية بناءً على وحدتهما .

ثمّ إنّه سبحانه يستثني ممّن يفزع بقوله: (إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللّهُ) والظاهر أنّ المراد من الموصول مَن يأتي في الآية (٨٩) أعني قوله: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَع يَوْمَئِذ آمِنُونَ)، لكن قوله سبحانه: (وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ): أي أذلاّء، يحكي عن حشر الجميع من غير فرق بين المستثنى والمستثنى منه على صورة الذلّ، وعندئذ يقع السؤال: كيف تشمل الذلّة عباد الله الصالحين؟

يقول السيد الطباطبائي في الجواب عن هذا السؤال: ونسبة الدخور و الذلّة إلى أوليائه تعالى لا تنافي ما لهم من العزّة عند الله، فإنّ عزّة العبد عند الله ذلّته، وغناه بالله فقره إليه. نعم ذلّة أعدائه بما يرون لأنفسهم من العزّة الكاذبة ذلّة وهوان.(الميزان في تفسير القرآن: ١٥/٤٠٠.)

ثمّ إنّه يقع الكلام في الجمع بين قوله: (وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) الدالّ على رجوع جميع مَن في السماوات والأرض حتى المستثنين من حكم الفزع وحضورهم عنده تعالى، مع قوله: (فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللّهِ الْمُخْلَصِينَ) الصافات:١٢٧ ـ ١٢٨ .حيث إنّ ظاهره خروج عباد الله المخلَصين عن الحضور.

ويمكن الجواب: أنّ آيتنا هذه ناظرة إلى البعث، والحضور بهذا المعنى يعمّ الجميع، وأمّا ما في سورة الصافات فهو ناظر إلى الحضور للحساب والسؤال، والمخلَصون مستثنَون عنه.

٨٨ . (وَتَرى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْء إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ):

تعرض هذه الآية لأحد المظاهر الّتي تتجلّى فيها قدرة الله تعالى، ولكنْ هل الآية ناظرة إلى التوحيد في التدبير، ومن ثمّ تكون آية معجزة تحكي عن حقيقة كونية علمية كشف عنها الفلكيون في العصور الأخيرة، أو ناظرة إلى مقدّمات القيامة، والّتي جاء مضمونها في آيات أُخرى نظير قوله: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)، الكهف:٤٧. وقوله: (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا)؟ الطور: ٩ـ١٠.

وممّا يؤيّد الوجه الثاني سياق الآيات، حيث إنّ الآية المتقدّمة تتضمّن نفخ الصور وإحياء الموتى فتكون قرينة على تفسير هذه الآية بنحو يناسب الحوادث الطارئة يوم البعث.

ومع ذلك فالقول الأوّل هو الأقوى بشهادة الأُمور التالية:

أوّلاً: أنّ قوله: (وَ تَرى الْجِبَالَ) عطف على قوله: (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ) فكما أنّ الآية ناظرة إلى بيان النظام البديع الكاشف عن وحدة المدبّر، فهكذا هذه الآية.

وثانياً: لو أُريد من الآية ما ورد في الآيات الأُخرى من صيرورة الجبال كالعهن المنفوش، لماذا عبّر عنه بقوله: (وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)؟

وثالثاً: أنّه سبحانه يخاطب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً): أي ساكنة (وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) وظاهر الخطاب أنّ ظرف الرؤية هو الدنيا في حياة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لا يوم القيامة.

ورابعاً: أنّ ذيل الآية يصف الجبال بـ(صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْء)وهذه الفقرة لا تناسب أحداث يوم القيامة، إذ فيه تدبير للصنع.

إذا عرفت ذلك فلو قلنا بأنّ الآية تدلّ على حركة الأرض حركة دورانية أو انتقالية فليس ببعيد. وسرعة حركة الأرض في الحركة الدورانية يقرب من (٣٠) كيلومتراً في الدقيقة، ومعدّل سرعة حركتها حول الشمس يقدّر بـ(١٠٧/٢٠٠)كيلومتر في الساعة. ومن المعلوم أنّ حركة الجبال لا تنفكّ عن حركة الأرض، وعلى هذا فالأرض مع جبالها تتحرك وتمرّ مرّ السَّحاب في دورة يوميّة حول نفسها، وفي دورة سنوية حول الشمس، من دون إحراج للساكن.

ولا شكّ في أنّ سبق القرآن بالإشارة إلى هذه الحقيقة التي كشف عنها الفلكيّون وعلى رأسهم غاليلو الإيطالي(المتوفّى ١٦٤٢م) في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، يثبت بنحو جازم أنّه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنّ النبيّ الأُمّي تلقّاه من ربّه بوساطة الوحي، كما قال سبحانه مخاطباً نبيّه الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم): (وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيم عَلِيم) النمل:٦..

وأمّا قوله في ذيل الآية: (إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) فهو وإن كان قرينة ضمنية على أنّ الآية راجعة إلى يوم القيامة، ولكن يمكن تفسيره بشكل آخر، وهو أنّ القادر على خلق الجبال والقادر على تسييرها سيراً سُجُحاً، قادر على الوقوف على أعمالكم، وعالم بما يصدر منكم.

٨٩ . (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَع يَوْمَئِذ آمِنُونَ):

لمّا تقدّم بيان حال الخلائق عند نفخ الصور في قوله سبحانه: (فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللّهُ)، جاءت هذه الآية لبيان المستثنى، وأنّ الإتيان بالحسنة كما قال: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ)أيّة حسنة كانت، يترتّب عليه أمران:

الأوّل: (فَلَهُ خَيْرٌ): أي جزاء خير من حسنته، لأنّ الله سبحانه يزيده من فضله وإحسانه، كما قال: (فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) الأنعام:١٦٠..

الثاني: ما أشار إليه بقوله: (وَهُمْ مِنْ فَزَع يَوْمَئِذ آمِنُونَ) فقد قضت مشيئته سبحانه بطمأنينتهم من أيّ شيء مخيف. وروي في الخبر أنّ الشهداء من جملة الخلق الذين لا يفزعون ذلك اليوم. التبيان في تفسير القرآن:٨/١٢٣.

٩٠. (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

لمّا دلّت الآية السابقة على مصير مَن جاء بالحسنة، دلّت هذه الآية على مصير مَن جاء بالسيئة، فهؤلاء هم الذين تمحّضوا للسيئات كالمشركين والكافرين أو غلب شقاؤهم وما يقترفون من جرائم على أعمالهم، فمصير هؤلاء كما يقول: (فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ) نسبَ الكبّ إلى الوجوه لأنّها أوّل ما يصل من الإنسان إلى الأرض عند الكبّ والنَّكس، فمعنى الآية: فكبّوا في النار على وجوههم.

ولمّا كانت هناك مظنة سؤال، وهو أنّ هذا الجزاء هل يوافق عدله سبحانه؟ يقول تعالى:(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) عدل من الغيبة إلى الخطاب تبكيتاً وتقريعاً. وحاصل الجواب: إنّ جزاءهم هذا هو نفس عملهم المجسّم في الآخرة، وكأنّ لعقائدهم وأعمالهم ظهورَين: ظهور في الدنيا، وظهور في الآخرة، فالانكباب على الوجوه في النار وجود تمثيلي لجرائمهم التي ارتكبوها في الدنيا.

سورة النمل: الآيات ٩١ ـ ٩٣ (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ ... وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

الآيات: الحادية والتسعون إلى الثالثة والتسعين

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

المفردات

البلدة: هي مكّة المكرّمة.

أتلوا القرآن: أي على الناس لغاية الهداية.

من المنذرين: من المخوّفين.

التفسير

٩١. (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ):

تضمّنت الآيات السابقة كثيراً من مطاعن المشركين كما تضمّنت الدلائل الواضحة الدالّة على التوحيد والبعث والوعيد، فجاء البيان القرآني كالختام للسورة وفصل الخطاب، حيث أمر الله سبحانه نبيّه في هذه المجموعة من الآيات بأُمور أربعة وهي:

١. عبادة ربّ البلدة الحرام.

٢. أن يكون في عداد المسلمين.

٣. أن يتلو القرآن على الناس.

٤. أن يحمد الله سبحانه الذي له كلّ المحامد.

وإليك تفاصيل هذه الأُمور.

قوله تعالى: (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ) هذا هو الأمر الأوّل الذي أمر به الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان اللازم أن يقول: أن أعبد ربّ العالمين، ولكن خصّ رب البلد الحرام بالذكر لينبّه قريشاً إلى النعمة التي أنعمها الله عليهم حيث أسكنهم في هذه البلدة التي لها شؤون خاصّة، وإليها يرجع كلّ ما يفتخرون به، ولو جُرّدوا عنها لم يكن لهم أيّة مفخرة، ومع ذلك أعرضوا عن عبادة ربّ هذه البلدة وعكفوا على عبادة الأصنام. ثم إنّه سبحانه يشير إلى تشريف هذه البلدة بوجهين:

١. ما سبق، حيث أضاف الرب إلى البلدة.

٢. ما أشار إليه بقوله: (الَّذِي حَرَّمَهَا)، فعن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال:«ألا إنّ الله قد حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لا يُنفّر صيدها، ولا يعضد شجرها، ولا يختلي خلالها، ولا تحلّ لَقطتُها إلاّ لمنشد». الكافي:٤/٢٢٦.

وروى ابن هشام أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) خطب في حجّة الوداع وقال: «هل تدرون أيّ بلد هذا؟ قال: فيصرخ به، قال: «فيقولون البلد الحرام، قال: فيقول: قل لهم: إنّ الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقَوا ربّكم كحرمة بلدكم

هذا». السيرة النبوية لابن هشام:٢/٦٠٥.

ولمّا كان ثمّة توهّم أنّه سبحانه يملك البلدة فقط، دفع هذا التوهّم بقوله:(وَلَهُ كُلُّ شَيْء).

قوله تعالى: (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ): أي من الذين أسلموا لله بتوحيده وإخلاص العبادة له، واستسلموا له. وهذا هو الأمر الثاني، ولم يقل: وأمرت أن أكون مسلماً، لأنّ المقصود أن يكون في عداد المسلمين كما قاله إبراهيم الخليل(عليه السلام): (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ). الأنعام:١٦٢ـ١٦٣.

٩٢. (وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ):

أمره سبحانه بتلاوة القرآن على رؤوس الأشهاد لا لنفسه بشهادة ذيل الآية من أنّ الغاية هداية الناس. وهذا هو الأمر الثالث الذي أُمر به(صلى الله عليه وآله وسلم)، والفرق بين القراءة والتلاوة أنّ الأُولى رهن وجود مكتوب يرتله القارئ وفق المتن، سواء أكان المكتوب أمام عينيه أو رآه وحفظه ويقرأ على وفقه، ولولا المكتوب السابق لما صدقت عليه القراءة، ولا يصحّ الأمر بالقراءة بدونه(وسيمرّ توضيحه في تفسير سورة العلق)، بخلاف التلاوة فإنّها تتحقّق بكلتا الصورتين. وبما أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عندما قرأ وفق الصحيفة التي أراه جبرئيل إيّاها أمره سبحانه بقوله:(إقرأ) وأمّا المقام فإنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ في مقام التبليغ ـ يقرأ عن حفظ القلب ولذلك قال:

(وَ)أمرت (أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ) وأمّا ما هي الغاية من التلاوة، فأشار إليها بالأمرين التاليين:

١. (فَمَنِ اهْتَدَى) إلى الحقّ والعمل بما فيه(فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ)وليس له المنّة عليّ لأنّه ينتفع بهدايته.

٢. (وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ) سياق الآية يقتضي أن يقول: (وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)، كما في قوله سبحانه: (فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) يونس:١٠٨، الإسراء:١٥. وإنّما عدل عن هذا التعبير، فكأنّه إشارة إلى ما سبق في السورة نفسها بقوله:(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) النمل: ٧٩ ـ ٨٠ .ويحتمل أن يكون وجه العدول هو الإشعار باستمرار الإنذار، وأنّه لا يتركهم بمجرّد أنّه ليس له عليهم سلطان.

ويدلّ على ذلك قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيل). الزمر:٤١.

٩٣. (وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِل عَمَّا تَعْمَلُونَ):

هذا هو الأمر الرابع، حيث أمره سبحانه بحمد الله سبحانه الذي له المحامد كلّها (وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ)، وما من محمدة لغيره إلاّ وهي في الحقيقة محمدة لله سبحانه، حيث إنّ كلّ جمال وكمال في غيره ويوجب تكريمه، فإنّما هو نابع من جماله وجلاله.

ولمّا كان قوله: (أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ) يوهم أنّه سبحانه سيتركهم في المستقبل، جاءت الآية لإيعادهم وإنذارهم، وقال: (سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ)، فهل المراد بها الآيات الدالّة على توحيده التي وردت في قوله سبحانه: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْء شَهِيدٌ) فصلت:٥٣، أو المراد آيات العذاب، وقد أراهم الله سبحانه تلك الآيات في الفترة المدنية، وعندئذ يعرفون صدق دعوتك وصحّة رسالتك؟ ويؤيّد الاحتمال الثاني قوله: (وَمَا رَبُّكَ بِغَافِل عَمَّا تَعْمَلُونَ) ؛ بل هو على كلّ شيء شهيد، فالفقرة تتضمّن الإنذار والتهديد والوعيد، فيناسب أن يكون المراد بالآيات آيات العذاب، وفي الوقت نفسه تستهدف هذه الفقرة تطييب نفس النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وتعزيز روحه.

***

تمّ تفسير سورة النمل

www.quraniyat.net

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين سورة القصص

٢٨سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ
وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ
اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا
يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ
قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ
لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ
الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ
وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
(١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ
شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ
نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ
خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ
لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ
(٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ
السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا
نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)
فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ
نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ
اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) فَلَمَّا قَضَى مُوسَى
الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)
وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي

جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي
إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا
الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى
رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)
وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
(٤٣) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ
وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ
يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا
أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ
(٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا
وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ
الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
(٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ
رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ
شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ
مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ
حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ
فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ
عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ
غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا
إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا
تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ
عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ
الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ
فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ
نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى
وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا
يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة في المصاحف والتفاسير بسورة «القصص»، أخذاً من قوله تعالى:(وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ) القصص:٢٥، والقَصص: الأخبار المُتَتَبَّعة. وهي أحد الطواسين ورد في «تاج العروس»٣٥٦/١٨: قال أبو حاتم: طس و حم لا تُجمع إلاّ على ذوات طس، وذوات حم، ولا تقل طواسين وحواميم. وأنشد:

وجدنا لكم في آل حم آية *** تأوّلَها منّا تقيٌّ ومُعربُ الثلاثة المترتّبة في المصحف وهي: الشعراء، النمل، القصص.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

وآياتها ثمان وثمانون آية في عدّ الجميع.

وهي مكيّة، وتشهد لذلك مضامينها.

نعم روي أنّ آيةً منها، وهي قوله سبحانه: (إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاد) القصص:٨٥. نزلت بالجحفة في طريق هجرة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة، ولكن هذا لا ينافي كونها مكّية ؛ لأنّ المراد بالمدنيّة هو ما نزل بعد الاستقرار في المدينة، والآية نزلت قبل أن يدخلها(صلى الله عليه وآله وسلم).

أغراض السورة

إنّ ظاهر قوله سبحانه في صدر السورة:(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)،يشير إلى أمرين:

١. أنّ جماعة من المسلمين طلبوا من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بيان قصّة موسى(عليه السلام)مع طواغيت عصره فوافاهم الجواب بالآية المذكورة.

٢. أنّ حال المسلمين في الفترة المكيّة كانت أشبه بحال بني إسرائيل وهم في مخالب الفراعنة، فكما أنّه سبحانه كتب للمستضعفين يومذاك النجاة، وللظالمين العتاة الهلاك، فهكذا يكتب النجاة والسلامة لمستضعفي مكّة، والهلاك لصناديد قريش وطواغيتهم، ولذلك نرى أنّ قصة موسى(عليه السلام)مع فرعون تستوعب نصف هذه السورة أو أكثر، وفي ثناياها جميعاً عِبَر وعظات وتهديد ووعيد.

هذا، وقد جاءت قصة موسى(عليه السلام) على وجه التفصيل ـ بالإضافة إلى هذه السورة ـ في سورتي: الشعراء، والأعراف.

ومن لطيف الأمر أنّه سبحانه ابتدأ كلامه في هاتين السورتين (الشعراء والقصص) بقصة موسى مع الفراعنة، وكلتا السورتين ـ كما قلنا ـ من الطواسين.

نعم، سيقت قصة موسى(عليه السلام) في المقام إلى هلاك فرعون. وأمّا قضاياه(عليه السلام) مع بني إسرائيل بعد ذلك فقد وردت في سورة الأعراف من قوله: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ) الأعراف: ١٣٨. إلى قوله: (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً).(الأعراف: ١٥٥.)

واحتوت هذه السورة أيضاً قصة قارون وكبْره وطغيانه بثروته وتبجّحه بكنوزه، كما اشتملت السورة على دروس في التوحيد والمعاد وحال المشركين في يوم القيامة، إلى غير ذلك من الموضوعات.

سورة القصص: الآيتان ١ ـ ٢ (طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ).
الآيتان: الأُولى والثانية
(طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ).
التفسير

١. (طسم):

قوله تعالى:(طسم) من الحروف المقطّعة التي افتتحت بها غير واحدة من السور، وقد عدّت آية في سورة الشعراء وفي المقام، دون سورة النمل، والمختار عندنا هو أنّ هذه الحروف إشارة إلى أنّ القرآن مؤلَّف من هذه الحروف وهي في متناول الجميع، فلو صحّ قول المشركين أنّ القرآن من صنع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)فليقوموا بالإتيان بسورة من مثل هذه السور. والذي يؤيّد أنّ هذا هو المراد، هو ذكر الكتاب العزيز بعد هذه الحروف في أكثر السور المشتملة على الحروف المقطّعة، وفي المقام قوله تعالى:

٢. (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ):

قوله:(تِلْكَ آيَاتُ)إشارة إلى ما سيأتي في هذه السورة، والمراد بـ (الْكِتَابِ الْمُبِينِ) هو القرآن العزيز.

نعم، ربّما يطلق الكتاب المبين على اللوح المحفوظ كما في قوله تعالى:(وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَاب مُبِين) يونس:٦١.وأمّا قوله (المُبِين)فلو كان لازماً فبمعنى واضح الدلالة وواضح المفهوم، ولو كان متعدّياً فبمعنى أنّه يبيّن طريق النجاة والسعادة لمن يريدها.

سورة القصص: الآيات ٣ ـ ٦ (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ... مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ).
الآيات: الثالثة إلى السادسة
(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْم يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ).

المفردات

نبأ: النبأ: الخبر العظيم أو العجيب.

علا: تجبّر وتكبّر.

شيَعاً: فرَقاً وطوائف متباينة في ميولها ونزعاتها.

يستضعف: يجعلهم ضعفاء مقهورين.

يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم: أي يقتل الأبناء ويستبقي البنات.

نمنّ: نتفضّل.

أئمّة: جمع إمام، وهو من يُقتدى به.

يحذَرون: يخافون من ذهاب مُلكهم.

التفسير

٣. (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ):

تقدّم أنّ السورة تضمّنت قصّة موسى(عليه السلام) مع طاغية مصر إلى حين هلاكه، وأمّا قصة موسى مع بني إسرائيل بعد الخروج من مصر فلم يُذكر منها شيء في هذه السورة، إلاّ قضية قارون وكنوزه، ولذلك قال تعالى: (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ): أي بعض نبئهما (بِالْحَقِّ)يحتمل أن يكون قيداً للتلاوة أي تلاوة متلبّسة بالحق ؛ لأنّها من الله سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء، كما يحتمل أن يكون قيداً للنبأ أي نبأهما المتلبّس بالحق.

وحصيلة الكلام:إنّ ما يأتي في هذه السورة كلّه صدق وحقّ تلقّاه النبيُّ (صلى الله عليه وآله وسلم)عن أمين الوحي(عليه السلام)وهو عن الله سبحانه دون أن يُدسّ فيه شيء، لا من الجنّ ولا من الإنس. وأمّا ما هي الغاية من التلاوة فيُفصح عنها قوله تعالى: (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) والظاهر أنّ اللام للانتفاع أي لينتفع قوم يؤمنون بآياتنا، أو إجابة لسؤال قوم يؤمنون على ما مرّ من سؤالهم النبيّ بأن يبيّن لهم قصة موسى ورسالته إلى فرعون.

٤. (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ):

لو كانت أفعال الرجل كاشفة عن روحياته ونفسانيته، فما عُرّف به فرعون في هذه الآية يكشف عن خبث ذاته ودناءة طبعه، وإليك ما عُرّف به في هذه الآية:

١. الاستكبار والتجبّر

قال تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ): أي استكبر وتجبّر (فِي الأَرْضِ): أي أرض مصر التي كان يحكمها. ومن المعلوم أنّ العلوّ بلا مِلاك هو المراد في الآية، وأمّا العلوّ فيما إذا كان هناك ملاك كعلوّ المعلّم على المتعلّم، وقائد الجيش على من تحته، والوالدان على الأولاد، فأمر لا مناص منه، فإنّ حفظ المراتب إذا كان عن مِلاك أمر مطلوب تدور عليه رحى النظام.

٢. تجزئة المجتمع وتمزيق وحدته

قال تعالى: (وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا): أي فِرَقاً وأحزاباً متعارضة في مصالحها واتّجاهاتها.

ولا شكّ في أنّ المجتمع الذي تقسّمه السلطة الحاكمة إلى فِرَق متعارضة عَبر خلق أسباب التنافس والنزاع، وتأجيج نار الخلاف والشحناء بينها، أنّ هذا المجتمع سوف يستهلك الوقت في مشاكله الذاتية، ويستنزف طاقاته وقواه في نزاعاته الداخلية، الأمر الذي يجعله بعيداً عن التفكير ـ فضلاً عن السعي والعمل ـ في الأهداف الكبرى والتطلّع إلى الحرية والعدالة، وفي مناجزة السلطة

الطاغية التي صادرت إرادته وسلبته حقوقه، وبذلك يُتاح لها أن تُمعن في إخضاعه وإحكام سيطرتها عليه، سعياً وراء تحقيق المزيد من الامتيازات والمآرب الشخصية.

وما في بعض التفاسير من أنّ المراد هو جعل المجتمع أصنافاً في استخدامه، يعمل كلّ صنف في عمل من بناء وحفر وحرث وغير ذلك من الأعمال الشاقّة لاحظ : روح المعاني:٢٠/٤٣.، ليس بتامّ، لأنّ هذا النوع من التقسيم ركن من أركان بناء النظام السالم.

بل المراد أنّه جعلهم فِرقاً وأحزاباً وأغرى بينهم العداوة والبغضاء لتشتيت كلمتهم وتمزيق وحدتهم، الأمر الذي ييسّر له إخضاعهم لأغراضه السلطوية، وهذا الخط الذي سار عليه فرعون هو سياسة غاشمة يتّبعها طواغيت العصر الحاضر وجبابرته، وقد شاع قولهم: فرِّق تَسُد.

نعم كان الأمر على هذا الحال حتى بُعث موسى(عليه السلام) فجعلهم حزباً واحداً ذا كلمة واحدة.

٣. ذبح الأبناء واستحياء النساء

العمل الثالث الذي قام به فرعون ما يعبِّر عنه سبحانه بقوله: (يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ): أي يستعبدهم ويستذلّهم، وهم بنو إسرائيل الذين سكنوا مصر من عهد يوسف(عليه السلام). وأمّا كيفية استضعافه لهم، فهو ما يحكيه قوله سبحانه:(يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ) بعد ولادتهم. ومع ذلك كان يستبقي نساءهم،

كما قال: (وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ) ولا يقتلهنّ، للاستفادة منهنّ للخدمة والتسخير.

هذا، وقد تعدّدت أقوال المفسّرين في سبب استباحة تذبيح الذكور، فقال بعضهم: إنّ كاهناً قال لفرعون: إنّ مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون سبب ذهاب مُلكه، وقال غيره: إنّ الأنبياء الذين كانوا قبل موسى بشّروا بمجيئه، ولمّا علم فرعون بذلك خاف فأمر بذبح الذكور من بني إسرائيل. أمّا الشيخ المراغي، فأرجع السبب إلى الوضع الاقتصادي، وقال: لأنّه كان يتوجّس خيفة من الذكران الذين يتمرّسون الصناعات، وبأيديهم زمام المال، فإذا طال بهم الأمد استولوا على المرافق العامة، وغلبوا المصريين عليها. تفسير المراغي:٢٠/٣٣.وهذا السبب الأخير بعيد لأنّ التخوّف من تحكّمهم بالاقتصاد في المستقبل لا يبرّر ممارسة هذه التصفية الجسدية للذكور، بل له وسائل أُخرى، لا سيما وأنّ بني إسرائيل كانوا في ذلك الوقت يعيشون حالة الإذلال والقهر والاضطهاد.

يُذكر أنّ الدول الاستكبارية اليوم تخاف من كثرة المسلمين ومواليدهم في الغرب فقاموا بأفانين من الحيل لتقليل مواليدهم بحجّة أنّ الاقتصاد العالمي لا يستطيع أن يوفر الحاجات الأساسية للمواليد الفائضة العدد، لكنّ ذلك، في الحقيقة، ليس سوى غطاء لنواياهم الخبيثة، وهي الخوف من أن يكون لهم تأثير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية هناك.

٤. الإفساد في الأرض

وآخر ما عُرّف به فرعون هو قوله سبحانه:(إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)وأي فساد أكبر من الاستكبار ومن استعباد الناس وذبح أبنائهم؟

تخليص المستضعفين وتمكينهم في الأرض

٥ و ٦ . (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ):

تحكي الآيتان عن تعلّق إرادته سبحانه بأُمور:

١. التفضّل بالنعمة(عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ) أعني: بني إسرائيل حتى يخلّصهم من مخالب فرعون وزبانيته ويستنقذهم من أعمالهم الإجرامية، ومنها قتل الأبناء واستحياء النساء.

٢. جعلهم أئمة يُقتدى بهم كما قال: (وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً) فيكونوا متبوعين بعد ما كانوا تابعين.

٣. جعلهم وارثين كما قال:(وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)، قال الزمخشري: يرثون فرعون وقومه ملكهم وكلّ ما كان لهم. تفسير الكشّاف: ٣/١٥٧. وتبعه الرازي وقال: يعني لملك فرعون وأرضه وما في يده. (تفسير الرازي:٢٤/٢٢٦.) ولكن ذلك التفسير مبنيّ على رجوع بني إسرائيل إلى مصر، وهو مورد شكّ، ولذلك فسّره المراغي بقوله:

الوارثين لملك الشام لا ينازعهم فيه منازع، وقد جاء في آية أُخرى: (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا) الأعراف:١٣٦، وفي آية ثالثة قال:(وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) الشعراء:٥٩..

٤. تمكينهم في الأرض، قال تعالى:(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ) بتيسير إمكانات القوّة وأسباب المُلك والسلطان. والتمكين هو الإقدار بما يتسهّل به التصرّف في الشيء.

٥. إراءة زوال الملك والسلطة، قال سبحانه:(وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ): أي (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ) . ووزيره (هَامَانَ وَجُنُودَهُمَا) وعساكرهما (مَا): أي الأمر الذي (كَانُوا يَحْذَرُونَ): أي ما كان يحذره هؤلاء من ذهاب ملكهم وسلطانهم على يد مولود من بني إسرائيل، كما صرّح بذلك فرعون في بعض كلماته، حيث قال محرّضاً أركان دولته على موسى(عليه السلام): (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) الأعراف:١١٠..

هذا ما يرجع إلى تفسير الآيات. ثمّ إنّه سبحانه بدأ كلامه في الآية الرابعة بصيغة الماضي وقال: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ)ومعنى ذلك أنّه سبحانه يحكي عن قضية مرّت وانتهت، ولكنّ قوله: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ) في الآية الخامسة، أو قوله:(وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ) في الآية السادسة يحكي عن أنّه يخبر عن أمر مستقبل، فكيف الجمع؟

وجه الجمع هو أنّ وزان الآية وزان من عطف نظره إلى الأزمنة السابقة ويتكلّم من هناك، فيصحّ الإخبار عن علوّ فرعون في الماضي وتعلّق إرادته سبحانه بهذه الأُمور في المستقبل.

ثمّ إنّ في هذه الآيات بشارة للمسلمين، وهي أنّ إرادة الله سبحانه في كلّ زمان ومكان قد شاءت تحرير المستضعفين من قبضة الظالمين وتخليصهم من أسر الذلّ والتبعيّة ورفعهم إلى مقام العزّ والقيادة، فلو اتّخذ فرعون أساليب غاشمة مع بني إسرائيل، ومارس ضدهم سياسة عنصرية، انتهت إلى إذلال طائفة ومصادرة حقوقهم وقتل ذكورهم واستبقاء نسائهم، فإنّ تلك السياسة لا تبقى مستمرّة؛ بل سوف يمنح الله سبحانه هؤلاء المستضعفين من عناصرالقوّة ما يبطلون بها مخططاتهم وقدراتهم، فما ذُكر في هذه الآيات عبرة لقريش وبشارة للمؤمنين، بأنّ قدرة قريش من العُدّة والعدد سوف تُسحق تحت أقدام المستضعفين، وقد تحقّق ذلك في الفترة المدنية، فقُتل مَن قُتل في بدر وأُحد والأحزاب، وأُسر مَن أُسر، واستسلم مَن استسلم في فتح مكّة. هذه هي سنّة الله تعالى في الأُمم.

سورة القصص: الآيات ٧ ـ ١٠ (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ... لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

الآيات: السابعة إلى العاشرة

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

المفردات

أوحينا: من الوحي: بمعنى الإلهام في القلب.

خفتِ: الخوف: انفعال يحصل بسبب توقّع أمر مكروه يحدث في المستقبل.

لا تحزني: الحزن: انفعال ينتاب الإنسان بسبب فوات أمر محبوب أو مرغوب فيه.

اليمّ: البحر، وأُريد به نهر النيل.

التقطه: الالتقاط: أخذ الشيء فجأة من غير طلب ولا قصد.

خاطئين: قال ابن منظور: المخطئ: من أراد الصواب فصار إلى غيره، والخاطئ من تعمّد لما لا ينبغي. لسان العرب: ١/٦٥، مادة «خطا».

قرّة عين: سبب الفرح والسرور.

فارغاً: خالياً .

لَتُبدي به: الإبداء: إظهار الشيء.

ربطنا: كناية عن تقوية قلبها بالصبر.

التفسير

٧. (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ):

في الآية إيجاز بالحذف، وهو أنّ أُمّ موسى حملت به ووضعته ولكنّها كانت تستشعر القلق، والخوف من أن يطّلع عليه جواسيس فرعون فيأخذونه ويذبحونه، ففي هذه الحالة يقول سبحانه:(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى): أي ألهمناها، وللوحي في القرآن الكريم مصاديق مختلفة أحدها الإلهام، وهذا النوع من الوحي لا يختصّ بالأنبياء بل المختصّ بهم الوحي التشريعي، بشهادة أنّه يستعمله في مورد النحل أيضاً، قال تعالى: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) النحل:٦٨. وأُريد به التعليم الغريزي، وأُخرى في الإلقاء والطرح، كما في قوله سبحانه:(إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ).(الأنعام:١٢١.)

وأمّا ما هو الموحى فيكشف عنه قوله: (أَنْ أَرْضِعِيهِ): أي استمرّي على إرضاعه ما لم تخافي عليه الطلب، وهل كانت مدّة الإرضاع سرّاً يوماً واحداً أو أكثر؟ الآية ساكتة عنها. وقد قيل: إنّها أربعة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر. تفسير القرطبي:١٣/٢٥١. (فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ) من القتل الذي أمر به فرعون لأبناء بني إسرائيل، فعندئذ (فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ): أي في البحر الذي هو النيل؛ ثم نهاها عن أمرين:

(وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي) وقد مرّ عند بيان المفردات أنّ الخوف يحصل بسبب توقّع أمر مكروه يحدث في المستقبل، وأمّا الحزن فيحصل بسبب فوات أمر محبوب. وعلى هذا فيكون مصداق الخوف ذبح ابنها موسى(عليه السلام)، وقيل: هلاكه إذا ألقته في اليمّ، ومصداق الحزن فراقُه وبُعده عنها. ثم وعدها بأمرين:

١. (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ) وهو وعدٌ بسلامة وليدها وإرجاعه إليها، وقد وفى به سبحانه، كما سيأتيك بيانه.

٢. (وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) وهو وعدٌ باصطفائه للنبوّة والرسالة.

وأمّا أنّها كيف ألقته في اليمّ، فالمروي أنّها اشترت تابوتاً ووضعت موسى(عليه السلام) في داخله. وحكي عن كتب اليهود أنّ أُمّ موسى خبأته ثلاثة أشهر ثم خافت أن يفشو أمره فوضعته في سفط مقيّر وقذفته في النهر. التحرير والتنوير:٢٠/١٦.

وفي مجمع البيان: حكي أنّ بعضهم سمع بدوية تنشد أبياتاً، فقال لها: ما أفصحك فقالت: الفصاحة لله تعالى وذكرت هذه الآية وما فيها. مجمع البيان: ٧ / ٣٧٧.

وما أشار إليه الطبرسي هو أمر منقول عن الأصمعي: أنّه سمع جارية أعرابية تنشد:

استغفر الله لأمري كلّه *** قتلت إنساناً بغير حلّه

مثل غزال ناعم في دلّه *** انتصف الليل ولم أُصلّه

فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: أيُعدّ هذا فصاحة مع قوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) فجمع في آية واحدة خبرين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين. تفسير القرطبي:١٣/٢٥٢.

أقول: إنّ هذه الآية الكريمة من بدائع آيات القرآن وهي على وجازتها قد جمعت فعلين من الماضي:(أَوْحَيْنَا) و(خِفْتِ)، وفعلين من الأمر: (أَرْضِعِيهِ) و (أَلْقِيهِ)، وفعلين من النهي:(وَلاَ تَخَافِي)و(وَلاَ تَحْزَنِي)ووزنين من اسم الفاعل(رَادُّوهُ) و(جَاعِلُوهُ) ووزنين من اسم المفعول(موسى) و «مُرسَل» و اسمين خاصّين: (موسى) و (أُمّه) ثم قد تكرّرت فيها «فاء الجواب» مرّتين: (فإذا) و (فألقيه)وحرف (إلى) مرتين: (إِلَى أُمِّ مُوسَى) و «إليكِ»، ثمّ قد كرّر الخوف مرّتين، وعبّر عن أُم موسى باسم مزدوج بل لم يسمّيها باسمها، وفيها نبأ غيبي وهو الإخبار بردّ موسى إلى أُمّه، وفيها وعدان: الردّ، والنبوّة.

فاجتماع هذه الأُمور في آية واحدة يوجد في الإنسان عند سماعها، لذة وانجذاباً واستغراقاً، تجعله يذعن بمصدر هذا القرآن ومنزله.

٨ . (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ):

ألقت أُم موسى(عليه السلام) بوليدها في البحر وجرى به الماء إلى أن ألقاه بالساحل بمشيئة الله تعالى، فأخذه آل فرعون قبل أن يأخذه جنود فرعون كما يقول:(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ): أي أخذ وأصاب آل فرعون تابوت موسى من النهر دون أن يقفوا على ما يترتّب على هذا الالتقاط من أثر سيّئ عليهم، إذ سيقف هذا الملتقَط موقف العداء منهم لكفرهم وطغيانهم، وسيذيقهم ألم الحزن كما يقول:(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) واللام في قوله:(لِيَكُونَ)للعاقبة وهي ما يترتّب على الشيء من دون إرادة ولا اختيار، ومثله قول الشاعر:

وللمنايا تُربّي كلُّ مرضعة *** ودورنا لخراب الدهر نَبنيها

ومن المعلوم أنّ المرضعة لا تربِّي للموت كما أنّ الباني لا يبني للخراب، وإنّما يترتّبان عليهما في عاقبة الأمر.

وقال آخر:

فللموت تغذو الوالدات سِخالَها *** كما لخراب الدهر تُبنى المساكنُ

تفسير القرطبي:١٣/٢٥٢.

ومضمون الشعر قول القائل: لِدوا للموت، وابنوا للخراب.

وَقَالَ الإمام عَلِيٌّ (عليه السلام): إِنَّ للهِ مَلَكاً يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْم: «لِدُوا لِلْمَوْتِ، وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ». نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ١٣٢.

وأمّا صيرورته عدوّاً فواضح، وأمّا كونه سبب الحزن فقد ظهرت طلائع ذلك عندما غلبت آياته على السحرة، واستمرّت تالياً.

وجاء قوله تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) كأنّه علّة لقوله:(لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) حيث جُعِل النبي موسى بهذا التدبير الإلهي الذي يصير به(عليه السلام) عدوّاً وحزناً لفرعون وأنصاره لكونهم خاطئين.. موغلين، عن عمد، في العصيان والآثام والطغيان.

٩. (وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ):

يدلّ سياق الكلام على أنّ الذين أخرجوا موسى من التابوت جاءوا به إلى فرعون وهو مع امرأته في القصر، فعندئذ رقّت له امرأة فرعون وانطلقت تستميل قلب زوجها بكلمات ملؤها التودّد والاستعطاف لتصرفه عن قتله، كما قال: (وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ): أي سبب سرور لبيتنا، هذا كلامها مع زوجها، ثم التفتت إلى المأمورين بذبح الأطفال وقالت لهم: (لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) وهذا النوع من الخطاب، أي التفات من خطاب شخص إلى خطاب شخص آخر موجود في القرآن الكريم، فهذا هو العزيز يخاطب يوسف بقوله: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا)ثم يلتفت إلى زوجته ويقول لها: (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) يوسف:٢٨ و ٢٩، فامرأة فرعون بكلامها أزالت ما بنفس فرعون من العزم على قتله.

ثمّ إنّ هؤلاء وافقوا على اقتراح امرأة فرعون (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ): أي لا يعلمون ماوراء هذا التبنّي من إرادة الله تعالى القاطعة في ازالة ملك الطاغية.

هذا ما كان يدور في القصر.

وأمّا حال قلب الأُم التي طرحت وليدها في النهر فتصفه الآية التالية:

١٠.(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ):

يطلق الفؤاد ويراد به العقل والنفس والروح، والله سبحانه يصف حال الأمّ بقوله: (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا): أي فارغاً من الحزن والقلق لعلمها بأنّ ابنها ناج، سكوناً إلى ما وعدها الله تعالى به.

والقلب الخالي من الخوف والحزن، المليء بالاطمئنان بقول الله سبحانه، يصدّ صاحبَه عن إظهار الأمر وإعلانه، لكن ذلك لم يحصل للأُم إلاّ بفضل من الله سبحانه(إِنْ) مخففة من الثقيلة (كَادَتْ) والدليل عليه وجود اللام في جوابه (لَتُبْدِي بِهِ) بذكر موسى مثلاً تقول: يا ابناه من شدّة الغمّ. والربط على القلب توثيقه عن أن يضعف، وتقدير الآية: (لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا) كادت لتبدي به، أي لأظهرت سرّها، وما فعلنا ذلك إلاّ(لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ): أي تصل إلى مقام سام لا يدخله الشكّ. وبعبارة أُخرى: تكون من جملة المصدّقين بوعدنا الواثقين بعهدنا.

وقوله: (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ) قد انتفعت أُمّ موسى(عليه السلام) بالإيحاء إليها في موارد مختلفة:

أ. مدّة الإرضاع التي أخفت فيها ولادة الولد وإرضاعه.

ب. حين إلقائه في اليم فلولا الوحي ربّما فزعت وجزعت وانكشف أمرها.

ج. عند ما التقطه آل فرعون وأخذوه معهم إلى البلاط.

سورة القصص: الآيات ١١ ـ ١٣ (وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُب ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ).

الآيات: الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة

(وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُب وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْت يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ).

المفردات

قُصّيه: القصّ: اتّباع الأثر، وقصّيه: فعل أمر من قصّ يقص، والخطاب للأُخت (قصّي)، والضمير يرجع إلى موسى(عليه السلام).

جنب: الجَنْب: الجارحة ويجمع على جنوب، والجُنُب: البعيد، والجار الجُنُب: الجار البعيد.

المراضع: جمع المرضعة.

يكفلونه: يتعهّدون بحفظه وإرضاعه.

ناصحون: النصح: تحرّي فعل أو قول فيه صلاح صاحبه.
التفسير

١١.(وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُب وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ):

دلّت الآية السابقة على أنّ فؤاد أُمّ موسى(عليه السلام) صار فارغاً من القلق ومع ذلك أرادت أن تقف على مصير ولدها، ولذلك أمرت أُخته، التي ذكر في التفاسير أنّ اسمها مريم، (وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ): أي اقتفي أثر ولدي. وهنا رسمت الأُخت خطّة حتى لا يتّهمها المأمورون بشيء، (فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُب)، قال الطبرسي: في الكلام حذف واختصار تقديره: فذهبت أُخت موسى فوجدت آل فرعون قد أخرجوا التابوت وأخرجوا موسى فبصرت بموسى عن بُعد، فنظرت إليه كأنّها لا تُريده (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) لا يعلمون أنّها جاءت متعرّفة عن خبره. انظر: مجمع البيان: ٧ / ٣٨٠.

١٢. (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْت يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ):

ثمّ إنّه سبحانه لأجل ردّ موسى إلى أُمّه، منع الطفل من التقام صدر أيّة مرضعة، وسياق الآية يدلّ على أنّ آل فرعون طلبوا المراضع وجاءت مرضعة بعد أُخرى، ولكن الطفل لم يلتقم ثدي واحدة منهنّ.

قال تعالى: (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ): أي من قبل التقام الثدي، وعندئذ اغتنمت أُخت موسى الفرصة وقالت لهم: (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْت) وهذا التعبير يدلّ على ذكائها حيث لم تقل: أدلّكم على أُمّه، بل قالت: (على أهلِ بَيْت يَكْفُلُونَهُ) يحفظونه (لَكُمْ) ويحسنون تربيته (وَهُمْ): أي أهل

هذا البيت (لَهُ)لموسى (نَاصِحُونَ): أي مخلصون في كفالته والقيام بأمره.

قال الطبرسي: قيل إنّه لمّا قالت أخته ذلك، قال هامان: إنّ هذه المرأة تعرف أنّ هذا الولد من أي بيت هو، فقالت الأُخت: إنّما عنيت أنّهم ناصحون للملك، فأمسكوا عنها. مجمع البيان: ٧ / ٣٨١.

١٣. (فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ):

سياق الآية يدلّ على أنّ أُخت موسى(عليه السلام) ذهبت إلى أُمّها فجاءت بها إليهم، فلمّا وجد موسى ريح أُمّه، قَبِلَ ثديها وسكن بكاؤه. قيل: وصار ذلك الأمر موضع شكّ لفرعون بأنّ هذه المرأة أُمّه ولذلك قال لها فرعون: كيف ارتضع منك، ولم يرتضع من غيرك؟ فقالت: إنّي امرأة طيّبة الريح، طيّبة اللبن، ولا أكاد أُوتى بصبيّ إلاّ ارتضع منّي، فَسُرّ فرعون بذلك، وتحقّق وعد الله سبحانه كما يقول:(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ) لأجل أمرين:

١. (كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ).

٢. (وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ) حيث وعدها بقوله:(إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ).

أورد المراغي في تفسيره عن ابن عباس قال: إنّ امرأة فرعون سألت أُمّ موسى أن تقيم عندها وترضعه فأبت ذلك عليها وقالت: إنّ لي بعلاً وأولاداً ولا أستطيع المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أُرضعه في بيتي فعلتُ، فأجابتها إلى ما طلبت، وأجرت عليها النفقة والصلات والكُسا وجزيل العطايا ورجعت بولدها إلى بيتها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً، وهي موفورة العزّ والجاه والرزق الواسع. تفسير المراغي:٢٠/٤١.

ويمكن استظهار ما ذكره من قول أُخت موسى: (أَهْلِ بَيْت يَكْفُلُونَهُ)فنسبت الكفالة إلى مجموع أهل البيت، وهذا لا يتحقّق إلاّ بأخذ موسى إلى بيت أُمّه.

ثمّ إنّ الآيات ساكتة عن علاقة الملكة مع الوليد الصغير، ولكن نحن نميل إلى أنّ كيفية إرضاع أُمّ موسى لولدها كانت بتردّدها

إلى القصر الفرعوني يوماً بعد يوم مثلاً ولم يكن بدفع موسى إلى أُمّه كي ترضعه في بيتها وردّه إليهم بعد انقضاء الرضاعة، وذلك لأنّ الكيفية الثانية تقطع أواصر المحبّة بينهما وبين الولد، بخلاف الصورة الأُولى، فإنّها تؤكد على بقائها في قلبهما، وقد يؤيد ذلك قول فرعون لموسى(عليه السلام)عند المحاجّة: (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ).(الشعراء:١٨).

قوله تعالى: (وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) أنّ زوال ملكه بيد هذا الوليد الذي يربّونه في حجورهم.

سورة القصص: الآيات ١٤ ـ ١٩ (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا ... وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ).

الآيات: الرابعة عشرة إلى التاسعة عشرة

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَة مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ).

المفردات

أشُدّه: الأشُدّ: واحدها شِدّة كأنعُم التي واحدها نعمة، وبلوغ الأشدّ: استكمال القوّة الجسمانية.

استوى: الاستواء: الاستقامة والاعتدال. ولعلّه هنا إشارة إلى استكمال القوة العقلية والفكرية.

حُكماً: الحكم: القدرة على القضاء الصحيح، ويحتمل أن يراد به الفقه.

عِلماً: العلم: العرفان الذي لا يداخله الجهل.

المدينة: مصر.

على حين غفلة: أي في وقت يغفل فيه أهل المدينة عمّا يجري فيها، وذلك في وقت الظهيرة أو وقت دخول الليل.

من شيعته: من قومه من بني إسرائيل.

فاستغاثه: الاستغاثة: الاستنصار، من الغَوث بمعنى النُّصرة

فوكزه: الوكز: الضرب بجُمع الكفّ، وجُمْع الكفّ: الكفّ مقبوضة.

قضى عليه: أنهى حياته.

يستصرخه: يصيح مستغيثاً به.

غويّ: ذو غَواية، وهي الانهماك في الغيّ، ويُطلق الغيّ على الضّلال (خلاف الرُّشد)، وعلى الفساد، وعلى الخَيبة.

يبطش: يأخذ بصولة وسطوة.

جبّار: الجبّار: مَن يفعل من دون نظر في عواقب الفعل، خلاف المصلح.

التفسير

١٤. (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ):

تقدّم أنّ النبي موسى(عليه السلام) عاش بعد الفطام أو أثناءه في البلاط إلى أن بلغ أشدّه واستوى واكتملت قوّته الجسمية والعقلية كما يقول:(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى) وفي هذه الحالة أُوتيت له موهبتان، كما يقول: (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)، ولم تمنحا

لموسى(عليه السلام) جزافاً بل جزاءً لإحسانه كما يقول:(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)وهذه ضابطة كلّية في حقّ المحسنين دون أن تختصّ بمحسن دون آخر.

إنّ هذه الفترة الطويلة من حياة موسى(عليه السلام) (التي تمتد من إرجاعه إلى أُمّه رضيعاً إلى إتيانه الحكم والعلم عند اشتداد قوّته واستوائه) لم يتعرّض لها القرآن ولم يذكر شيئاً عن ملابساتها وأحداثها، بل طواها كلّها، ليقف بنا عند حادثة كبيرة ألقت بعض الضوء على طبيعة شخصيته ومسلكه في الحياة، ومثّلت انعطافةً مهمّة في تاريخ حياته، وبدايةً لإرهاصات نبوّته وتكليفه بالرسالة.

١٥. (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَة مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ):

على الرغم من نشأة موسى(عليه السلام) في البلاط الفرعوني، وبقائه فيه كلّ هذا الوقت، كما رجّحنا ذلك، إلاّ أنّه ليس ـ فقط ـ لم يتأثر بأجوائه المشبعة بالظلم والقهر، والاستعلاء على بني إسرائيل واستعبادهم؛ بل نقم عليها ودعا إلى تغييرها وإصلاحها، وإلى الانتصار للمظلوم وإنصافه من الظالم.

يقول سبحانه:(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَة مِنْ أَهْلِهَا): أي في وقت يغفل فيه أهل المدينة عمّا يجري فيها وذلك لإغلاقهم المتاجر والاستراحة في بيوتهم، وهو إمّا وقت الظهيرة أو أوّل الليل، والأوّل هو اختيار أكثر المفسّرين (فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ): أي وجد رجلين يتنازعان ويتضاربان أحدهما إسرائيليّ من قومه، وهو المراد من قوله: (مِنْ شِيعَتِهِ)والآخر قِبطيّ من أتباع فرعون، فاستنجد به الإسرائيليّ على عدوّه القبطيّ، وكلمة الاستغاثة دالّة على كونه أضعف من خصمه.

قوله:(مِنْ شِيعَتِهِ) يدلّ على أنّ موسى كان على صلة مع قومه، ولم يكن وجوده في قصر فرعون سبباً لانقطاعه عن قومه.

استجاب (عليه السلام) لنداء الاستغاثة وأراد أن يردع القبطيّ ويؤدّبه، فضربه بجُمْع كفّه فسقط ميّتاً، كما قال: (فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ).

ولمّا رأى موسى(عليه السلام) مصرعه: (قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) وهنا احتمالان:

الأوّل: إنّ هذا الذي وقع من المعاداة والاقتتال، من جنس العمل المنسوب إلى الشيطان، أو إنّه ناشئ من عمل الشيطان فإنّه هو الذي أوقع العداء والبغضاء بينهما وأغراهما بالاقتتال حتى أدّى ذلك إلى تدخّل موسى(عليه السلام) وقتل القبطيّ بيده، فأوقعه ذلك في خطر عظيم.

الثاني: إنّ هذا الاحتمال لا يناسب ما يأتي من قوله:(رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي) لأنّه يدلّ على أنّ الموصوف بعمل الشيطان هو نفس العمل الذي أدّى إلى قتل القبطيّ، لا العداء والاقتتال بينهما إلى آخر ما ذكر في الأوّل. وعندئذ يقع الكلام: كيف قتل موسى(عليه السلام) إنساناً وهو بعد غير مستحقّ للقتل وإن كان مستحقّاً للتأديب؟

والجواب: أنّ القتل وقع خطأً وعن غير قصد، فلا يُعدّ مثله معصية. وأمّا وصفه بأنّه (مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) فلأنّه تورّط في عمل شديد الخطر، سيجلب إليه الشرّ والأذى، ويكلّفه ثمناً باهظاً. وقد آلَ إلى ذلك فيما بعد، حيث سبّب خروجه من مصر إلى مَدْين، كما سيوافيك.

لقد أدرك(عليه السلام) أنّه ترك الأَولى والأفضل، وظلم نفسه بهذا العمل الذي أفضى إلى القتل في هذا الوقت الذي لا تُجدي فيه المواجهة مع الأعداء، فتوجّه إلى ربّه ضارعاً، وقال:

١٦. (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ):

الآية تدلّ على أنّ عمله هذا لم يكن جرأة على الله سبحانه، وإنّما ظلم به نفسه كما يقول: (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) في هذا القتل، فإنّهم لو علموا بذلك لقتلوني (فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ)، وقول موسى(عليه السلام) هذا كقول آدم(عليه السلام): (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الأعراف:٢٣..

إنّ استغفاره(عليه السلام) لا يدلّ على ارتكابه ذنباً، وإنّما هو تعبير عن قوّة إيمانه بالله تعالى وخشيته منه وانقطاعه إليه بصدق وإخلاص حيث كان المترقّب من شخصية عظيمة مثل موسى(عليه السلام) أن يحتاط ولا يترك الأَولى لئلاّ يقع في مثل هذه المشكلة التي تترتّب عليها نتائج سلبية، ولذلك طلب من ربه الغفران فوافاه الجواب(فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).

ثمّ إنّه أيقن أنّ هذا الأمر لا يبقى مستوراً عن فرعون وملئه وأنّهم سوف يقبضون عليه ويقتصّون منه، ومع ذلك كان غير نادم على استجابته لاستغاثة أحد شيعته، بل كان على استعداد لإجابة كلّ مستغيث مستضعف ونصره، وإن كان نادماً على كيفية تأديب القبطيّ بالوكز المؤدّي إلى القتل، ولذلك قال:

١٧. (قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ):

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) من القوّة والقدرة والعلم (فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ): أي للقبطيين ومن كان على شاكلتهم. وشكر النعمة ـ أعني: القوّة والعلم ـ يتجسّد عمليّاً في الانتصار للحقّ ودفع الباطل، كما هو واضح.

١٨. (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ):

بقي موسى(عليه السلام) في المدينة ولم يرجع إلى القصر الفرعوني ؛ لأنّه أيقن أنّ خبر قتل القبطيّ سوف يصل إلى هناك كما يقول: (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ): أي يراقب الأوضاع، وبينما كان في هذه الحال إذ واجهته حادثة أُخرى مشابهة لما لاقاه بالأمس كما يحكي سبحانه:(فَإِذَا الذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ): أي يصيح مستغيثاً به، فعند ذلك توجّه موسى(عليه السلام) إلى الإسرائيلي و(قَالَ لَهُ) موبّخاً(إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ): أي بعيد عن الرُّشد، مجانب للصواب فيما تفعله حيث تخاصم من لا تطيق دفع شرّه، وتخلق له ولنا المشاكل، ومع ذلك أراد أن ينصره لأنّه عاهد الله سبحانه في كلامه السابق: (رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ): أي أن ينصر المظلومين.

١٩. (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ):

لمّا أراد أن ينصر المستنجد به ـ كما نصره بالأمس ـ ويبطش بالقبطيّ الذي هو عدوّ لهما كما قال: (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا)ويواجهه بالقوّة والشدّة: (قَالَ) له منكراً(يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ)، وهنا اختلف المفسّرون: هل قائل هذا الكلام هو الإسرائيلي، أو القبطي؟ فذهب جُلّهم إلى أنّه هو الإسرائيلي، وإنّما قال له ذلك لظنّه أنّ موسى(عليه السلام) ـ بعد أن وصفه بالغويّ المبين ـ يريد أن يبطش به لا بالقبطي، وعند ذلك عَلِم القبطيّ أنّ قاتل صاحبه القبطيّ بالأمس، هو موسى(عليه السلام)، فأُنهي خبره إلى البلاط، فعقدوا اجتماعاً خاصّاً، قرّروا فيه قتل موسى(عليه السلام).

وقال غيرهم:إنّ القائل هو القبطيّ، لما ذاع في المدينة بأنّ موسى(عليه السلام)هو الذي قتل القبطيّ بالأمس.

والوجه الثاني هو الأقرب، لأنّ الضمير في (قَالَ) يرجع إلى الأقرب وهو العدوّ، وقد حاول بكلامه:(أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي) زجر موسى(عليه السلام) عن البطش واستعمال الشدّة، بدل الصلح بين المتخاصمين والسعي بالتراضي بينهما. ولعلّ في قوله: (عَدُوٌّ لَهُمَا) تعريض لما في التوراة المتداولة، حيث تذكر أنّ هذين الخصمين كانا إسرائيليّين، وإليك نصّ التوراة: إذا رجلان عبرانيان

يتخاصمان . الكتاب المقدّس (العهد القديم): سفر الخروج، الإصحاح الثاني: ٨٩ .
سورة القصص: الآيات ٢٠ ـ ٢٨ (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ ... وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ).
الآيات: العشرون إلى الثامنة والعشرين
(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ* قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ).
المفردات
أقصى المدينة: الأقصى: الأبعد، وأقصى المدينة: أبعدها مكاناً. يسعى: يُسرع في المشي. الملأ: أشراف القوم ووجوههم، تملأ عظمتهم الظاهريّة القلوب أو العيون. يأتمرون بك: يتشاورون في أمرك، قال سبحانه:(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوف) الطلاق:٦.. يترقّب: التّرقُّب: تنظُّر شيء وتوقّعه. سَواءَ السبيل: وسط الطريق. تلقاء مَدْين: جهتها. ورد: وصل . ماء مدين: موضع الماء، لأنّ القبائل كانت تقطن عند المياه، وكانوا يُكنّون عن أرض القبيلة بماء بني فلان. أُمّة: جماعة. تذودان: تطردان غنمهما عن الماء. والذَّود: الطَّرد والدفع. ما خطبكما: ما شأنكما. يُصدر: ينصرف. والوارد والصادر متقابلان، فمن قصد الماء ودخل في أرضه يقال له:ورد الماء، ولمن رجع عنه يقال: صدر عنه أي انصرف. الرعاء: جمع راع. استحياء: الاستحياء: شدّة الحياء. ليجزيَك: الجزاء: المكافأة على عمل حسن أو سيّئ بشيء مثله في الحسن أو الإساءة. حِجج: سنين، واحدها حِجّة. وهي مشتقّة من اسم الحجّ لأنّ الحجّ يقع كلّ سنة، وموسم الحجّ يقع في آخر شهر من السنة العربية. أشقّ عليك: أوقعك في المشقّة.

لا عدوانَ عليّ: لا ظلم عليّ بأن أُكلّف أكثر منهما وأطالب بالزيادة عليهما.
التفسير
٢٠. (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ): بينما كان موسى(عليه السلام) يفكّر في مصيره بعد أن كشف القبطيّ الثاني عن شخصية موسى(عليه السلام)، وأنّه هو قاتل القبطيّ الأوّل، بينما كان يفكّر في ذلك، ويقدّم رجلاً ويؤخّر أُخرى، إذ فوجئ برجل يأتي إليه مسرعاً كما يقول:(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ): أي من ناحية قصور فرعون وقومه حيث كانت عادة الملوك السكنى في مكان بعيد عن المدينة التي تسكنها الرعيّة (قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ): أي بطانة فرعون ووجوه دولته(يَأْتَمِرُونَ بِكَ): أي يتشاورون في أمرك (لِيَقْتُلُوكَ)، ولم يكتفِ هذا الرجل بإخباره عمّا دبّروا له، بل حرّضه على مغادرة البلد للنجاة بنفسه، كما حكاه عنه سبحانه بقوله: (فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)، فأذعن موسى(عليه السلام)بصحّة الخبر لِما لمس من ملامح الصدق في سيماء الرجل وكلامه. وأمّا مَن هو هذا الرجل الذي أسرّ إلى موسى(عليه السلام) ائتمار رجال القصر الفرعوني بشأنه ليقتلوه، فالأرجح أنّه مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه، وهو قول كثير من المفسّرين، لكنّ الأُستاذ عبد الكريم الخطيب ردّ هذا القول في تفسيره، وقال: أمّا أن يقال إنّ هذا الرجل الذي جاء يسعى ناصحاً لموسى، هو مؤمن آل فرعون، فهو قول مردود؛ لأنّ موسى لم يكن قد حمل الرسالة بعد. التفسير القرآني للقرآن:١٠/٣٣٠. أقول: إنّ هذا التعليل لا يصلح، في رأينا، لردّ ذلك القول، فمن الممكن أن تكون السجايا والمزايا التي كان يتحلّى بها موسى قبل أن يُكلّف(عليه السلام) بالرسالة، قد أثارت إعجاب مؤمن آل فرعون، فمال إليه وأضمر له مشاعر الحبّ، ولمّا علم بائتمار الملأ لقتله، تحرّكت لديه تلك المشاعر، فانطلق إليه مشفقاً ناصحاً.
خروجه من مصر
٢١. (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : أدرك موسى(عليه السلام) أنّ مقامه في مصر محاط بالخطر وأنّه (لا ميدان للنّجاة في دولة الجُناة) التعايش السّلمي للسيد محمود الموسوي:٦٤. ، فعزم على تركها (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)ينتظر الطلب ويتوقّع الشرّ من جند فرعون الذين يجدّون في ملاحقته. وهنا التجأ إلى الله سبحانه لعلمه بأنّه لا ملجأ إلاّ إليه كما قال: (قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ): أي من هؤلاء الطغاة الذي يقتلون الأبناء ويستحيون النساء. وهذا دليل على أنّه ما كان يرى أنّ قتل القبطي خطأ وجرماً، بل غاية ما يعترف به أنّ عمله هذا جرّ عليه المتاعب. ٢٢. (وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ): ظاهر الآية أنّ موسى(عليه السلام) خرج ولا علم له بالطريق وقد توجّه نحو مدين من دون أن يقصد مكاناً معيّناً، وإنّما توكّل في ذلك على الله سبحانه كما يقول:(وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ): أي ولمّا اتّجه نحو مدين، وهذه الهجرة أشبه بهجرة إبراهيم(عليه السلام) عن موطنه (قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ): أي وسط الطريق المؤدّي إلى النجاة.
إقامته(عليه السلام) في مدين
٢٣. (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ): لم يتعرّض الذكر الحكيم لما لاقاه موسى في سفره هذا من مصاعب ومتاعب، غير أنّ المفسّرين والرواة ذكروا أنّ موسى(عليه

السلام) خرج نحو مدين وليس له علم بالطريق ولم يكن معه زاد ولا ماء ولا راحلة ولا دليل وكان يأكل من نبات الأرض وأوراق الشجر حتى بلغ ماء مدين.

و (مَدْيَن) على ما في «مراصد الاطلاع»: مدينة قوم شعيب، وهي تجاه تبوك على بحر القُلزم بينهما ست مراحل، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب(عليهما السلام).

وربما يقال: كان بينها وبين مصر مسيرة ثمان، وكانت خارجة عن سلطان فرعون، ولذا توجّه إليها. الميزان في تفسير القرآن:١٦/٢٤ـ٢٥.

وعلى كلّ تقدير قطع موسى(عليه السلام) هذه المسافة البعيدة بتسديد من الله تعالى وتحمّل مشقّة الطريق حتى وصل ماء مدين فوجد عنده جمعاً من الرعاة يستقون منه لمواشيهم، ولفت نظره وجود امرأتين تقفان في ناحية عن الرعاة تطردان أغنامهما عن الماء كما يقول: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ): أي أرضاً فيها ماء (وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ) جماعة منهم (يَسْقُونَ) مواشيهم (وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ): أي في مكان بعيد عنهم (امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ): أي تطردان أغنامهما بعيداً عن الماء، أو عن أغنام بقية الرعاة لئلاّ تختلط بها، فلمّا رآهما موسى(عليه السلام) كذلك، تأثّر لحالهما، فتقدّم نحوهما و(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا): أي ما شأنكما لا تسقيان مع الناس (قَالَتَا): أي أجابتا (لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ)ينصرف (الرِّعَاءُ)الرعاة أي حتى يصرف الرعاة مواشيهم رغبة عن مزاحمة الرجال، فإذا انصرفوا سقينا مواشينا من فضول الماء(وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)وكأنّ هذه الجملة اعتذار للحضور في السقي مع الرجال، وهو أنّ أباهما شيخ كبير السنّ لا يستطيع القيام بهذا العمل، فلذلك أُنيط عمل السقي بنا. وفي الآية إشارة إلى أمرين وهما:

١. أنّ طبيعة المرأة تقتضي عدم الاختلاط بالرجال في المواقع التي تثير الرَّيب، ويصعب فيها مراعاة العفاف بشكل تام، وهو أمر تدعو إليه الفطرة السليمة للإنسان، في أي عصر كان، وفي كلّ مجتمع.

٢. أنّ الأعمال الشاقّة أَولى بأن يمارسها الرجال، لأنّهم ـ في الغالب ـ أقدر على النهوض بها، ولا ينبغي أن تتولاّها النساء، إلاّ إذا اضطررن إلى ذلك. ومن هنا قال الإمام علي(عليه السلام): «وَلاَ تُمَلِّكَ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَ مَانَة». نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٣١.

٢٤. (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ):

لمّا رأى موسى(عليه السلام) الوضع المحرج للمرأتين أحسّ، وهو الطريد الشريد المبتلى بغربتين: الغربة عن الوطن، وغربة الفقر، أحسّ من أعماق ضميره بوجوب مساعدتهما فقام (فَسَقَى لَهُمَا): أي لغنمهما (ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ): أي انصرف إلى ظل شجرة واستراح إليها من شدّة الحرّ، وأدركه جوع شديد (فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)، وقوله:(إِنِّي) يحتاج إلى خبر وهو قوله: (فَقِيرٌ)وتقدير الآية: إنّي فقير، وبما أنّ الفقر ضمّن فيه معنى الحاجة فيكون معناه: إنّي محتاج لما أنزلت إلي من خير في السابق، فكما أوليتني من نعم في السابق فالآن أنا بحاجة إليها، ومن المعلوم أنّ حاجته في هذا الوقت هو المطعم والمسكن والزوجة التي يسكن إليها، وقد ذكر المفسّرون لهذه الفقرة من الآية احتمالات مختلفة، لكن ما ذكرناه أوضح، فصارت الفقرة بمنزلة الشكر، وفي الوقت نفسه دعاء لما يحتاج إليه.

ثمّ إنّ في المقام إيجازاً وحذفاً، وهو أنّ المرأتين رجعتا إلى أبيهما في ساعة كانتا لا ترجعان فيها وسألهما فأخبرتاه الخبر، فقال لإحداهما: عليَّ به، فرجعت إلى موسى لتدعوه، وإلى ذلك يشير سبحانه بقوله:

٢٥. (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ):

استجاب الله دعاء موسى(عليه السلام)، فجاءت إحدى بنتي هذا الشيخ كما يقول:(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء) كما هو

شأن الفتاة الطاهرة العفيفة التي يغلب عليها الحياء وهي تلقى الرجال، وأبلغته رسالة أبيها و(قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا): أي ليكافئك على ما سقيت لنا، فاستجاب موسى(عليه السلام)للدعوة (فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ)فمن شأن المضيِّف أن يسأل الضيف عن حاله ومقدَمه ولذلك قصّ عليه موسى القصص، وأنّه خاف من جلاوزة فرعون ففرّ هارباً من مصر إلى مدين، فعند ذلك (قَالَ)المضيّف له مطمئناً (لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)فأنت في مكان أمين بعيد عن سطوة هؤلاء القوم الظالمين، وبذلك اتّضحت بعض معالم شخصية موسى(عليه السلام) من خلال مبادرته إلى إعانة الفتاتين وعفّته في التعامل معهما ومن خلال سرده لقصة حياته ومواقفه من فرعون وقومه.

٢٦. (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ):

طبع الحال يقتضي أنّ ابنة الشيخ تكلّمت مع أبيها سرّاً لا بحضور موسى(عليه السلام) و(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ)التاء عوض عن ياء المتكلم في النداء خاصّة وهي هنا مكسورة، نظير قوله:(إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ) مريم:٤٢.. ثم علّلت سبب اقتراحها بقولها:(إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ) وهذا يدلّ على ذكائها حيث أتت بضابطة كلّية في المورد وإنّ قوام الاستئجار أمران: كون الأجير قويّاً قادراً على أداء العمل، وأميناً غير خائن.

وقد روي أنّ أباها سألها وقال: يا بنيّة ما أعلمك بأمانته وقوته؟ قالت: أما قوّته، فالدلو لا ينزعها إلاّ عشرة، فاستقى بها وحده مرّة واحدة، وأمّا أمانته فإنّه قال لي: امشي خلفي فإنّي أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك. تفسير نور الثقلين:٤/١٢٣.

ولكن يمكن أن يقال إنّ الرعاة كانوا يستخرجون الماء من البئر ويصبّونه في ساقية حتى تشرب الأغنام منه، فإذا ذهب القوم يتبقّى في الساقية شيء من الماء، فهاتان المرأتان تسقيان أغنامهما من هذا الماء المتبقّي في الساقية، ولكن موسى لم ينتظر ذلك وإنّما ذهب إلى البئر فأخرج الماء منها، وصبّه في الساقية حتى يشارك أغنامهما مع أغنام الآخرين في السقاية، وهذا دليل واضح على قوّته.

وأمّا أمانته فإنّه بعدما سقى لهما ابتعد عنهما إلى ظلّ شجرة هناك ليستريح دون أن يجتمع بهما، وكأنّه لم يعمل لهما شيئاً.

٢٧. (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ):

لمّا تبيّن للشيخ الكبير قال جمهور المفسّرين إنّ هذا الشيخ أبا المرأتين هو النبيّ شعيب(عليه السلام)، وقال الحسن البصري: إنّه كان رجلاً مؤمناً على دين شعيب، وإنّ شعيباً مات قبل ذلك، وقال غيره: إنّه كان ابن أخي شعيب(عليه السلام). وجاء في الإصحاح(٢) من سفر الخروج أنّ اسمه (رَعُوئيل). وجاء في الاصحاح(٣) منه أنّ اسمه (يَثرون) وأنّه كان كاهِن مَدْيان. واستظهر مؤلّفو قاموس الكتاب المقدّس أنّ اسمه (رعوئيل)، وأنّ (يثرون) لقبُ شرف أُطلق عليه.أنّ موسى(عليه السلام) يتزيّن بالوصفين اللّذين هما قوام الاستئجار، عرض عليه تزويجه إحدى بنتيه، و(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ) شريطة (أَنْ تَأْجُرَنِي): أي تخدمني وترعى أغنامي (ثَمَانِيَ حِجَجٍ): أي سنوات (فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا): أي زدتّها إلى عشر سنين (فَمِنْ عِنْدِكَ): أي هبة من عندك غير مُلزَم بها.

ولمّا كان في قوله:(أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ) إبهام من حيث كيفية العمل، وربّما يكون أمراً باهظاً وتكليفاً لا يُطاق، رفع الشيخ هذا الإبهام بقوله: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)وليس هذا من قبيل تزكية النفس المنهيّ عنها، لأنّ موردها ما إذا كان بصدد الفخر والاستعلاء، وأمّا إذا كان الهدف توضيح الحال للمخاطب حتى يطمئنّ إليه فليس فيه إشكال، وقد مرّ نظيره في سورة يوسف حيث قال للملك: (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ). يوسف:٥٥.

وفي الآية أُمور فقهية نلفت نظر القارئ إليها:

١. أنّ قوله:(أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ) يدلّ على أنّ النكاح ينعقد بهذا اللفظ، نعم لا يدلّ على عدم انعقاده بغير هذا اللفظ كالتزويج.

٢. أنّ قوله هذا ـ أعني: (أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ) ـ عرض واقتراح حيث لا يعلم أنّ المخاطب موافق أم لا، فعلى هذا فالظاهر أنّه صدَر بعد هذا عقد من الشيخ وقبول من موسى(عليهما السلام).

٣. أنّ قوله: (إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ) فإنّه عرض لا عقد، وإلاّ لعيّن المعقود عليها، إذ لا يجوز نكاح غير المعيّن، فلا دلالة في الآية على جواز نكاح غير المعيّن في الشرائع السابقة حتى يحتجّ به بالاستصحاب.

٤. الظاهر أنّ العمل كان مهراً للزوجة ولا إشكال فيه، فإنّ العمل يقع مهراً. روى الفريقان أنّ امرأة جاءت إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فقالت: زوّجني، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): من لهذه؟ فقام رجل فقال: أنا يا رسول الله زوِّجنيها، فقال: ما تعطيها؟ فقال: ما لي شيء، فقال: لا، قال: فأعادت فأعاد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)الكلام فلم يقم أحد غير الرجل ثم أعادت، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في المرّة الثالثة: أتحسن من القرآن شيئاً؟ قال: نعم، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): «قد زوّجتكها على ما تحسن من القرآن فعلّمها إيّاه». الكافي:٥/٣٨٠، كتاب النكاح، باب نوادر المهور.

٥. تقدّم أنّ كلّ ما في هذه الآية كان اقتراحاً وحواراً تمهيدياً لما سيتّفقان عليه بعد، وبما ذكرنا ظهر أنّه ليس في الآية اجتماع إجارة ونكاح، بل كان نكاحاً والعمل مهراً. نعم يقع الكلام في أنّ المهر من حقّ الزوجة دون أبيها. والجواب: إنّ صحّة ذلك رهن إذن البنت، والمفروض أنّ حياة الجميع كانت حياة واحدة في بيت واحد، وظاهر ذلك رضا الزوجة بذلك.

٢٨. (قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ):

لمّا خيّره الشيخ بين ثمان حِجج وعشر، أجابه موسى(عليه السلام) بقبول الثمان على وجه القطع وقال: (ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ): أي نتّفق على ثمان حجج بشرط أن يكون اختيار أحد الأجلين بيد موسى (عليه السلام)، فإن اختار الثمان سنين فليس للشيخ أن يزيد عليه، وإن اختار هو الزيادة فليس للشيخ منعه. ولا يتوهّم أنّ المهر كان مردّداً بين القليل والكثير بل الظاهر أنّ المهر هو الثمان حِجج، وأمّا الزائد فهو تفضّل من موسى(عليه السلام) إنِ اختاره. ثمّ إنّ الطرفين أشهدا الله على ما يقولان وأرجعا الحكم والقضاء بينهما إلى الله سبحانه وقالا:(وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ).

ملامح من حياة موسى(عليه السلام) قبل النبوّة

دلّت الآيات الماضية على أنّ حياة موسى(عليه السلام) مرّت بالمراحل التالية:

الأُولى: نشأته في أحضان أُمّه، وذلك خلال فترة الرضاعة.

الثانية: تربيته في بلاط فرعون، حيث نشأ فيه إلى أن بلغ أشدّه وآتاه الله الحكم والعلم، وفي هذه المرحلة لم يتأثّر بما في البلاط من الشرك، بل كان رجلاً موحّداً، ومخالفاً له.

روى علي بن إبراهيم القمّي: لمّا درج موسى(عليه السلام) كان يوماً عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد لله ربّ العالمين، فأنكر فرعون ذلك عليه ولطمه وقال: ما هذا الذي تقول؟ فوثب موسى على لحيته فهلبها. تفسير القمّي: ٢ / ١٣٦ .

كلّ ذلك يدلّ على أنّ موسى(عليه السلام) كان مسدّداً من الله تعالى كما هو الحال في نبيّنا(صلى الله عليه وآله وسلم)، قال الإمام علي(عليه السلام):«وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ» . نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

الثالثة: نصرته للمظلومين

قد مرّ في تفسير قوله سبحانه: (فَاسْتَغَاثَهُ الذِي مِنْ شِيعَتِهِ) أنّه لم يكن منعزلاً عن قومه في الوقت الذي كان يعيش في بلاط

فرعون، ولكنّه في هذه الفترة أثبت أنّه كان من حماة المظلومين حيث إنّه لمّا رأى أنّ أحد القبطيّين أخذ يظلم الإسرائيلي، قام بنصره وإنْ دفع في طريق هذا العمل ثمناً باهظاً، كما أنّه أثبت أنّه من حماة المظلومين عندما استقرّ في مدين، كما سيوافيك في الفقرة التالية.

الرابعة: استقراره في مَدْين

استقرّ(عليه السلام) في مدين عشر سنوات لأنّ الروايات تدلّ على أنّه عمل بأطول الأجلين، فقد روى الواحديّ بإسناده عن ابن عباس قال: سئل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أيّ الأجلين قضى موسى(عليه السلام)؟ فقال:«أوفاهما وأبطأهما». مجمع البيان:٧/٣٩١.

وقال الطبرسي: روى الحسين بن سعيد، عن صفوان، عن أبي عبد الله] الصادق[(عليه السلام) قال: قلت: أيّتها التي قالت: إنّ أبي يدعوك؟ قال: «التي تزوّج بها». قيل: فأيّ الأجلين قضى؟ قال: «أوفاهما وأبعدهما، عشر سنين». الوسائل:١٥ الباب٢٢ من أبواب المهور، الحديث٤، عن الطبرسي في «مجمع البيان».

وقد أثبت أيضاً في هذه المرحلة أنّه من حماة المظلومين، حيث رأى امرأتين واقفتين في موضع منعزل عن الرعاة، وبعدما وقف على نيّتهما الطاهرة سقى لهما قربة إلى الله دون أن يفكّر في الأجر، ولكنّ الله وعد بالإنعام على من يُسدي للناس خيراً، يقول سبحانه:(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) النحل:٩٧..

يُذكر أنّ هذه المدة التي قضاها في خدمة الشيخ تعدّ فترة إعداد وتربية له، استعداداً لتلقّي التكليف الإلهي، وتحمّل هذه المسؤولية الضخمة، حيث إنّ رعيه لأغنام الشيخ وإن لم يكن عملاً صعباً ولكن كانت فيه تقوية لروحه وتمريناً لمقابلة الصعاب، قال بعض العلماء: الحكمة في إلهام رعي الغنم قبل النبوّة، أن يحصل لهم التمرّن برعيها على ما سيكلّفونه من القيام بأمر أُمّتهم، ولأنّ في مخالطتها يحصّل الحلم والشفقة، لأنّهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرّقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوّها من سبع وغيره،... فيكون تحمّلهم لمشقة ذلك أسهل ممّا لو كلّفوا القيام بذلك من أوّل وهلة لما تحصّل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصّت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها في تفرّقها أكثر من تفرّق الإبل والبقر. انظر: سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي:٢/١٥٦.

ثمّ إنّ تقلّب الأحوال لم يؤثّر على نفسية موسى(عليه السلام) فيوماً كان ينعم بظلال القصور والثياب الناعمة والأستار المسدولة ملتذّاً بأطيب الأطعمة وغير ذلك من أسباب الرفاهية والترف، ويوماً يعيش في الصحراء متعرّضاً للحرّ والبرد، ومحاطاً بأنواع المخاطر، مكتفياً بالقليل من الطعام والشراب.

ولكن كلّ ذلك لم يؤثّر في شخصيته وروحيّته، فبقي موحّداً متوكّلاً على الله مجاهداً لنفسه ومناصراً للمستضعفين ومكافحاً للمستكبرين، وكلّ ذلك أصبح من ملامح نبوّته(عليه السلام).

سورة القصص: الآيات ٢٩ ـ ٣٥ (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ... أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ).

الآيات: التاسعة والعشرون إلى الخامسة والثلاثين

(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ

فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ).

المفردات

قضى الأجل: أتمّ المدّة المضروبة بينهما.

بأهله: زوجته وأولاده.

آنس: أبصرَ، والإيناس: وجدان الشيء الذي يُؤنس به ويُطمأن إليه، فموسى(عليه السلام) أبصر النار لكن لا إبصاراً مجرّداً بل إبصاراً مع إحساس خاصّ.

الطور: قال الراغب: اسم جبل مخصوص، وقيل: اسم لكلّ جبل. المفردات: ٣٠٩، مادة «طور».

بِخَبَر: لعل المراد به الاهتداء إلى الطريق.

جذوة من النار: القطعة الغليظة من الحطب فيها النّار.

تَصطلون: تستدفئون.

شاطئ الوادِ: جانبه.

البُقعة: القطعة من الأرض المتميّزة عمّا حولها.

جانّ: حيّة صغيرة سريعة الحركة.

لم يعقِّب: لم يرجع، وكلّ راجع معقب.

اسلُكْ: أدخِلْ.

جيبك: الجَيب: الفتحة في القميص.

جَناحكَ: يَدَكَ، تشبيهاً لها بجناح الطائر الذي يضمّه إلى جسده عند التوقّف عن الطيران.

الرَّهْب: الخوف.

فذانكَ: ذانِك (بتخفيف النون): تثنية ذاك، وبالتشديد: تثنية ذلك.

رِدْءاً: الرِّدْء: الذي يتبع غيره معيناً له.

التفسير

الخامسة: مغادرته مَدْين

تتحدّث هذه المجموعة من الآيات عن مرحلة جديدة(خامسة) مشرقة من حياة نبي الله موسى(عليه السلام)بعد أن قضى عشر سنوات أجيراً للشيخ قائماً بخدمته، حيث عزم بعدها، انطلاقاً من همّته القعساء التي تأبى عليه أن يبقى راعياً طول حياته، ومن تفكيره بقومه المضطهدين من قبل فرعون والأقباط، عزم على مفارقة مَدْين، فسار بأهله، متوكّلا على الله، متّجهاً إلى مصر حيث قومه بنو إسرائيل الذين يقاسون ظلم الفراعنة، وهذه المرحلة من حياته هي التي تحكيها الآيات التالية.

٢٩. (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِاَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ):

قوله تعالى: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ): أي التزم بالعقد الذي أبرمه مع الشيخ الكبير (وَسَارَ بِأَهْلِهِ)متوجّهاً نحو مصر، لكنّه ضلّ

الطريق مجمع البيان:٧/٤٥٨. في ليلة مظلمة شديدة البرد فتحيّر في أمره، وبينما هو كذلك رأى عن بُعد ناراً تضيء من جانب الجبل، كما يقول:(آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا): أي الزموا مكانكم وانتظروا (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ) والمراد من الخبر خبر الطريق، إذ احتمل أنّ في محلّ النار شخصاً أو أشخاصاً يدلّونه على الطريق، والشاهد لهذا التفسير قوله سبحانه في سورة طه:(لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)فقوله: (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) قائم مقام قوله: (سَآتِيكُم مِنها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ): أي إمّا آتيكم بخبر أو بقطعة من النار (لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ): أي تستدفئون، فصار أحد الأمرين سبباً لترك الأهل في نفس المحلّ وأن ينطلق وحده إلى جهة النار.

٣٠. (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ):

قوله تعالى:(فَلَمَّا أَتَاهَا): أي النار (نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ): أي نودي موسى(عليه السلام) من الجانب الأيمن للوادي الواقع في البقعة المباركة، وإنّما كانت مباركة لتشرّفها بالوحي والرسالة وكلام الله تعالى (مِنَ الشَّجَرَةِ) بدل من قوله: (مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ) لأنّ الشجرة كانت نابتة على الشاطئ، ومعنى الآية: إنّ موسى(عليه السلام) لمّا أتى النار التي شاهدها من بعيد فوجئ بالنداء من أيمن شاطئ الوادي من قبل الشجرة، والشاطئ هو جزء من البقعة المباركة، وأمّا ما هو الملاك لوصف الشاطئ بالأيمن فالآية ساكتة عنه. ويمكن بيانه بأحد وجهين:

أحدهما: الأيمن تفضيل من اليُمن وهو البركة كوصفه بالمقدّس في سورة النازعات:(إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى). النازعات:١٦.

ثانيهما: ما ذكره ابن عاشور أنّه ضد الأيسر فهو أيمن باعتبار أنّه واقع على يمين المستقبل القبلة على طريقة العرب من جعل القبلة هي الجهة الأصلية لضبط الواقع، وهم ينعتون الجهات باليمين واليسار يريدون هذا المعنى، قال امرؤ القيس:

على قطن بالشيم أيمن صوبه *** وأيسره على الستار فيذبُلِ[١]

[١]التحرير والتنوير:٢٠/٤٩.

قوله سبحانه: (أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ): أي سمع كلام الله من جانب الشجرة دون أن يكون كلام الله قائماً بالشجرة كقيام الكلام بالمتكلّم، وكأنّ الشجرة كانت حجاباً احتجب سبحانه به فكلّمه من ورائه بما يليق بساحة قدسه من معنى الاحتجاب، كيف وهو على كلّ شيء شهيد.

وهنا لنا وقفة مع هذه الآية وهي: أنّ ما واجهه موسى(عليه السلام) من كلام صادر من جهة رب العالمين يخاطبه بأنّه أنا الله ربّ العالمين، فما أحلى هذا النداء وما أروعه، حيث نقله من حالة الخوف والقلق إلى حالة الاطمئنان والهدوء، وأين هذه الحالة ممّا كان عليه سابقاً وهي الرعي في الصحراء ومخالطة المواشي والدوابّ؟ نعم كانت حالته السابقة مهيِّئة ومعينة للفوز بهذا المقام السامي الذي ليس فوقه مقام، وهو أنّه أصبح كليم الله سبحانه.

إنّ السالك إذا قرأ سورة «يس» ووصل إلى قوله سبحانه:(سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) يس:٥٨. ويقرأها بهدوء ويكرّرها فسيجد لذة متميّزة، لأنّه سيجد أن ربَّ العالمين يسلّم على عباده كافّة، ويرجو أن يكون منهم ولكن أين هذا من الخطاب المباشر بين الله ونبيّه موسى(عليه السلام)؟!

٣١. (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ):

في هذه الآية وما سبقها وما بعدها سمع موسى(عليه السلام) نداءات متعدّدة من الله سبحانه عبر الشجرة:

الأوّل: قوله تعالى:(أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

والثاني: قوله: (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ): أي اطرحها إلى الأرض، فلمّا ائتمر بأمره سبحانه رأى أنّها تبدّلت إلى حيّة تتحرّك وتضطرب كما

قال:(فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ) في سرعة حركتها أخذته الدهشة ورجع إلى الوراء كما يقول:(وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ): أي لم يرجع، وعندئذ وافاه النداءان التاليان:

الثالث والرابع: (يَا مُوسَى أَقْبِلْ): أي إرجع إلى حيث كنت (وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ) من المخاوف، فأنت في حماية الله القويّ العزيز في حصن حصين، ومن رحمته وعنايته في ظلّ ظليل.

٣٢. (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ):

النداء الخامس: هو قوله تعالى: (اسْلُكْ يَدَكَ): أي أدخلها (فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ) لكن (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) وفيه تعريض لما في التوراة المتداولة في هذا الموضع من القصة والتي ورد فيها: ثم قال له الربّ: أدخل يدك في عبئك، فأدخلَ يده في عبئه ثم أخرجها فإذا يده برصاء مثل الثلج. سِفر الخروج، الإصحاح الرابع، الفقرة٦.

قال الشريف الرضي(رحمه الله): قوله: (اسْلُكْ) إن كان بمعنى أدخل، فإنّ أصلها مأخوذ من إدخال السلك وهو الخيط المستدقّ في خروق الخرز المنظومة، فهو إذاً يفيد إدخال الشيء في الشيء المتضايق، أو إدخاله على الوجه الشاقّ المستصعب، وعلى هذا قوله تعالى: (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) الشعراء:٢٠٠، أي أدخلنا القرآن في قلوبهم من جهة الأسماع على كره منها إدخالاً يشقّ، وقد تقدّم كلامنا على مثل هذا وكذلك قوله تعالى: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ) المدّثر:٤٢. أي ما أدخلكم فيها على كره منكم ومشقّة عليكم، وعلى هذا قول الشاعر: (وقد سلكوك في يوم عصيب): أي أدخلوك وأنت كاره له، فيكون معنى قوله تعالى لموسى(عليه السلام): اسلك يدك في جيبك فإن كنت على خوف وإشفاق عند مشاهدة ما (راعك) في المطبوعة: بدر عنك. وفي هامشها: لعل الأصل: راعك.من تلك الآيات القواهر والاعلام البواهر. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٧٥.

وذهب المفسّرون في تفسير قوله:(مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) إلى أنّ المراد من غير مرض كما في المبتلى بالبرص، فصار ردّاً لما في التوراة الرائجة. لكن قد مرّ أنّ ثمّة تفسير آخر لذلك في سورة النمل في قوله سبحانه:(وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) النمل:١٢..

النداء السادس: وهو قوله تعالى: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)بعد أن أراه الله سبحانه هاتين المعجزتين:العصا، واليد البيضاء، خاطبه بكلام لا صلة له بالمعجزتين السابقتين وقال:(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)والرَّهب ـ بالفتح فالسكون ـ بمعنى الخوف، والجار(مِنَ الرَّهْبِ)متعلق بالفعل أي (اضْمُمْ). وقد اختلف المفسّرون في تفسير هذه الجملة من الآية إلى وجوه:

١. أنّ الجناح كناية عن اليد، فالله تعالى أمره أن يضمّ يده إلى صدره فيذهب ما أصابه من الخوف عند معاينة الحيّة.(مجمع البيان:٧/٤٦١.)

يلاحظ عليه: أوّلاً: الظاهر أنّ سبب الرهب هو تبدل اليد إلى بيضاء والتي أضاءت الوادي بنورها، ولا أقلّ كلا الأمرين، لا خصوص الأوّل.

ثانياً: أنّ ضمّ اليد إلى الصدر لا يورث الطمأنينة، ولا يزيل الخوف الشديد الحاصل من تبدّل العصا إلى الجانّ واليد، إلى اليد البيضاء.

٢. ما ذكره صاحب الميزان: أمَره أن يأخذ لنفسه سيماء الخاشع المتواضع فإنّ من دأب المتكبر المعجَب بنفسه أن يفرج بين عضديه وجنبيه كالمتمطّي في مشيته، فيكون في معنى ما أمر الله به النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)من التواضع للمؤمنين بقوله: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) الحجر:٨٨. على بعض المعاني. الميزان في تفسير القرآن:١٦/٤٣٠.

يلاحظ عليه: أنّه يلزم لغْوية قوله: (مِنَ الرَّهْبِ).

٣. أنّ الجناح بمعناه اللغوي، وليس بمعنى اليد وإلاّ لعبّر باليد كما عبّر بها في الفقرة السابقة وقال: (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ)، ولعلّ المقصود تشبيه حالة النبي(عليه السلام) بحالة الطائر، لأنّه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلاّ فجناحاه مضمومان إليه مشمّران. تفسير الكشّاف:١٦٦/٣.فيكون المراد: اسكن سكون الطائر ولا تضطرب من الرّهب.

ولعلّ هذا الوجه من أوضح الوجوه.

ثمّ إنّ صاحب الكشّاف استدلّ على ذلك بما حُكي عن عمر بن عبد العزيز أنّ كاتباً له كان يكتب بين يديه فانفلتت فلتة فخجل وانكسر فقام وضرب بقلمه الأرض، فقال له عمر: خذ قلمك واضمم إليك جناحك وليفرخ روعك. تفسير الكشّاف: ٣ / ١٦٦.

يقول الشريف الرضي(رحمه الله) وقيل معنى ذلك: أي سكّنْ روعَك، وخفِّض جأشَك من الرَّهب الذي أصابك والرُّعب الذي داخلك عند انقلاب العصا في هيئة الجانّ، ولمّا كان من شأن الخائف القلق والانزعاج والتململ و الاضطراب، صار ضمّ الجناح عبارة عن السكون بعد القلق والأمان بعد الغرق. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٧٤.

قوله تعالى: (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) كانت الغاية من تزويد موسى(عليه السلام)بمعجزتَي العصا واليد البيضاء، إرساله إلى الفراعنة ليصدّهم عن الوثنية ويدعوهم إلى التوحيد في الخالقية والربوبيّة، فلذلك يقول:(فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) لإتمام الحجّة عليهم. ثم إنّ العصا واليد من المؤنثات السماعية فكيف أُشير إليهما بـ(ذانك)؟

والجواب: أنّ التذكير باعتبار الخبر أعني:(بُرْهَانَانِ).

قوله تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ): أي خارجون عن الطاعة، فيجب الاحتجاج عليهم بالبراهين حتى يرجعوا إلى طاعة الله، كأنّه علّة لإرساله إليهم.

٣٣. (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ):

لمّا أثارت المعجزتان المتقدّمتان قلق النبي موسى(عليه السلام) واضطرابه، أمّنه سبحانه تارة بقوله: (إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ)وأُخرى بقوله: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)ولكن لمّا كان (عليه السلام) يخشى أن يثير فرعون ـ الذي أُمر(عليه السلام)بالذهاب إليه ـ حادثة قتل القبطيّ الذي وكزه فمات، قبل خروجه من مصر إلى مدين، وأن يأمر بقتله عقاباً على قتله له، عرض هذا الأمر على الله سبحانه وقال: (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ): أي من قوم فرعون (نَفْسًا)وهو القبطيّ (فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)بتلك النفس قبل أن أُتمّ تبليغ الرسالة ولذلك طلب من الله سبحانه ما يلي:

٣٤. (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ):

لقد طلب من الله سبحانه أن يؤيّده بأخيه هارون، وذكر إحدى مزاياه، بقوله:(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِي لِسَانًا) وإنّما قال ذلك لعُقدة كانت في لسانه، فلذلك طلب أن يرسله معه ليكون معيناً له كما قال: (فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً) معيناً (يُصَدِّقُنِي)فهل المراد من تصديقه أن يقول لموسى صدقت، أو يقول للناس صدق أخي؟ الظاهر أنّه ليس بصحيح لأنّهم إذا لم يؤمنوا بدعوة موسى(عليه السلام) الذي جاءهم بالمعاجز الكبيرة، فكيف يؤمنون بمجرّد تصديق الأخ أخاه؟ حتى لو قال صدق موسى عشر مرات لم يؤثّر أبداً، بل المراد ـ كما يظهر ـ هو قيامه بتبيين رسالته وحقيقة دعوته ويقرّر الحجج والبراهين الدالّة على صحّتها، والتي ربّما لا يقوم بها موسى، لكونه أفصح لساناً وأبين بياناً.

ثمّ إنّ موسى(عليه السلام) علّل سؤاله هذا بقوله:(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)، فالآيات تدلّ على أنّه كان في قلق من أمرين:

١. قتله قصاصاً قبل أن يتمّ رسالته.

٢. التقصير في تبيين دعوته لأجل العقدة(اللُّكنة) في لسانه.

ولذا سأل ربّه أن يكون هارون ردءاً له أي يجعله رسولاً مثله لكن في درجة تالية، ليكون له معيناً وسنداً، وسيوافيك أنّه سبحانه أمّنه من كلا الأمرين.

ثمّ إنّه يظهر من بعض الآيات أنّ الله سبحانه حلّ عقدته بعد مضيّ زمان وذلك عندما عابه فرعون بقوله: (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ) الزخرف:٥٢، عندها دعا موسى(عليه السلام) وقال: (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي).(طه:٢٥ـ٢٨).

فإن قلت: أليس ذلك من المنفّرات والأنبياء منزَّهون عنها، وإنْ ذهبت بعد فترة؟

قلت: لم تكن تلك العقدة على نحو تُعدّ عيباً، والفرق بين موسى وهارون في بيان الدعوة، هو الفرق بين الفصيح والأفصح.

٣٥.(قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ):

استجاب الله سبحانه دعاءه، كما يقول: (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ)، قال الشريف الرضي(رحمه الله): هذه استعارة والمراد بها تقويته على إنفاذ الأمر وتأدية الوحي بأخيه ؛ لأنّ اشتداد العضد والساعد في قولهم عبارة عن القوّة والجَلَد والقدرة على العمل، ألا ترى إلى قول الشاعر:

أُعلِّمه الرِّماية كلَّ يوم *** فلمّا اشتدَّ ساعده رماني[١]

[١]تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٧٥.

قلنا: إنّ النبي موسى(عليه السلام) كان يشعر بالقلق من أمرين:

١. القصاص لأجل قتل القبطيّ قبل إتمام رسالته.

٢. التقصير في بيان حقيقة الدعوة، ومن ثمّ أعرب عن حاجته إلى من يُعينه في ذلك.

فالله سبحانه قد تكفّل له بدرء كلا الأمرين، أمّا الثاني فكما قال: (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ) وأمّا الأوّل فاستجاب له بقوله: (وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا) بآياتنا فيكونون(فرعون وأركان دولته) مرعوبين بسببها(فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا) فلا يتسلّطون عليكما (بِآيَاتِنَا) وقد مرّ أنّه متعلّق بقوله: (سُلْطَانًا)وهذه الآيات هي انقلاب العصا حيّة وتحوّل يده إلى يد بيضاء مشعّة.

ثمّ بشّرهما تعالى بأنّ النصر سيكون حليفاً لهما(أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)وتقدير الجملة: الغالبون أنتما ومن اتّبعكما. ويحتمل أن يكون متعلّقاً بمحذوف كأنّه يقول:اذهبا (بِآيَاتِنَا).

حضور موسى في بلاط فرعون

سورة القصص: الآيات ٣٦ ـ ٤٢ (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَات ... وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ).

الآيات: السادسة والثلاثون إلى الثانية والأربعين

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَات قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ * وَ أَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ).

المفردات

أوقِدْ لي: أجّج النار واشوِ الطين لصنع الآجُرّ.

صرحاً: الصَّرح: البناء العالي.

أطّلع: الاطّلاع: الظهور على شيء من عَل، وهو الإشراف عليه.

فنبذناهم في اليمّ: أي طرحناهم في البحر. والنّبذ: الطّرح والإلقاء، قال أبو الأسود الدؤليّ:

نظرت إلى عنوانه فنبَذْتَه *** كنبْذِكَ نَعْلاً أخلَقتْ من نعالكا

أئمّة: جمع إمام وهو كلّ من يُقتدى به، في الخير والشرّ.

أتبعناهم: ألحقْنا بهم لعنة بعد لعنة، وهي البُعد عن الرحمة والخيرات.

المقبوحين: القبيح: ما تنبو عنه النفس من الأعمال والأقوال. وعلى هذا يكون المعنى: الموسومين بالحالة المنكرة.

التفسير

٣٦. (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَات قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ):

هذه الآية وما بعدها تتضمّن مشاهد مختصرة من المرحلة السادسة من مراحل عمره(عليه السلام) أو عرضاً سريعاً لبعض صفحات حياته الرسالية، وهو حضوره في بلاط فرعون وإبلاغه رسالة الله تعالى، وإراءة معجزتيه إيّاه.

ثمّ إنّه سبحانه طوى ذكر الحوادث التي واجهها موسى(عليه السلام) منذ مغادرته الوادي المقدّس واجتيازه الصحاري والفيافي ودخوله الحدود التي يحكم فيها فرعون ثم ذهابه إلى بلاط فرعون على هيئة راعي الأغنام، وعدم تفصيل هذه الحوادث هو لأجل أنّ الغرض يتعلّق بما وراء ذلك، وهو حواره مع فرعون، ولذلك بدأ بقوله:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ): أي جاء فرعون وملأه (مُوسَى بِآيَاتِنَا): أي بحججنا وبراهيننا كالعصا واليد البيضاء وما أعقبهما من سائر الآيات حيث إنّه(عليه السلام)يملك تسع آيات كما قال: (فِي تِسْعِ آيَات إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) النمل:١٢..

وفي وصف الآيات بالبيّنات إشارة إلى أنّ دلالة هذه الآيات على صدق دعوة المدّعي كان أمراً بيّناً لا يشكّ فيه إلاّ ذو مرض، وقد طوى البيان القرآني أنّه كيف عرض البيّنات على فرعون وإنّما اقتصر على ذكر ردّة فعل فرعون وهو أنّهم اتّهموه بأُمور ثلاثة:

١. (قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ) ليس من خوارق العادات التي لا يمكن مباراتها .

٢.(مُفْتَرًى): أي ادّعاء مكذوب مُفتعَل، فهو ليس من عند الله.

٣. (وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ) الظاهر أنّ اسم الإشارة أعني (هذا) إشارة إلى ادّعاء الرسالة من الله سبحانه، حيث يظهر من بعض الآيات أنّه قال: (فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)، طه:٤٧.فأجاب فرعون بأنّه لم يسمع ما يدّعيه ويدعو إليه في آبائنا الذين كانوا قبلنا، فقد اتّهموه بقضايا ثلاث، فلننظر هل أجاب موسى على الجميع أم اقتصر على الأمر المهمّ؟

٣٧. (وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ):

الظاهر أنّ موسى (عليه السلام) يركّز على إبطال الأمر الثاني الذي اتُّهم فيه أنّ ما جاء به(عليه السلام) ليس من ربّ العالمين، حيث ردّ عليه موسى سالكاً طريق الإنصاف في الحوار(وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ)يريد بالموصول ـ أعني قوله: (بِمَنْ جاءَ) ـ نفسه، أي ربّي يعلم أنّي جئت بهذه الآيات من عنده فهو شاهد على ذلك. وإنّما لم يصرّح بنفسه استظهاراً للإنصاف، نظير قوله سبحانه: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَل مُبِين)، سبأ:٢٤.

وإنّما ركّز على ردّ الثاني دون الأوّل والثالث لِما يلي: أمّا الأوّل فلأجل أنّه سيظهر أنّ الآية الكبرى(آية العصا) من خوارق العادات

الخارجة عن حدود القدرة البشرية، وذلك في يوم الزينة الذي دُعيَ فيه سحَرة مصر للمباراة مع موسى(عليه السلام)وبانَ فيه أنّ آية العصا التي تنقلب ثعباناً ليست من قبيل السِّحر، ولذلك كان السَّحَرة أوّل مَن آمن به.

وأمّا الثالث، فلأنّ كذبه كان أمراً واضحاً لاشتهار قصة نوح وهود وصالح وغيرهم من النبيّين الذين دعَوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، حتى أنّ مؤمن آل فرعون احتجّ على فرعون برسالة يوسف بينهم حيث قال: (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ) غافر:٣٤..

وكان مقتضى الحوار أن يقول: قال موسى ربي أعلم، مجرَّداً عن الواو، ليقابل قولهم: (قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرًى) ولعلّ وجهه حكاية القولين ليوازن الناظر المحكي له بينهما، فيميّز صحيحهما من الفاسد. ومع ذلك فقد حكي أنّ ابن كثير قرأ بغير واو.

ثمّ إنّ موسى هدّد فرعون بأُسلوب التعريض في أمرين. كما هو اتّهمه بأُمور ثلاثة وقال:

١. (وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ)، قوله:(عَاقِبَةُ الدَّارِ) من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف أي الدار العاقبة، وتستعمل الفقرة في العواقب المحمودة كما في قوله تعالى: (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) الأعراف:١٢٨..

٢. (إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ): أي لا يفوز بالخير من ظلم نفسه وعصى ربه وكفر بنعمته. هذه الجمل أتت واحدة بعد الأُخرى بصورة نكرة ظاهرها مردّد بين موسى وفرعون ولكن باطنها يشير إلى أنّ موسى هو المهتدي الظافر بالعاقبة الحميدة، وأنّ أعداء رسالته هم الضالّون الخاسرون في النهاية لإيغالهم في الظلم.

ويظهر أنّه احتجّ على فرعون بأُسلوب هادئ امتثالاً لقوله سبحانه: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) طه:٤٣ و٤٤..

إلى هنا تمّ حوار موسى مع فرعون. ومن المعلوم أنّه لم يتمّ الأمر هنا بل وقعت بعده حوادث منها مباراة موسى(عليه السلام) يوم الزينة مع السحرة، إلى غير ذلك من الحوادث التي لم تذكر في هذه السورة، وإنّما تكفّلت ببيانها سورتا طه والشعراء.

نعم لمّا أحسّ فرعون أنّ لكلام موسى(عليه السلام) تأثيراً على مَن معه في البلاط من الملأ، أراد تعمية الحال، في غياب موسى، على حاشيته ووجهاء قومه، وهذا ما تحكيه الآية التالية:

٣٨.(وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلاَ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لاَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ):

قوله تعالى: (وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلاَ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرِي)، ظاهر قوله: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ)أنّه يتظاهر بالإنصاف، حيث لم يقل لهم: ليس لكم إله غيري. وكلامه هذا ردّ على قول موسى(عليه السلام) له: (إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ)فسألهما فرعون: (فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)، طه: ٤٩ و ٥٠.وفي سورة الشعراء:(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ *قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِين)، الشعراء:٢٣ و٢٤.فعاد فرعون منكراً لرب العالمين ربّ السماوات والأرض.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ الملأ كانوا يعتقدون أنّ لفرعون آلهة كما يقول سبحانه:(وَقَالَ الْمَلاَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ) الأعراف:١٢٧، فالجمع بين هذه الآيات أنّ الفراعنة كانوا يعتقدون بوجود الآلهة التي يتصدّى كلّ واحد منها لخلق وتدبير جانب من العالم، وأنّ فرعون ابن هذه الآلهة أو مظهر لها، ومع ذلك لا يبقى إله واحد خالق ومدبّر لصحيفة الوجود الذي يدّعيه موسى(عليه السلام)، وبذلك يتّضح معنى قوله: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرِي).

ثمّ إنّ فرعون، تعميةً أو استهزاء بدعوة موسى(عليه السلام)، أمر وزيره بقوله: (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ): أي أجّج النار واشوِ الطين لصنع الآجُرّ الذي تبنى به الأبنية(فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا): أي ابن لي بناء عالياً حتى ارتقي إليه (لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى) الذي

يقول إنّه ربّ السماوات والأرض. وظاهر الحال أنّ أمر هامان بالبناء العالي كان من باب السخرية لا الحقيقة، وذلك لوجود الجبال الشاهقات، ففي وسع فرعون أن يصعدها فينظر في السماء من دون حاجة إلى بناء عالٍ والذي لا يتمّ إلاّ بعد سنين وبعد صرف أموال كثيرة.

والذي يدلّ على أنّ إصدار الأمر كان غير جدّي هو ما جاء في آخر الآية ـ أعني قوله: (وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) ـ ويراد بالظنّ العلم، فإذا كان يعلم أنّه من الكاذبين فما هي الحاجة إلى ذاك البناء الضخم؟

وربّما يحتمل أنّ المراد من الصرح هو الأهرام في مصر، ولكنّه بمعزل عن الحقيقة لأنّها بنيت بأحجار الجبال، وهو يريد البناء بالآجُرّ، وبذلك ظهر أنّ ما ورد في بعض التفاسير حول هذا البناء أشبه بقصص ألف ليلة وليلة.

قال الزمخشري: روي أنّه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمّال حتى اجتمع خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والأُجراء وأمر بطبخ الآجرّ والجصّ ونجر الخشب وضرْب المسامير، فشيّدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه يبني فبعث الله تعالى جبرئيل(عليه السلام)عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل، ووقعت قطعة في البرّ، وقطعة في المغرب، ولم يبق أحد من عماله إلاّ قد هلك. ويُروى في هذه القصّة أنّ فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشّابة في السماء فأراد الله أن يفتنهم فردّت إليه وهي ملطوخة بالدم فقال: قد قتلت إله موسى،فعندها بعث الله جبرئيل(عليه السلام) لهدمه، والله أعلم بصحته. تفسير الكشّاف:١٦٨/٣. وذيل الحديث يكشف عن كذبه، فتدبّر.

ونعمَ ما قاله المرحوم الشيخ مغنية في المقام: بل يؤكد فرعون التمويه على أعين الرّعاع الذين عبدوه قال لوزيره هامان: أوقد النار، اصنع الآجُرّ لبناء صرح رفيع أصعد منه إلى السماء، لأبحث عن إله موسى... ولم يبن هامان الصرح ـ كما نظنّ ـ لأنّه على يقين من مكر فرعون وتدليسه، وأي عاقل يحاول البناء إلى ما لا نهاية، ويتوهم أنّه بالخشب والآجرّ يبلغ السماوات العلى، ويعلم من فيها وعليها. التفسير الكاشف:٦٧/٦.

٣٩. (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ):

الآيات الباهرات التي أتى بها موسى(عليه السلام) لإثبات دعوته لو نظر إليها كل إنسان مجرّد عن التعصّب لأيقن بصحّة دعوته وخضع لها، غير أنّ فرعون وملأه: (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ): أي تكبّر هذا الطاغية هو وجنوده تكبّراً شديداً وصدّوا عن الحق مع قيام الدليل عليه عناداً ومكابرة (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ) ذلك أنّ الدنيا حَليت في أعينهم، فتكالبوا عليها، وشغلهم الاستغراق في لذّاتها ومباهجها عن التفكير بما وراءها، فصارت النتيجة أنّهم لا يؤمنون بالله ربّ السماوات والأرض ولا باليوم الآخر، فازدادوا عتوّاً وفساداً في الأرض فاستحقّوا الجزاء كما يقول:

٤٠. (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ):

أي فأخذناه وجنوده بذنوبهم وجرائمهم فنبذناهم في اليمّ.

ثمّ إنّ في الآية نكات نشير إليها:

١. أنّ التعبير بالنَّبْذ إشارة إلى حقارتهم حيث طُرحوا وأُلقوا في البحر كما تُلقى نفايات البيت.

٢. أنّ أُمّ موسى(عليه السلام) ألقت رضيعها في ذلك اليمّ، فكُتبت له النجاة على يد طاغية مصر، ولكن صار ذلك اليمّ موضع هلاك فرعون وجيشه!! فليعتبر أولو الأبصار.

٣. ما أشار إليه في «الكشّاف» قائلاً بأنّ قوله: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ)من الكلام الفخم الذي دلّ به على عظمة شأنه

وكبرياء سلطانه، شبّههم به ـ استحقاراً لهم واستقلالاً لعددهم وإن كانوا الكثير الكثير والجمّ الغفير ـ بحُصيّات أخذهنّ آخذ في كفّه فطرحهنّ في البحر. تفسير الكشاف:٣/١٦٩.

قوله تعالى:(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) وسوء مآلهم، فبينما كانوا يتمتّعون بالقصور الفخمة تحت ظلال النّعم وفي أحضان التّرف، إذا بهم غرقى محتقرين مهانين، تغشاهم الأمواج من كلّ جانب.

٤١. (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ):

الإمام هو المؤتمّ به حيث يُقتدى بقوله أو فعله أو غير ذلك، محقّاً كان أم مبطلاً، وجمعه أئمّة، فالله سبحانه يصنّفه إلى قسمين: إمام يدعو إلى النار، كما يقول: (وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ)، وإمام يهدي الناس إلى الجنّة، كما في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا). الأنبياء: ٧٣.

وعلى هذا صار فرعون وجنوده مؤتمّاً بهم وهم أئمّة وقادة للفاسدين والمفسدين والظالمين والطاغين الذين يقتدون بهم ويتابعونهم في كفرهم وضلالهم وفسادهم، وبذلك ظهر أنّ الجعل في الآية جعل تكويني حيث إنّهم بأفكارهم الضالّة وأعمالهم الفاسدة في الفترات السابقة صاروا أسوة وأئمّة للمتأخّرين الذين يتبعونهم في عقائدهم، ويقتدون بهم في سلوكهم وممارستهم الحياتية، ونسبة الجعل إلى الله سبحانه من هذا الباب، حيث إنّه سبحانه بعث إليهم الرسل لإرشادهم فلم ينتفعوا بهم وأصرّوا على الكفر فجُعلوا أئمّة لهؤلاء، باختيارهم الفساد على الصلاح، والكفر على الإيمان.

قال الإمام الصادق(عليه السلام): «الإمام إمامان: إمام هدى، وإمام ضلالة».(الكافي:١/٢١٥، كتاب الحجة، الباب٢٥، الحديث١.)

قوله تعالى: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ): أي لا يجدون من يشفع لهم ليدفع عنهم العذاب، لعدم صلتهم روحياً مع الشفعاء بسبب الكفر بالله سبحانه.

ثمّ إنّ الظاهر من الآيات أنّ بعض الأُمور الأُخروية تجسيد للأُمور الدنيوية، فبما أنّ فرعون كان إماماً في الدنيا لأتباعه، فإنّه سيكون إماماً لهم في الدخول إلى النار كما يقول سبحانه:(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ).[١] هود:٩٧.

٤٢. (وَ أَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ):

تضمّنت الآية أمرين:

١. إتباعهم وإلحاقهم باللعنة في الدنيا، واللعنة عبارة عن قطع رحمة الله تعالى عن الفرد الملعون، لكن الفرد الملعون تارة يُلعن وأُخرى يُتابع باللعن، ووجه إتباعهم كونهم أئمّة يقتدي بهم مَن خلفهم في الكفر والمعاصي، فلا يزال يتبعهم في الكفر والمعصية جيل بعد جيل، فيحملون من الأوزار مثل ما للمتّبعين فيلحقهم لعن مستمرّ، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «من سنّ سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».(الفصول المختارة:١٣٦؛ الميزان في تفسير القرآن:١٦/٦٨.)

٢. (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ): أي من المُهلَكين أو المذمومين. وقيل: من المشوّهين في الخلقة لسواد الوجوه وزرقة الأعين.

سورة القصص: الآيات ٤٣ ـ ٤٦ (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ ... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ).

الآيات: الثالثة والأربعون إلى السادسة والأربعين

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ).

المفردات
القرون: القوم المقترنون في زمن واحد، مفرده (قرن)، وتفسيره بمئة سنة مصطلح جديد. بصائر: جمع بصيرة، بمعنى نور القلب والعقل، وأمّا الأبصار فهو جمع البصر. بجانب الغربيّ: من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: الجانب الغربيّ. فتطاول: أظهر الطول، أي انشأنا بعدهم قرناً بعد قرن، فطال عهدهم. ثاوياً: الثواء: الإقامة مع الاستقرار، ومنه المثوى.

التفسير

الصفات المشتركة بين رسالتي موسى ومحمد(عليهما السلام)

هذه المجموعة من الآيات تركّز على بيان أمرين مشتركين بين الرسالتين، وإن شئت قلت بين سيرتي حياة النبيين(عليهما السلام)، وإليك بيانهما:

١. أنّه سبحانه بعث موسى(عليه السلام) بعد ما أهلك القرون الأُولى كقوم نوح وهود وصالح، كما بعث النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) بعد فترة طويلة بين رسالة المسيح(عليه السلام) ورسالته(صلى الله عليه وآله وسلم).

ولأجل وجود هذه الفترة الطويلة في كلا الموردين مسّت الحاجة إلى بعث نبيّ جديد مع كتاب قويم ليصلح ما فسد من العقائد والأحكام.

٢. أنّه سبحانه لمّا بعث موسى(عليه السلام) إلى فرعون اتّهموه بأنّه ساحر ووصفوا معاجزه بالسِّحر وردّوا رسالته بأنّها شيء غريب (وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ)، القصص: ٣٦ . وكذلك نبيّنا(صلى الله عليه وآله وسلم) لمّا بُعث واجه مثل ما واجهه موسى(عليه السلام)، فاتّهموه بأنّه ساحر، ووصفوا القرآن بالسِّحر، كما قال سبحانه حكاية عنهم:(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)، الأحقاف:٧.كما ردّوا دعوته (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى التوحيد بنفس تلك الحجّة الواهية (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ). ص:٧.

إذا تبيّن ذلك فلنرجع إلى تفسير الآيات.

٤٣. (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ):

بعث الله سبحانه نبيّه موسى بكتاب فيه بصائر للناس بعدما استأصل أقواماً كقوم نوح وهود وصالح كما يقول:(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى)، وهذا الكتاب (التوراة) يتّصف بثلاث صفات:

١. (بَصَائِرَ لِلنَّاسِ): أي حججاً وبراهين لهم يبصرون بها أمر دينهم ويعرفون أحكام شريعتهم.

٢. (وَهُدًى) يهتدي به الناس لما فيه مرضاة الله سبحانه.

٣. (وَرَحْمَةً) لمن آمن به.

كلّ ذلك (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ): أي يتّعظون ويعتبرون.

لقد بعث سبحانه النبي موسى(عليه السلام) بعد هلاك الأُمم الماضية لأجل قلع ما شاع في المجتمع من عقائد فاسدة وأفعال غير محمودة فمسّت الحاجة ـ بعد ما انمحت معالم الشرائع وانطمست آثارها ـ إلى شريعة جديدة ونبيّ آخر ليقوم بأهداف النبوّة من تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، ومقارعة الظلم والجور، وبسط القسط والعدل، وفي ذلك إلماع إلى بعث النبي الخاتم بعد قرون، كما تقدّم.

٤٤. (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ):

قد تقدّم أنّه سبحانه نادى نبيّه موسى(عليه السلام) من الشجرة (إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) القصص:٣٠ـ ٣١. وحكاه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه السورة ولم يكن حاضراً في موضع النداء كما يقول:(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ): أي حين شرّفناه بالرسالة (وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ): أي من الحاضرين في ذلك المكان.

٤٥. (وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ):

وقبل إيضاح الآية أقول: الضمير في قوله: (عَلَيْهِمْ) يرجع إلى اليهود ؛ لأنّه سبحانه يقول:(أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ): أي أنشأ قروناً (أُمماً) بين زمن موسى(عليه السلام) وزمن المشركين، فتطاول عليهم الزمان، كما أنّ الضمير في قوله:(تَتْلُوا عَلَيْهِمْ) يرجع إلى المشركين.

وهذه الآية تتضمّن استدراكين:

أحدهما: قوله: (وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ).

وثانيهما:(وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ).

وتوسّط بين الاستدراكين قوله: (وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا).

فيقع الكلام في موقع الاستدراك أوّلاً وما هو أنسب له.

أقول: موضع الاستدراك الأوّل قوله سبحانه:(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ)وأمّا وجهه فإنّ ظاهر قوله: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ) أنّ النبيّ لم يكن حاضراً حين قضي الأمر إلى موسى فصار ذلك مظنّة سؤال وهو: أنّه إذا لم يكن حاضراً فمن أين علم أنّه قضي الأمر إلى موسى(عليه السلام) وحكاه في هذه السورة؟ القصص:٤٢.

فاستدرك سبحانه بقوله: (وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ): أي جاء نسلٌ بعد نسل، فصار ذلك سبباً لدبيب الشرك في المجتمع العربي وانتشار الخرافات بينهم، فبعثناك وأعلمناك قصة القضاء إلى موسى(عليه السلام)، وتلقّيه الرسالة.

وحاصل الكلام أنّ قوله: (فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) دليل على لزوم بعث رسول آخر كما أنّ قوله: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ). لاحظ : القصص: ٤٤. دليل على ما هو السبب لبعث موسى(عليه السلام).

فصارت النتيجة أنّه يتيسّر للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يخبر بما أعلمناه وإن لم يكن حاضراً في وقته.

وأمّا وجه الاستدراك الثاني ـ أعني قوله: (وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) ـ فهو أنّه تقدّم عليه قوله: (وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا)، فمعنى ذلك أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن مقيماً بين أهل مدين، فصار هذا مظنّة سؤال: إذا لم يكن مقيماً بينهم ليعلم ما كان بين موسى وبين الشيخ الكبير وابنتيه، فمن أين يتلو قصته على قومه؟ فاستدرك سبحانه بقوله: (وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ): أي أرسلنا وأنزلنا عليك هذه الأخبار وقصصناها عليك حتّى تخبر بها الناس، ولولا ذلك لَمَا علمتَها.

٤٦. (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ):

قوله:(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ) نظير قوله:(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ)

فلم يكن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) موجوداً لا في الجانب الغربيّ إذ قضي إلى موسى الأمر وكُلِّف بالرسالة، ولا بجانب الطور إذ ناداه ربّه!! والظاهر أنّ المناداة هو قوله: (إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) غير أنّ كثيراً من المفسّرين فسّروه بغير ذلك، قال في «الكشّاف»: يريد مناداة موسى(عليه السلام) ليلة المناجاة وتكليمه. تفسير الكشّاف:١٧١/٣. وعليه الرازي في تفسيره، تفسير الرازي: ٢٤ / ٢٥٧. وتبعه ابن عاشور حيث قال: المراد هو النداء لميقات أربعين ليلة وإنزال ألواح التوراة عقب تلك المناجاة كما حكي

في الأعراف وكان ذلك في جانب الطور إذ كان بنو إسرائيل حول الطور. التحرير والتنوير:٢٠/٦٧.ولمّا كانت هنا مظنّة سؤال وهو: من أين وقف محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) على نداء الله لموسى(عليه السلام)؟ فأُجيب بقوله: (وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ): أي نعمة من ربّك أنعم بها عليك، لما فيه من الموعظة والذكرى لهؤلاء الذين بُعث فيهم نبيّاً، ومن الدلالة على صدق نبوّته، حيث تلقّى هذه الأخبار وحياً من ربّه جلّ شأنه.

وأمّا الغاية من تلاوة هذه القصص فهي إنذار قريش كما يقول:(لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ)وذلك لأنّ قريشاً هم المخاطبون بهذه الآية فلم يبعث بينهم نبيّ منذ إبراهيم وإسماعيل، وهما(عليهما السلام)وإن كانا منذرَين لكنّهما كانا قبل أن توجد قبيلة قريش، لأنّ اشتقاق نسب قريش كان من عدنان، وبين عدنان وإسماعيل قرون كثيرة.(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) لكي يتفكّروا ويعتبروا بالماضي.

نعم يبقى هذا السؤال: كيف يؤاخذهم سبحانه مع أنّه لم يكن بينهم نذير؟ والجواب واضح وذلك لأنّ عذابهم على الشرك أو على الأعمال التي يستقلّ العقل بقبحها كقتل البريء وأكل مال اليتيم ليس عقاباً بلا بيان، أمّا الشرك فواضح لأنّ كلّ من رجع إلى وجدانه وإلى قصص الأنبياء السابقين، يقف على أنّه أمر باطل مبغوض لربّ العالمين، وأمّا غيره فيكفي في ذلك استقلال العقل على قبحه.

سورة القصص: الآيات ٤٧ ـ ٥١ (وَلَوْلاَ أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ).

الآيات: السابعة والأربعون إلى الحادية والخمسين

(وَلَوْلاَ أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَاب مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ).

المفردات

لولا: هذه الكلمة مشتركة بين الامتناعية ويراد بها انتفاء جوابها لأجل وجود شرطها، كقول القائل: «لولا علي لهلك عمر»، والتحضيضية وهو الحثّ على الفعل والعمل كما يقول: لولا قرأت القرآن أي هلاّ قرأت القرآن، وهي في صدر الآية امتناعية، وفي قوله: (لَوْلاَ أَرْسَلْتَ)تحضيضية، يقول ابن مالك:

لولا و لوما يَلْزَمانِ الاِبْتِدا *** إِذَا امْتِناعاً بوجود عَقَدَا

و بهما التَّحضيضَ مِزْ و هَلاّ *** ألاّ ألا و أَوْلِيَنْهَا الْفِعْلا

الحقّ: الأمر الثابت، وأريد هنا القرآن.

سحران: أُريد بهما توراة موسى(عليه السلام)، وقرآن نبيّنا محمد(صلى الله عليه وآله وسلم).

تظاهرا: تكاتفا وتعاونا.

فإن لم يستجيبوا: أي لم يفعلوا ما كلّفتهم به.

وصّلنا: من التوصيل: ضمّ قطع الحبل بعضها إلى بعض، وأُريد به نزول القرآن نجوماً ومتفرّقاً.

قال الشريف الرضي(رحمه الله): المراد بتوصيل القول ـ والله أعلم ـ إرداف بعضه ببعض وتكرير بعضه على أعقاب بعض، مظاهرة للحجّة على سامعيه، وإبعاداً في منازع الاحتجاج على مخالفيه، ليتذكّروا بعد الغفلة وينتبهوا من الرقدة وذلك تشبيهاً

بتوصيل الحبال بعضها ببعض عند إدلاء الدلو إلى الطّوي الطّويّ: البئر المطويّة بالحجارة. البعيدة إلى أن يصل إلى الماء، ويفضي إلى الرواء، وهذا من دقيق المعاني. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٧٦.

التفسير

٤٧. (وَلَوْلاَ أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ):

لمّا كانت هنا مظنّة سؤال وهو: أنّه سبحانه بعث موسى(عليه السلام) بعدما أهلك القرون الأُولى، بل أهلك حتّى من أُرسل إليه موسى ـ أعني: فرعون ـ ولكن النبي الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم) بُعث دون أن يهلك سبحانه هؤلاء العتاة الذين أظهروا عنادهم لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فصار البيان القرآني بصدد توضيح هذا الأمر، وهو أنّ المقتضي لتعذيبهم كان موجوداً قبل بعث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)لأنّهم خالفوا العقل الحصيف الدالّ على بطلان الشرك وقُبح قسم من المعاصي كوأد البنات، لكن الذي صدّه سبحانه هو احتجاجهم على الله بقولهم:(لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)فلذلك لم يهلكهم ولم يعذّبهم، فكأنّ تمسّكهم بحكم العقل من قبح العقاب بلا بيان هو المانع من إهلاكهم.

إذا عرفت ذلك فيبقى الكلام في نظم الآية، فإنّ مقتضى السياق أن يقول: لولا أن يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولاً، لأصابتهم مصيبة وأهلكناهم، ولكنّه سبحانه قدّم الجزاء وقال: (وَ لَوْلاَ أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)من الكفر والفسوق، والمراد: ولولا إصابتهم بمصيبة يعقبها قولهم: (قَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) لعذّبناهم وأهلكناهم.

ومعنى الآية ملخّصاً: لولا قولهم هذا عند إلحاق العقوبة بهم بسبب كفرهم واقترافهم للآثام، لَما أرسلناك إليهم، لكن لمّا كان قولهم هذا واقعاً لا محالة، أرسلناك قطعاً لمعذرتهم.

وأمّا وجه تقديم الجزاء على الشرط فلعلّه للاهتمام به، أعني: المصيبة والعذاب.

٤٨. (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلّ كَافِرُونَ):

لمّا دلّت الآيات السابقة على أنّه سبحانه شرّف عبده محمّداً(صلى الله عليه وآله وسلم)بالنبوّة، فصحّ أن يُبتدأ في هذه الآية بفاء النتيجة أو بفاء الفصيحة، وقال:(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا) أُريد بالحق القرآن النازل على النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولكنّ المشركين تذرّعوا في عدم قبول هذا الحق بهذه الذريعة الواهية (قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى)، وهذه الفقرة فيها احتمالان:

١. لماذا لم ينزل القرآن عليه مرّة واحدة كما نزلت التوراة على موسى جملة واحدة، ويدلّ على هذا الاحتمال قولهم: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) الفرقان:٣٢.

٢. هلاّ أُوتيَ محمّد(صلى الله عليه وآله وسلم) مثل ما أُوتيَ موسى(عليه السلام) من قبلُ من آيات بيّنات كآية العصا وآية اليد البيضاء، والذين يطلبون مثل هذا الطلب، في مقام الاحتجاج، ينبغي أن يكونوا ممّن آمن بنبوّة موسى (عليه السلام)ولكنّهم ليسوا كذلك، ولذا ردّ عليهم سبحانه بقوله: (أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ)ومعنى هذا أنّهم لم يؤمنوا بنبوّته أيضاً، بل تجاوزوا الحدّ و(قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا) أرادوا بهما إمّا التوراة والقرآن، أي تعاونا بتصديق كلّ واحد منهما الآخر، وقد يعنون بهما النبيّين(عليهما السلام)، أورد الطبرسي عن الكلبي: وأنّ مقالتهم هذه حين بعثوا الرهط منهم إلى رؤوس اليهود بالمدينة في عيد لهم، فسألوهم عن محمّد(صلى الله عليه وآله وسلم)فأخبروهم بنعته وصفته في كتابهم التوراة، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا عند ذلك: سحران تظاهرا. مجمع البيان:٧/٤٧٠. وستوافيك رواية أُخرى أيضاً.

ثمّ حكى موقفهم الصريح(وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ) فلا نؤمن بكلٍّ من نبوّتهما، أو بما جاء به.

كلّ ذلك يدلّ على أنّ المشركين لم يكونوا من طُلاّب الحقّ وبغاته، وأنّهم تارة يتذرّعون ـ لتبرير تمرّدهم على الحقّ ـ بنبوّة موسى(عليه السلام) وما أُوتي من التوراة أو المعجزة ويحتجّون بها على النبيّ المبعوث(صلى الله عليه وآله وسلم)بأنّه لماذا لا يأتي بمثل ما أتى به، وأُخرى ينكرون أصل النبوّة وإرسال الرسل من الله تعالى، ففي كلّ موضع يتمسّكون بشيء!!

٤٩. (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَاب مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ):

ظاهر الآية أنّ المشركين كانوا يعترفون بنزول كتاب من الله حتى يهتدي به الناس، ولكنّهم لم يعترفوا بكون التوراة والقرآن من الله سبحانه لأنّهم يريدون كتاباً ينسجم مع أهوائهم ورغباتهم ومآربهم، وعند ذلك أمر الله سبحانه نبيّه أن يحتجّ عليهم ويتحدّاهم بقوله: (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَاب مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ): أي أكثر هداية من التوراة والقرآن إلى الحقّ وإلى الصراط المستقيم، فإذا ثبت ذلك فإنّي أتّبعه، فليس بين النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)وبين الحقّ معاندة، بل هو أشدّ الناس طلباً له (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) في قولكم: يجب نزول كتاب من الله سبحانه لهداية الناس، أو في زعمكم أنّ التوراة والقرآن سحران تظاهرا، والذي يؤول إلى كونهما باطلَين مفتريين على الله سبحانه.

٥٠.(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ):

أي فإن لم يقبلوا دعوتك بالإتيان بكتاب أفضل منهما ولم يمكنهم تحقيق ما طلبت منهم، فاعلم أنّهم إنّما يتّبعون أهواءهم وما تميل إليه طباعهم وتشتهيه أنفسهم، لا الحقّ والهدى، وإلاّ كان عليهم الرجوع إلى ما أنزلنا على نبيّنا محمّد من الكتاب، واتّباع ما اشتمل عليه من الحجج والبراهين الدالّة على توحيده سبحانه.

قال أحد المعاصرين محذّراً من اتّباع الهوى:

جانبْ هواك، تلُذْ بأمنع معقل *** إنّ الهوى سُمٌّ أُديفَ به العسلْ

وَدعِ الأمانيَ لا تُزنَّ بحبّها *** أوَما علمتَ بأنّها تُعمي المُقَلْ؟

وتصدُّ عن نَبْع القناعة والرضى *** وتقودُ، ويلكَ، نحو أسباب الحِيَلْ[1]

[1] ومضات في الليل البهيم لحيدر الطحّان البغدادي:٨١.

قوله: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ): أي من تبع هوى النفس مجرّداً عن إرشاد الله سبحانه، فهذا ـ بما أنّه منقطع عن الله سبحانه ـ لا تشمله هداية الله سبحانه كما يقول: (إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

٥١. (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ):

توصيل القول عبارة عن إتيان بيان بعد بيان كوصل البعض بالبعض. ومعنى الآية: إنّا أنزلنا القرآن مفرّقاً يتصل بعضه ببعض ولم ينزل مرّة واحدة، وما هذا إلاّ(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) إذ في كلّ يوم يقفون على حكمة وعظة خاصّة. ولعلّ الآية إجابة عن اعتراضهم وهو: لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة كالتوراة؟

قال الأُستاذ عبد الكريم الخطيب: فنزول القرآن على هذا الأُسلوب، يثير أشواق المؤمنين، الذين كانوا ينتظرون كلّ يوم خيراً جديداً ينزل من السماء، فيلقَونه بوجودهم كلّه... وهكذا كانت الآية أو الآيات المنزلة، تمثّل القرآن الكريم كلّه، حيث يَرون فيها دعوة الإسلام، ورسالته عقيدة وشريعة، وبهذا يَرون مع كلّ وحي يتلقّاه الرسول، دعوة مجدّدة إلى الله، وإلى دين الله، فيزدادون إيماناً ويقيناً، ويترشّفون ما يروي ظمأهم من هذا المورد العذب... قطرة قطرة، فيكون أنقع وأنفع. التفسير القرآني للقرآن:١٠/٣٦٢.

وفي النهاية أتمّ الله الحجّة على قريش ومن والاهم، ولكنّهم آثروا متابعة الهوى على متابعة الحقّ، وسلوك طريق الهدى.

سورة القصص: الآيات ٥٢ ـ ٥٦ (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ... وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).

الآيات: الثانية والخمسون إلى السادسة والخمسين

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ * إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).

المفردات

مسلمين: منقادين خاضعين لله.

يدرأون: يدفعون.

اللَّغو: ما حقُّه أن يُلغى ويُترك، من القول والفعل.

سلام عليكم: أي أمان منّا لكم، وهو سلام متاركة وتوديع، كما قال تعالى: (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا) الفرقان:٦٤..

لانبتغي الجاهلين: أي لا نجازيهم بالباطل على باطلهم، لأنّه من عمل الجاهلين.

التفسير

الآيات بصدد مدح طائفة خاصّة من أهل الكتاب وذمّ طائفة من المشركين. ولعلّ المراد هم الذين أجابوا وفد قريش عندما سألوهم عن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فأخبروا بنعته وصفته في كتابهم وأغضبوا قريشاً، كما مرّ.

٥٢. (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ):

أوصاف المؤمنين بالنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)من أهل الكتاب

إنّه سبحانه يصفهم في هذه الآيات بصفات سامية وهي أدلّ دليل على أنّ المدح لطائفة خاصّة من أهل الكتاب لا لجميعهم فيكون الموصول في قوله: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ) مشيراً إلى ما ذكرنا، وأمّا ما هي أوصافهم فهي:

الأوّل:(هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) الظاهر أنّ الضميرين في قوله: (مِنْ قَبْلِهِ)

وقوله:(بِهِ) يرجعان إلى القرآن، والمعنى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) التوراة والإنجيل (مِنْ قَبْلِهِ) : أي من قبل القرآن (هُمْ بِهِ) بالقرآن (يُؤْمِنُونَ)قيل: نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قبل مبعثه: اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه) وقت قدومه وثمانية قدموا من الشام: منهم بحيرا، وأبرهة، والأشرف، وعامر، وأيمن، وإدريس، ونافع. التبيان للشيخ الطوسي:١٦٢/٨.

٥٣. (وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ):

الثاني: قوله: (وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ) القرآن (قَالُوا آمَنَّا بِهِ): أي بالقرآن، فكانت تلاوة الآيات عليهم سبباً لأن يقولوا آمنّا.

الثالث:(إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا) الذي لا ريب فيه أنّه من الله، وليس بسحر ولا بكهانة.

الرابع:(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ): أي كنّا منقادين لنبوّته قبل أن نتشرّف بحضرته، لأنّا وجدنا علائمه في الكتب السماوية، يقول سبحانه في حقّ هؤلاء وغيرهم: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) البقرة:١٤٦..

وفي آية أُخرى قال: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ) الأعراف:١٥٧..

٥٤. (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ):

الخامس:(أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) تارة باتّباع دينهم، وأُخرى باتّباع دين النبيّ محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، ويحتمل أن يراد تارة باتّباع النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأُخرى بالصبر على أذى المشركين. فعلى الأوّل فالصبر على الإيمان بعد الإيمان، وعلى الثاني الصبر على الإيمان وحسن السلوك.

السادس:(وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ): أي يدفعون ما يلقون من أذى السفهاء بالحلم والصبر.

قال الشريف الرضي(رحمه الله): وهذه استعارة لأنّ الحسنة والسيئة ليسا بجسمين يصحّ دفع أحدهما بالآخر، وإنّما المراد ـ والله أعلم ـ أنّهم يختارون الأفعال الحسنة على الأفعال القبيحة،و عند ذلك كأنّهم قد دفعوا السيئات بالحسنات. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٧٦.

ولا شكّ في أنّ هذه الخصلة الحسنة، أعني: مقابلة الجهل بالحلم، والغلظة بالمداراة تُعدّ من أسمى الخصال، وهي من دلائل سموّ النفس، ورحابة الصدر، ولها أثرها الفاعل في توثيق الروابط الاجتماعية، وتنقية الأجواء من غبار الخصام والتنازع، وفي إعطاء فرصة لأصحاب السَّفَه والطيش لإعادة النظر في سلوكهم، والكفّ عن إيذاء الصالحين، قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ».(نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٣١.)

هذا هو السلوك العام للمؤمن، وأمّا إذا أدّى حلمه وصفحه إلى نتيجة سلبية، كأنْ يحسبه المسيء ضعفاً وهواناً، فيزداد تنمّراً وعدواناً، فإنّ له أن يردعه ويدفع أذاه وشرّه عنه.

قال أحد المعاصرين:

إنّا إذا الأحلامُ طاشت في الورى *** عَلِمَ الأماثلُ أنّنا الأحلامُ
نَلقى السفاهة والجهالة بالنُّهى *** إنّ النُّهى للسالكين عصام[١]
فإذا انتهى غيٌّ وكفكفَ جُهَّلٌ *** فهمُ لنا الإخوان والأرحام
وإذا استبدّت بالنفوس جهالةٌ *** وامتدّ أُفقٌ كالرمال جَهام
جُلنا كما بثمودَ جالت صيحةٌ *** فهوى بها الطغيان والأصنام
لغةُ السلاح بليغةٌ كلماتُها *** إن أُغلقت من زمرة أفهام[٢]

[١] العصام: الحبل الذي تشدّ به القِربة، وهو أيضاً العروة لوعاء القربة حيث تعلّق فيها.

[٢] التعايش السلمي للسيد محمود الموسوي:١١٣ـ١١٤.

السابع: (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ): أي وينفقون في سبُل الخير، ممّا أعطاهم من فضله، ابتغاء مرضاته. ولو كان دفع السيئة بحسن السلوك فذاك يتحقّق بالإنفاق والعطاء إذا كانوا قادرين عليه، قال الإمام علي(عليه السلام): «عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ». نهج البلاغة: الكلمات القصار، برقم ١٥٨.

٥٥. (وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ):

الثامن: (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ) فهؤلاء إذا سمعوا لغواً من القول، وهو الهذر والسبّ اللاذع وكلّ ما فيه خشونة، تلقّوه كأن لم يكن، كما قال: (أَعْرَضُوا عَنْهُ) فلم يردّوا اللّغو باللّغو.

التاسع: (وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ): أي كلٌّ مجزيٌّ بعمله.

العاشر: (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ): أي لسنا أهل كلام بذيء ولسنا سبّابين فنواجهكم بالمثل، بل يقولون لهم: (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)وهو أشبه بسلام وداع ومفارقة، لا سلام ترحيب واستقبال.

الحادي عشر:(لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ): أي لا نعاشرهم ولا نجالسهم، وهو حكاية عن لسان حالهم، إذ لو تلفّظوا به لكان من مقابلة السيّئ بالسيّئ. الميزان في تفسير القرآن:١٦/٥٥. هذه هي سمات المؤمنين حقّاً، فهؤلاء بثباتهم وصبرهم وسلوكهم الحسن واستقامتهم على طريق الإيمان بالرغم ممّا يلقَونه من أذىً وسفاهة يملكون القلوب ويجعلون من العدوّ صديقاً.

الهداية بيد الله تعالى

٥٦. (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ):

كان النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) حريصاً على هداية قومه كما تحكي عنه بعض الآيات، قال سبحانه:(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) التوبة:١٢٨، وقال سبحانه:(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) النحل:٣٧، فجاء البيان القرآني يؤكّد أنّ الهداية بيد الله تعالى وحده. وأُريد بالهداية الإيصال إلى المطلوب لا إراءة الطريق فإنّها تعمّ المؤمن والكافر. نعم الإيصال إلى المطلوب رهن الاستنارة بالهداية الأُولى وعندئذ توافيه الهداية الثانية التي توصله إلى ما هو المطلوب، فالله سبحانه يصف أصحاب الكهف بقوله:(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ)الهداية الأُولى ثم يقول: (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى): أي الإيصال إلى المطلوب، ولذلك يقول: (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ). الكهف:١٣ و١٤.

وبذلك ظهر أنّ الآية بصدد بيان ضابطة كلية لاتمتّ إلى شخص معيّن بصلة، كما يقول: (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ): أي من لم يهتد بالهداية الأولى وظلّ مشركاً ومعانداً (وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ): أي من تمسّك بعروة الهداية الأُولى فيوفّقه للخيرات ويوصله إلى أقصى مراتب الإيمان (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ): أي أنّ الله أعلم بمن يقبل الهداية، ولذلك آمنت فئة من أهل الكتاب لأنّهم جعلوا أنفسهم في مهبّ ريح الهداية الأُولى فأُفيض عليهم الإيمان الكامل دون قريش وأمثالهم الذين قاموا بمحاربة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم). والآية بحكم قوله: (مَنْ أَحْبَبْتَ) ضابطة كلّية وهي من صيغ العموم، وتفسيرها بشخص معيّن لا غير (كأبي طالب) تفسير بالرأي، وستوافيك مناقشة ما ورد في المقام.

أبو طالب مؤمن قريش

قد عرفت أنّ قوله سبحانه:(إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) قضية كليّة وإرشاد إلى أصل علمي، وهو أنّ الإيصال إلى المطلوب ليس من شأن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بل أنّ ما من شأنه هو إراءة الطريق كما يقول:(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم) الشورى:٥٢، وقال تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم) المؤمنون:٧٣..

ولكنّ القرطبي نقل عن الزجّاج قوله: أجمع المسلمون على أنّها نزلت في أبي طالب، ثم قال [القرطبي]: قلت: والصواب أن يقال: أجمع جلّ المفسرين على أنّها نزلت في شأن أبي طالب عمّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم). وهو نصّ البخاري ومسلم، وقد تقدّم ذلك في «براءة»، وقال أبو رَوق: قوله: (وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)إشارة إلى العباس، وقاله قتادة:... إلى أن قال: وقال جُبير بن مطعم: لم يسمع أحد الوحي يتلى على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) إلاّ أبا بكر الصديق فإنّه سمع جبريل وهو يقول: يا محمد اقرأ(إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي):١٣/٢٩٩..

وهذا البحث وإن كان خارجاً عن موضوع كتابنا هذا، لكن لمّا رأينا أنّ مَن كتب في التفسير من أتباع مدرسة الصحابة ـ إلاّ من شذّ ـ قال بنزول الآية في أبي طالب حامي النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) والذائد عن نفسه ونفيسه، آثرنا إيضاح الموضوع على وجه الإيجاز، فتارة نبحث في الأدلّة التي تثبت إيمان أبي طالب بدين ابن أخيه(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأُخرى عن أسانيد الروايات

التي ـ كما يقال ـ دلّت على نزول الآية بحقّه، وإليك الكلام في المقام الأوّل.

الأدلّة على إيمان أبي طالب

إنّ التعرّف على عقيدة أحد، ومعرفة نمط تفكيره، يمكن عن ثلاث طرق هي:

١. دراسة ما ترك من آثار علمية وأدبية.

٢. سلوكه العملي في المجتمع.

٣. رأي أقربائه وأصحابه (من غير ذوي الأغراض) فيه.

ونحن نستطيع أن نتعرّف على إيمان أبي طالب وعقيدته من خلال هذه الطرق، فإنّ الأشعار الّتي تركها أبو طالب تدلّ بجلاء لا لُبس فيه على إيمانه وإخلاصه، وكذا تكونُ سيرته العملية وخدماته القيّمة في السنوات العشر الأخيرة من عمره خير شاهد على إيمانه العميق وصلته الوثيقة بالله سبحانه. كما أنّ آراء أقربائه المنصفين تتّفق على أنّه كان مسلماً مؤمناً، ولم يقل أحد منهم في حقّه بغير هذا أبداً.

أمّا الطريق الأوّل ـ أعني: آثاره الأدبية ـ فنحن نختار من شعره بعض الأبيات التي تدلّ بوضوح على إيمانه واعتقاده بالإسلام.

١. تمنيتمُ أن تَقتُلُوهُ وَإنّما *** أمانيُّكُم هذي كَأحلامِ نائِم

نَبيٌّ أتاهُ الوحيُ من عِندِ رَبِّه *** وَمَن قالَ لا يَقرَع بها سنَّ نادِم[1]

[1] ديوان أبي طالب: ٣٢؛ السيرة النبوية: ٣٥٣/١.

***

٢. ألَم تَعلَمُوا أنّا وَجَدنا محمّداً *** رَسُولاً كَمُوسى خُطَّ في أوّلِ الكُتُبِ

وأنَّ عَلَيهِ في العِبادِ محبةً *** وَلا حيفَ في من خصَّهُ الله بالحُبِّ[2]

[2] ديوان أبي طالب: ٣٢؛ السيرة النبوية: ٣٥٣/١.

***

٣. وَاللهِ لَن يَصِلُوا إلَيكَ بِجَمعِهِم *** حَتّى أوسَّدَ في التّراب دَفينا

فَاصدَع بِأمرك ما عَلَيْكَ غضاضةٌ *** وَابشِر بِذاكَ وَقرَّ مِنكَ عُيُونا

وَدَعوتَني وعلمتُ أنّكَ ناصِحٌ *** وَلَقَد دَعَوت وَكُنت ثَمَّ أمِينا

وَلَقَد عَلِمتُ بأن دِينَ مُحمّد *** مِن خَيرِ أديان البَرّية دينا[1]

[1] تاريخ ابن كثير: ٤٢/٣.

***

٤. أو تُؤمنوا بكتاب منزل عَجَب *** عَلى نَبيّ كَمُوسى أو كذِي النونِ[2]

[2] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٧٤/١٤؛ ديوان أبي طالب: ١٧٣.

***

٥. لَقَد عَلِمُوا أنَّ ابنَنا لا مُكذَّبٌ *** لَدَينا وَلا يَعني بِقولِ الأباطِلِ

فأيّدهُ رَبُّ العِبادِ بِنَصرِهِ *** وَأظهَرَ ديناً حَقُّهُ غيرُ باطِلِ[3]

[3] السيرة النبوية: ٢٧٢/١ـ٢٨٠.

إنّ كلّ واحدة من هذه المقطوعات الشعرية تشكّل قسماً صغيراً من قصائد مفصّلة لأبي طالب، تشهد بإيمانه بالإسلام، ومن قرأها بإنصاف وموضوعية ـ بعيداً عن التعصّب والغرض المقيت ـ لحَكم بإسلام قائلها وإيمانه الخالص العميق.

هذا حول الطريق الأوّل.

وأمّا الطريق الثاني للاستدلال على إيمانه(رحمه الله)، فهو بيان مواقفه من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وكيفية دفاعه وذبّه عنه وحمايته له، وما قام به من خدمات جليلة في هذا الطريق.

إنّ كلّ واحدة من هذه الخدمات تستطيع بمفردها أن تكون مرآة تعكس فكر «أبي طالب» وعقيدته وما كان يحمله بين جوانحه من إيمان بالرسالة والرسول، وإخلاص لله تعالى.

لقد ظلّ أبو طالب طوال اثنتين وأربعين سنة بأيامها ولياليها يحدب على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ويدافع عنه ويحاميه، وبخاصّة في السنوات العشر الأخيرة من حياته التي صادفت بعثة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ودعوته، وكان العامل الوحيد الذي دفعه إلى مثل هذه المواقف الراسخة العظيمة في هذا السبيل هو: عمق الإيمان برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وقوّة الاعتقاد الخالص برسالته.

روى ابن سعد أنّ أسياد قريش اجتمعوا في بيت أبي طالب والنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) حاضر، وتبودلت بين الجانبين أحاديث حول رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)ودينه، وحاول القرشيون إثناء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عن دعوته ومنعه من تبليغ رسالته ولكن دون جدوى، فلمّا يئسوا من الحصول على النتيجة التي كانوا يريدونها نهضوا من مكانهم ليتركوا بيت «أبي طالب»، وعندها قال عقبة بن أبي معيط غاضباً مهدّداً: لا نعود إليه أبداً، وما خير من أن نقتل محمّداً. فغضب «أبو طالب» من هذه الكلمة، ولكنْ ماذا عساه أن يفعل فهم ضيوفه، وفي بيته.

واتّفق أن خرج النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) من البيت في ذلك اليوم ولم يعد، وجاء «أبو طالب» وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع فتياناً من بني هاشم وبني المطلب، ثم قال ـ وهو يظن أنّ قريشاً كادت برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ : ليأخذ كلّ واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كلّ فتى منكم، فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية ـ يعني أبا جهل ـ فإنّه لم يغب عن شرّ، إن كان محمّدٌ قد قتِل، فقال الفتيان: نفعل فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال فقال: يا زيد أحسست ابن أخي؟ قال: نعم كنت معه آنفاً.

فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي أبداً حتى أراه.

فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدّثون فأخبره الخبر، فجاء رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أبي طالب فقال: يا ابن أخي: أين كنت؟ أكنتَ في خير؟ قال: نعم، قال: ادخل بيتك، فدخل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فلمّا أصبح أبو طالب غدا على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فأخذ بيده فوقف على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطّلبيون فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممتُ به؟

قالوا: لا، فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان اكشفوا عمّا في أيديكم، فكشفوا، فإذا كلّ رجل منهم معه حديدة صارمة. فقال: والله لو قتلتموه ما أبقَيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم، فانكسر القوم وكان أشدّهم انكساراً أبو جهل. الطبقات الكبرى:١/١٦٨؛ الطرائف:٨٥.

ومن مواقفه التي ناصر فيها الإسلام، وأسدى فيها للنبيّ أسمى التضحيات، تحمّله مصاعب الإقامة الجبرية في شِعب أبي طالب، والحصار الاقتصادي والاجتماعي الذي فرضته قريش على بني هاشم، والذي دام ثلاث سنين عجاف. تاريخ الطبري:٢/٧٨ـ ٧٩؛ شرح

نهج البلاغة: ١٤/ ٥٨ ـ ٥٩، (نقله عن كتاب السيرة والمغازي لمحمد بن إسحاق بن يسار).

وكان ـ رضوان الله تعالى عليه ـ يجازف بحياة أبنائه ليدرأ عن رسول الله خطر القتل والاغتيال، أو أن يمسّه أحد بسوء، فكان يُضجع ولده علياً(عليه السلام)في فراشه كي لا يصيب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أي مكروه. ذكر ذلك أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي في أماليه، ونقله عنه ابن أبي الحديد. انظر: شرح نهج البلاغة:١٤/٦٤.

وهذا إذا قرن بما أوصى به أبو طالب أولاده، لا يبقي شكّاً في عظم حبّه لمحمّد(صلى الله عليه وآله وسلم) وإيمانه به، وممّا جاء في وصيّته: «وأيم الله لكأنّي انظرُ إلى صعاليك العرب، وأهل البرّ في الأطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدّقوا كلمته، وعظّموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودُورُها خراباً، وضُعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده...».

ثم ختم وصيته هذه بقوله:

يا معشر قريش كونوا له ولاةً، ولحزبه حماةً، والله لا يسلك أحدٌ منكم سبيله إلاّ رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلاّ سعد. السيرة الحلبية:١/٣٥١ـ ٣٥٢.

نحن لا نشكّ في أنّ «أبا طالب» كان صادقاً في أُمنيّته هذه ؛ لأنّ خدماته الكبرى وتضحياته المتواصلة خلال عشر سنوات من بداية عهد الرسالة شاهدة على صدق مقاله، كما كان صادقاً في الوعد الذي قطعه على نفسه لابن أخيه(محمّد) في مبدأ البعثة عندما جمع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أعمامه وعشيرته الأقربين ودعاهم إلى الإسلام فقال له أبو طالب:

أُخرج يا ابن أخي فإنّك الرفيعُ كعباً، والمنيع حزباً، والأعلى أباً.

واللهِ لا يَسلِقُك لسانٌ الا سَلَقتهُ ألسن حِداد، واجتذَبْته سيوفُ حداد.

واللهِ لَتَذِلَنَّ لَكَ العربُ ذلَّ البُهم لحاضِنها. الطرائف، لابن طاووس: ٣٠٢ ـ ٣٠٣ ، نقلاً عن كتاب «غاية السؤول في مناقب آل الرسول»، تأليف إبراهيم بن علي الدينوري.

***

وأمّا الطريق الثالث، وهو أن نسأل أقاربَه (من غير المغرضين)، عن إيمانه، لأنّ «أهل البيت أدرى بما في البيت»، فنجد أنّهم أجابوا عن ذلك بما يلي:

١. لما مات أبو طالب جاء عليٌّ(عليه السلام) إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فآذنه بموته، فتوجّع توجّعاً عظيماً، وحزن حزناً شديداً، ثمّ قال له: امض فتولّ غسله فإذا رفعته على سريره فاعلمني، ففعل فاعترضه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وهو محمول على رؤوس الرجال: فقال: «وصلتك رحم يا عم، وجزيت خيراً، فلقد ربّيت وكفلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً».

ثم تبعه إلى حفرته، فوقف عليه فقال:

«أما والله لاستغفرنَّ لك، ولاشفعنَّ فيك شفاعةً يعجبُ لها الثقلان». شرح نهج البلاغة: ١٤/٧٦.

٢. روي أنّ علي بن الحسين(عليهما السلام) سئل عن إيمان أبي طالب. فقال:

«واعجباً! إنّ الله تعالى نهى رسوله أن يقرّ مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تَزَل تحتَ أبي طالب حتّى مات». شرح نهج البلاغة: ١٤/٦٩.

٣. روي عن محمّد بن علي الباقر(عليهما السلام) أنّه قال:

«لو وُضِعَ إيمان أبي طالب في كفّة ميزان، وإيمانُ هذا الخلقِ في الكفّة الأُخرى لرجح إيمانه».

ثم قال:

«ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين عليّاً(عليه السلام) كانَ يأمر أن يُحجَّ عن عَبدِ اللهِ وأبيه». شرح نهج البلاغة: ١٤ / ٦٨ .

٤. قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق(عليهما السلام): «إنّ مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان، وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم مرتين، وأنّ أبا طالب أسرّ الإيمان وأظهر الشرك فآتاه الله أجره مرّتين». الكافي: ٤٤٨/١.

***

إلى هنا اتّضح أنّ شيخ الأباطح هو المسلم الأوّل بعد ولده البارّ(عليه السلام)أسلم وذاد عن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومات مسلماً، وما سردناه من الشواهد برهان قطعي على إيمانه.

بقي الكلام في مناقشة الروايات التي تحكي عن نزول قوله سبحانه: (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)في حقّ أبي طالب، وقد كفانا في نقدها ما حققه العلاّمة الفقيه الأميني النجفي في الجزء الثامن من موسوعته «الغدير»، وإليك خلاصة ما أفاده رحمه الله تعالى:

نقد ما روي في تفسير الآية

١. ما رواه عبد بن حُميد ومسلم صحيح مسلم: ٨٤/١ ، الحديث ٤٢، كتاب الإيمان. والترمذي سنن الترمذي:٣١٨/٥، الحديث ٣١٨٨. وغيرهم عن أبي هريرة: قال: لمّا حضرت وفاة أبي طالب فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): يا عمّاه قل: لا إله إلاّ الله، أشهد لك بها عند الله يوم القيامة، فقال: لولا أن تعيّرني قريش يقولون: ما حمله عليها إلاّ جزعه من الموت لأقررت بها عينك فأنزل الله عليه:(إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ).

قال الأميني: كيف يرويه أبو هريرة وكان يوم وفاة أبي طالب شحّاذاً من متكفّفي دَوْس في اليمن الكفرة، وما ألمّ بالإسلام إلاّ عام خيبر سنة سبع من الهجرة الشريفة باتّفاق من الجمهور، فأين كان هو من وفاة أبي طالب التي كانت في السنة العاشرة من البعثة؟!

٢. ما أخرجه ابن مردويه وغيره من طريق أبي سهل السريّ بن سهل بالإسناد عن عبد القدوس، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزلت:(إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) الآية، في أبي طالب ألحّ عليه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يسلم فأبى، فأنزل الله(إِنَّكَ لاَ تَهْدِي). تفسير الدر المنثور: ١٣٤/٥ [٤٢٩/٦].

قال الأميني: أبو سهل السريّ أحد الكذّابين، وضّاع كان يسرق الحديث، و عبدالقدوس أبو سعيد الدمشقي أحد الكذّابين .

وظاهر هذه الرواية كسابقتها هو المشاهدة، والأثبت على ما قاله ابن حجر في الإصابة الإصابة:٣٢٢/٢. : أنّ ابن عبّاس ولد قبل الهجرة بثلاث، فهو عند وفاة عمّه أبي طالب كان يرضع ثدي أُمّه، فلا يسعه الحضور في ذلك المشهد.

وإن صدقت الرواية عنه ـ وأنّى تصدق؟ ـ فإنّ ابن عبّاس أسند ما يقوله إلى من لا نعرفه، ولعلّ رواة السوء حذفوه لضعفه، كما حذف غير واحد من المؤلفين أبا سهل السريّ وعبد القدوس ونظراءهما من أسانيد هذه الأفائك ستراً على عللها.(تفسير الدر المنثور: ٦ / ٤٢٩ .)

٣. ما أخرجه أبو السهل السريّ ـ الكذّاب المذكور ـ من طريق عبد القدّوس الكذّاب أيضاً، عن نافع، عن ابن عمر، قال: (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) الآية، نزلت في أبي طالب عند موته، والنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عند رأسه وهو يقول: يا عمّ قل لا إله إلاّ الله أشفع لك بها يوم القيامة، قال أبو طالب: لا يعيّرني نساء قريش بعدي أنّي جزعت عند موتي، فأنزل الله تعالى: (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) الغدير:٣٤/٨.. لعلّ ابن عمر لايدّعي في روايته الحضور في ذلك المحضر، وليس له أن يدّعي ذلك لأنّ مولده سنة عشر أو إحدى عشرة قبل الهجرة فيكون عمره عند موت أبي طالب نحو سبع أو ثمان سنين.، فطبع الحال يقتضي أنّه سمعه من غيره ولكنّه لم يسمّه.

ثمّ إنّ السيوطي نقل في شأن نزول هذه الآية عن قتادة كما نقل غيره عن مجاهد، فإنّ مستند أقوالهما إمّا هذه الروايات أو أنّهما سمعاها من أُناس مجهولين فمراسيل كهذه لا يحتجّ بها على أمر خطير مثل تكفير أبي طالب بعد ثبوت إيمانه على ما عرفت، ومن

التفسير بالرأي والدعوى المجرّدة ما عن قتادة ومن يشاكله مرسلاً من تبعيض الآية بين أبي طالب والعبّاس، فجعل صدرها لأبي طالب وذيلها للعبّاس، لاحظ : تفسير القرطبي:٢٩٩/١٣.الذي أسلم بعد نزول الآية بعدّة سنين، كما هو المتسالم عليه عند الجمهور. الغدير:١٣٦/٨.

وثمّة تعليق كتبه محمد عزة دروزة (من مفسّري السنّة) حول الآية، قال فيه:

وممّا يتبادر لنا من سياق الآيات وفحواها أنّ الآية غير منقطعة عن السياق السابق واللاحق أوّلاً. وأنّ وفاة أبي طالب التي تذكر الروايات أنّ الآية نزلت في ظرفها، إنّما كانت في أواخر العهد المكّي، في حين أنّ هذه السورة]يعني القصص[نزلت في أواخر النصف الأوّل من هذا العهد على ما يمكن تخمينه من ترتيبها، وهذا يجعلنا نرجّح أنّ الآية جاءت معقّبة على الآيات السابقة جميعها، وبقصد تسلية النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، والتهوين عليه بسبب حزنه وحسرته من مواقف العرب العنيدة وجحودهم وتعجيزاتهم على شدة رغبته في هدايتهم، وبخاصة بعد أن أنذرهم وأقام الحجّة عليهم. وأبو هريرة الذي يروي الشيخان عنه الحديث قد أسلم في أواخر العهد (المدني) في المصدر: المكّي، وهو سهو. وحديثه الذي يذكر فيه أنّ الآية نزلت في مناسبة الموقف الذي حكاه، ليس خبراً عن رسول الله أخبره به، كما هو ظاهر من صيغته، ونرجّح أنّه اجتهادي، والله أعلم. التفسير الحديث:٣٢٨/٣.

ولعلّ هذا البحث الموجز يكفي في الدفاع عن سيد الأباطح الذي ليس له أي جرم سوى كونه أبا عليٍّ (عليه السلام).

ولولا كونه كذلك لما وقع هدفاً لهذه الأقاويل والأخبار الموضوعة، ولله درّ ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة حيث قال:

ولولا أبو طالب وابنه *** لما مُثِّلَ الدين شخصاً فقاما

فذاك بمكةَ آوى وحامى *** وهذا بيثربَ جسَّ الحِماما

تكفّلَ عبدُ مناف بأمر *** وأودى فكان عليٌّ تماما

فقل في ثَبير مضى بعد ما *** قضى ما قضاه وأبقى شماما

فلله ذا فاتحاً للهدى *** ولله ذا للمعالي خِتاما

وما ضَرَّ مَجدَ أبي طالب *** جهولٌ لغا أو بصيرٌ تعامى

كما لا يضرّ إياة(٢) الصبا *** ح مَنْ ظنَّ ضوء النهار الظلاما[٢]

٢ . إياة الصباح: ضوءه، وأصله في الشمس.

٢ . شرح نهج البلاغة:٨٤/١٤.

في شباك التقليد

للكاتب الإسلامي المعروف سيد قطب كلاماً في تفسير هذه الآية قاله تمشيّاً مع الأفكار التي تربّى عليها، نأتي بنصّه، يقول:

فهذا عمّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وكافله وحاميه والذائد عنه، لا يكتب الله له الإيمان، على شدّة حبّه لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وشدّة حب رسول الله له أن يؤمن. ذلك أنّه إنّما قصد إلى عصبية القرابة وحبّ الأُبوّة، ولم يقصد إلى العقيدة، وقد علم الله هذا منه، فلم يُقدِّر له ما كان يحبه له رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وجعله خاصّاً بإرادته سبحانه وتقديره. وما على الرسول إلاّ البلاغ، وما على الداعين بعد إلاّ النصيحة، والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن، والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد واستعدادهم للهدى أو الضلال. في ظلال القرآن:٣٦١/٦.

أقول:

١. حاصل كلامه وجود التعارض بين تقدير الله سبحانه وما أراده نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، فالله سبحانه لم يقدّر لأبي طالب

الإيمان الذي كان يحبّه رسول الله ويرجوه، وهل هذا صحيح؟!

٢. ثم نفترض أنّه سبحانه لم يقدّر له الإيمان لأجل أنّه قصد عصبية القرابة ولم يقصد العقيدة، أفيصحّ بعد ذلك أن يعاقبه ويضعه في ضحضاح من نار كما رووا؟! ومن المعلوم أنّ تقديره سبحانه يكون حائلاً ومانعاً من إيمانه، أفيصحّ أن يحتجّ عليه يوم القيامة ويدخل في ناره مع أنّه قدّر عدم إيمانه؟!

٣. إنّ أمر الله تعالى عجيب جدّاً، فإنّ أبا سفيان تآمر على النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)وألّب الناس على حربه، وقتل سبعين مسلماً في غزوة أُحد، ولكنّ الله سبحانه أراد إيمانه، ولم يُرد إيمان أبي طالب، أكانت كفّة أبي طالب في ميزان النصفة أخفّ من كفّة أبي سفيان، فلماذا قدّر الإيمان للثاني ولم يقدِّره للأوّل؟

والحقّ أنّ ما كتبه هذا الكاتب الأديب لا يفارق الجبر قيد شعرة، انظر إلى كلامه: والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن، والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد واستعدادهم للهدى والضلال.

ويظهر أنّ الذي أوقعه في أسر هذا العقيدة (الجبر) هو إصراره على تكفير أبي طالب، اتّباعاً لعقيدة الآباء، وجموداً على الروايات الواردة في البخاري ومسلم. وكان الأجدر به أن يتحرّر من ذلك، ويقتفي أثر المحدّث الكبير أبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي الشافعي(المتوفّى ٤٠٣هـ)، الذي ذهب إلى (إنكار الحديث في تخفيف العذاب على أبي طالب، وعدم القبول بثبوته) أحاديث العقيدة للدكتور سليمان الدبيخي:٦٨٧.مع أنّه ورد في الصحيحين.

سورة القصص: الآيات ٥٧ ـ ٦٠ (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا... خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ).

الآيات: السابعة والخمسون إلى الستين

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ * وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ).

المفردات

نتخطف: الخطف: الانتزاع بسرعة، وأُريد به هنا: الاستلاب والإخراج من البلاد.

نمكّن: التمكين: الجعل في مكان، وأُريد جعل مكّة في أمن وأمان.

يُجبى: الجَبي: الجمع والجلب، ومنه جباية الزكاة والخراج.

بطرت: قال الراغب: البَطَر: دَهَش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلّة القيام بحقّها وصرفها إلى غير وجهها. مفردات الراغب: ٥٠، مادة «بطر». وأُريد به هنا:تكبّرت وكفرت بنعمة ربها.

أُمّها: مركزها، وأُمّ القرى: مركز القرى.

التفسير

٥٧. (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ):

لمّا تحدّثت الآيات السابقة عن كفر جماعة من قريش وإيمان جماعة من أهل الكتاب مع ذكر أوصافهم، عاد البيان القرآني في هذه الآية إلى ذكر عذر من أعذار بعض المشركين التي يبرّرون بها عدم استجابتهم للهدى الذي يدعوهم إليه رسول الله(صلى الله

عليه وآله وسلم). روي عن ابن عباس: أنّ ناساً من قريش قالوا للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم): إن نتّبعك يتخطفنا الناس، فأنزل الله تعالى:(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ...). الدر المنثور: ٥ / ١٣٤.

وقيل: إنّها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف، فإنّه قال للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم): إنّا لنعلم أنّ قولك حقّ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا، ولا طاقة لنا بالعرب، فقال سبحانه ـ رادّاً عليه مقالته هذه ـ : (أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا) انظر: التبيان في تفسير القرآن:٨/١٦٤.: أي جعلنا مكّة في أمن وأمان، فهذه النعمة الكبرى أي كون هذا البلد مكاناً آمناً لهم حتى (يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ): أي يُجمع ويُحمل إليه من شتى البلدان ثمر كلّ شيء من الأشياء المثمرة، والعموم هنا عموم عُرفيّ (رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا): أي كلّه من عندنا، فالله سبحانه هو الذي منع الأغيار عن هذا البلد، وغمرها بالنعمة في حالة كفر أهلها، فهو أَولى بهذا في حالة الإيمان والطاعة. هذه هي حقيقة الحال (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)أنّ ما يتمتّعون به من أمن ورزق، هو من فضل الله وإحسانه!! نعم قليل منهم يعلم أنّ ذلك من صنع الله، حيث جعل لهذا البلد في قلوب الناس مقاماً سامياً تحترمه القبائل كلّها، فكفرهم وإيمانهم غير مؤثّر في هذه الحالة.

٥٨.(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَة بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ):

قد تعرّفت على عذر بعض القرشيّين حيث زعموا بأنّ اتّباع هدى الله يعرّضهم للمخاطر ويُغري بهم الأعداء ويفقدهم العون والنصير، كما قد تعرّفت على إجابة الله سبحانه عن ذلك وأنّه هو الذي منّ عليهم بالأمن والرزق في بلدهم في حالة الشرك، ومن ثمّ فهو سبحانه أقدر على حفظه مع الإيمان واقتفاء هدى الله، وقد أثبت التاريخ أنّ الاستقامة على هدى الله تمنح الإنسان القوّة والمنعة لا الضعف.

ثمّ إنّه سبحانه يجيب عن هذا العذر بجواب آخر وهو أنّ التنعّم والتمكين لم يكتب لهما البقاء مع الشرك والكفر بشهادة أنّ أُمماً كانوا متنعّمين ومتمكّنين لكن عمّهم عذاب الله سبحانه فهلكوا وبقيت مساكنهم خاوية، قال تعالى: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَة): أي من أهل قرية كحِجْر وثمود التي(بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)وطغت في عيشها فاغترّوا ولم يقوموا بحقّ النعمة، فدمّرناها عليهم (فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ) التي تمرّون عليها في أسفاركم كديار ثمود خاوية بما ظلموا (لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ): أي من بعد تدميرهم (إِلاَّ قَلِيلاً). وفي الاستثناء احتمالان:

١. أن يكون المستثنى منه المساكن فيكون المعنى: لم تسكن مساكنهم إلاّ قليلاً، فالقلّة صفة للمسكن لا للقاطنين والساكنين فيه.

٢. استثناء من السكونة التي دلّ عليها قوله: (لَمْ تُسْكَنْ): أي لم تسكن سكوناً إلاّ قليلاً، كسكون المارّة يوماً أو بعض يوم، فذهب القوم وحضارتهم ونعمهم (وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) إذ لم يبق أحد حتى يرث ما تركوه... والله سبحانه هو الذي ملّكهم فإذا ذهبوا رجع ما ملّك إلى المالك الواقعي، وبهذا المضمون قوله سبحانه:(وَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَان فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) النحل:١١٢..

وحاصل الإجابتين عن اعتذار المشركين من أنّ اقتفاء هداية الله محتف بخوف الاستلاب والخطف:

١. إنّ معطي الأمن هو الله سبحانه في حال الكفر، وهو المعطي له أيضاً في حال الإيمان.

٢. إنّ التنعُّم والدّعة لم يكتب لهما البقاء بشهادة أنّ أقواماً بالأمس كانوا مثل قريش، في مرحها وطغيانها في النعم بجحدها، قد عمّهم العذاب فلم يبق منهم أحد، وفي هذا نوع إيذان لقريش بأن يفكّروا في مصيرهم حيث يمكن أن يكتب عليهم ما كتب على الذين بطروا في معيشتهم.

ولمّا كان هنا مظنّة سؤال: لماذا أهلكهم الله مع ما مكّنهم من النعمة؟ جاء الجواب عنه في الآية التالية:

٥٩. (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ):

وحاصل الجواب: إنّ الله سبحانه لا يعذّب قوماً إلاّ بعد أن يتمّ عليهم الحجّة، قال سبحانه:(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً). الإسراء:١٥.. نعم لا يراد ببعث الرسول البعث إلى كلّ فرد أو إلى كلّ قبيلة وإنّما يبعث في المركز الذي يدور عليه سكان المنطقة، وقال: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى): أي ليس من شأنه إهلاك القرى واستئصال أهلها (حَتَّى يَبْعَثَ) الله (فِي أُمِّهَا): أي أمّ القرى، وهي كبراها ومركزها (رَسُولاً)يدعوهم إلى الحقّ ويرشدهم إلى سبيل السداد، ويكفي بعث الرسول في أُمّ القرى (مثل مكّة) لتتمّ الحجّة على القاطنين في سائر القرى، والذين ترتبط مصالحهم الإدارية والاقتصادية بها (يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) الناطقة بالحقّ(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)عطف على قوله: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى) وأُريد بالظلم الشرك بالله فإنّه ظلم عظيم.

وفي الآية نوع إيذان لقريش حيث إنّه سبحانه بعث رسوله في مكّة التي هي أُمّ القرى، فلو كذّبوا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وعاندوه، يُكتب عليهم ما كتب على سائر الأقوام الذين أهلكوا وكانوا ظالمين.

٦٠.(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ):

هذا جواب ثالث عن اعتذارهم بترك متابعة الهدى وهو أنّه سبحانه يوازن النّعم الدنيوية بالنّعم الأُخروية، فالأُولى ـ أي الدنيوية ـ متاع وزينة في أيام قلائل، كما يقول:(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ) والشيء هنا نكرة وصَفه بقوله:(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا) وأمّا ما ادّخره الله للمؤمنين العاملين من نعم الآخرة فهو خير وأبقى من هذه النّعم، كما يقول: (وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) فكيف توازنون نعم الدنيا بنعم الآخرة، وتؤثرون الذي لا يبقى على الذي لا يفنى؟! وهذا من غير فرق بين أن يؤخذ لفظ الدنيا في قوله:(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) من الدنوّ أي الحياة القريبة في مقابل الحياة الآخرة البعيدة، أو يؤخذ من الدناءة أي الحقيرة، وكلاهما محتملان.

سورة القصص: الآيات ٦١ ـ ٦٧ (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ ... فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ).

الآيات: الحادية والستون إلى السابعة والستين

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ).

المفردات

متّعناه: المُتعة: المنفعة. وقد فُرّق بينهما بأنّ المتعة منفعة توجب الالتذاذ في الحال، والنفع قد يكون بألم يؤدي إلى لذّة في العاقبة، فكلّ متعة منفعة، وليس كلّ منفعة متعة.

حقَّ: وجبَ وثبت، وهو إشارة إلى قوله تعالى: (وَلَـكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِي لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) السجدة:١٣..

أغويناهم: الغَواية: مصدر غَوى يغوي بمعنى ضلّ. وتأتي بمعنى خابَ.

فلم يستجيبوا لهم: فلم يجيبوهم. قال الزمخشري: ما الفرق بين فعل الاستجابة في الآية وبينه في قوله: «فلم يستجبه عند ذاك مجيب»، فقد عُدّي الأوّل باللام دون الثاني؟ فأجاب: هذا الفعل يتعدّى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام، ويحذف الدعاء إذا

عُدّي إلى الداعي في الغالب فيقال: استجاب الله دعاءه، أو استجاب له ولا يكاد يُقال: استجاب له دعاءه . تفسير الكشّاف:١٧٣/٣ في تفسير الآية ٥٥.فَعَميت: فَخَفيت.

الأنباء: الحجج التي تنجيهم.

لا يتساءلون: أي لا يسأل بعضهم بعضاً.

التفسير

٦١. (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ):

الظاهر أنّ قوله: (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ) عطف على قوله: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) والفرق وجود الموازنة في المعطوف عليه بين نعم الدنيا ونعم الآخرة.

وأمّا المعطوف فالموازنة بين أصحاب النعمتين، فعبّر عن أصحاب الجنة بقوله: (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ) والمراد بالوعد الحسن هو المغفرة والجنة، قال سبحانه: (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) المائدة:٩..

كما عبّر عن المشركين المتمتّعين بنعم الدنيا بقوله: (كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ثم يشير إلى أنّ الموازنة باطلة، فأين أصحاب الجنة المتمتّعين بقصورها ومناظرها المونقة ونعيمها الدائم، وبين الآخرين الذين يُحْضَرون إلى الحساب والجزاء، كما يقول: (ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ): أي المُساقين قهراً حتى يحضروا عند ربّهم للحساب والجزاء. وحاصل هذه الآية والتي سبقتها أن لا تقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا كما لا يقاس أصحاب الجنة بأصحاب النار، فعلى هؤلاء المتقاعدين عن الإيمان بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ممّن يخافون الاستلاب والخطف، أن يفكّروا في النعمتين والمصيرين، ويختاروا أحدهما.

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) في صفة الجنة:«فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا». نهج البلاغة: الخطبة ١٦٥.

٦٢ و٦٣. (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ):

لمّا تقدّم في الآية السابقة أنّ غير من وُعد بالوعد الحسن يكون من المُحضرين للسؤال، جاء البيان القرآني ليشرح هذا الأمر ويشير إلى مشهد الإحضار. وحاصل الآيتين: إنّه سبحانه ينادي المشركين ويقول:(أَيْنَ شُرَكَائِيَ) وهم على قسمين:

١. الملائكة المقرّبون، والمسيح، وعُزير، حيث إنّ جماعة من العرب كانوا يعبدون الملائكة ويتصوّرون أنهم بنات الله سبحانه، كما أنّ النصارى لا يزالون يعبدون المسيح بتصوّر أنّه ثالث ثلاثة.

٢. عتاة الجنّ، وفرعون ونمرود من الإنس، وإبليس وقرناء الشياطين من الجنّ، فعندما ينادي سبحانه زمرة المشركين حتى يأتوا بالذين كانوا يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله سبحانه، يأتي الجواب من الزمرة الثانية، أعني: غير القدّيسين من الآلهة المكذوبة، فيعترفون بقولهم: نحن أغوينا هؤلاء الذين عبدونا ولكن نحن نتبرّأ من عبادتهم لنا، وما كانوا يعبدوننا عن عنف وإلجاء وإنّما عبدونا عن اختيار، وقد جاء في بعض الآيات تفسير ذلك، يقول سبحانه حاكياً عن لسان الشركاء: (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ) الصافات:٣٠، وقال تعالى: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ).(إبراهيم: ٢٢)

ولكن هؤلاء وإن التجأوا إلى هذا العذر ولكن لا يُقبَل منهم بشهادة قوله تعالى:(حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ).

إذا علمت هذا فلنرجع إلى تفسير الآيتين.

قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) والضمير هنا يرجع إلى زمرة المشركين (فَيَقُولُ)تعالى(أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) وتعبدونهم حتى كنتم تساووهم معي كما يحكي عنه قولهم: (إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) الشعراء:٩٨..

ورغم أنّ النداء كان موجّهاً إلى المشركين التابعين، إلاّ أنّ الجواب جاء من قبَل المتبوعين، وهم الذين وصفهم سبحانه بقوله: (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ): أي حقّ عليهم العذاب، وقد مرّ في المفردات أنّ هذا التعبير كناية عن تنجّز العذاب على المقول فيه، وهذا دليل على أنّ المجيبين هم الزمرة الثانية لا الزمرة الأُولى ـ أعني: القدّيسين ـ وحاصل جوابهم: (رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا): أي هؤلاء المشركون الذين نحن أغويناهم وأضللناهم عن سبيلك نعترف بإغوائهم، لكن (أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا): أي كانت غوايتهم بإغوائنا أي لغوايتنا أنفسنا، فكما كنّا غوينا باختيارنا من غير إلجاء كذلك هؤلاء غَوَوا باختيار منهم من غير إلجاء، ولذلك (تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ) من عبادتهم ووجه التبرّؤ أنّهم (مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)بإلجاء منّا، بل باختيار منهم.

بقي الكلام في تكرار الفعل في قوله:(هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا) ـ (أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا) فما هو الوجه في تكرار الفعل؟

الجواب: وجه التكرار هو العناية بمضمون الفعل كما في قوله: (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لاِنْفُسِكُمْ) الإسراء:٧، وقوله: (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) الفرقان:٧٢..

وفي المثل تقول: الذي ضربته، ضربته لأنّه ضرّني. نعم لولا قوله: لأنّه ضرّني كان التكرار قبيحاً.

وكذا في المقام فلولا قوله: (كَمَا غَوَيْنَا) لكان التكرار غير جميل.

٦٤. (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ):

لمّا فضح سبحانه رؤساء الضلال والدعاة إلى الشرك بما مرّ، عاد البيان القرآني إلى فضح الأتباع الذين عبدوا هؤلاء الرؤساء فخاطبهم بقوله:(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ): أي ادعوا آلهتكم الذين زعمتم جهلاً أنّهم شركاء لله حتى يدفعوا عنكم العذاب (فَدَعَوْهُمْ) لفرط الحَيرة والدّهشة، فلم يجدوا أيَّ جواب عندهم كما يقول: (فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) وهكذا تمّت الحجّة على القادة في الآية السابقة، وعلى الأتباع في هذه الآية، وعندئذ يرون مصيرهم السيّئ كما يقول: (وَرَأَوُا الْعَذَابَ) وهنا يتمنّى كلٌّ من القادة والأتباع(لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) في الحياة الدنيا، من خلال الاستجابة لدعوة الرسل والدعاة إلى الإيمان بالله تعالى.

وللمفسّرين في تفسير قوله: (لَوْ أَنَّهُمْ) آراء مختلفة، لكن ما ذكرناه هو الأوضح.

إلى هنا تمّ بيان نتيجة النداءين، بقي هنا نداء ثالث وهو إنّ الله سبحانه أتمّ على المشركين الحجّة ببعث النبيِّين، فما هي حجّتهم في تركهم طاعة الرسل؟ هذا ما تشير إليه الآية التالية:

٦٥. (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ):

الظاهر أنّ مجموع هذه النداءات الثلاثة في يوم اجتماع الناس على صعيد واحد، فهم بين موحّد ومشرك، ومطيع وعاص، والناس في هول وفزع من مصيرهم، فعندئذ يُنادي سبحانه المشركين، كما قال:(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) وقد أتمّوا لكم الحجّة، وبيّنوا طريق السعادة والشقاء، ولم يبقوا لمشكّك شكّاً ولا لمريب ريباً، وأمّا ما هو الاعتذار، وهل كان هناك جواب أو لا؟ فهذا ما يأتي في الآية التالية:

٦٦. (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ):

لمّا لم يكن للمشركين في ترك دعوة الرسل عُذرٌ إلاّ التعصّب الأعمى لتقاليد الآباء، فعندئذ (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ)وأُريد بالعمى الخفاء، أي خفي عليهم كلّ خبر يومئذ فوقعوا في حيرة ولم يجدوا أيَّ جواب، وقد بلغت بهم الحيرة والدهشة إلى درجة لم يسأل معها أحدٌ أحداً عن جواب يجيبون به ربّهم، كما يقول:(فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ).

قال الشريف الرضي(رحمه الله): والمعنى أنّهم إذا سُئلوا في الآخرة عمّا أجابوا به أنبياءهم في الدنيا لَجلجوا المقال وأخطأوا الجواب، ولم يعلموا ما يقولون ولا عمَّ يخبرون، فكأنّ الأنباء التي هي الأخبار عميت عليهم فكانوا لا يوجّهون كلاماً إلاّ ضلّ عن طريق الحقّ، ولا يخبرون خبراً إلاّ كان قاصراً عن غرض الصدق، كالأعمى الذي لا يهتدي لقصد ولا يقوم على نهج، وكأنّهم حادوا عن الجواب لانسداد طرق الأنباء عليهم، ولم يتساءلوا فيستخبر بعضهم بعضاً عن ذلك، علماً منهم بقيام الحجّة عليهم، وعموم الحَيرة لجميعهم. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٧٧.

٦٧. (فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ):

لمّا بيّن سبحانه حال القادة والرؤساء والأتباع والعبّاد من المشركين، عاد إلى بيان حال الفريق الآخر ـ كما هي سنّة الله سبحانه في الذكر الحكيم، إذ كلّما تعرّض لحال فريق يذكر حال الفريق الّذي يقابله ـ فقال : (فَأَمَّا مَنْ تَابَ) ولعلّ المراد به مَن رجع من الشرك إلى التوحيد (وَآمَنَ) بكلّ ما أتى به الرسول قلباً، وأذعن به جَناناً (وَعَمِلَ صَالِحًا)لأنّ العمل الصالح، الّذي فيه مرضاة الله تعالى، من مقتضيات الإيمان ولوازمه (فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ): أي الفائزين بثواب الله ونعيم جنته. قال عسى، ولم يقل قاطعاً بأنّه من المفلحين، وذلك لأجل إيجاد الاستعداد في نفوس المؤمنين حتى يستمرّ حالهم على الإيمان والعمل الصالح، ويقطعوا مسيرة حياتهم كذلك.

سورة القصص: الآيات ٦٨ ـ ٧٠ (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ... وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

الآيات: الثامنة والستّون إلى السبعين

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

المفردات

الخِيَرَة: اسم مصدر من التخيّر، كالطيرة من التطيّر، تستعمل بمعنى المصدر وهو التخيّر، وبمعنى المتخيّر كقولهم: محمد خيرة الله من خلقه. تفسير الكشّاف:٣/١٧٦.

سبحان الله: كلمة تنزيه لله عن كلّ نقص وعمّا لا يليق بجلاله تعالى.

تُكنّ: تخفي.

يعلنون: يظهرون.

الحكم: القضاء النافذ في كلّ شيء دون مشاركة لغيره.

التفسير

٦٨. (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ):

تشتمل الآية على مقاطع ثلاثة:

١. (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) وفيه إشارة إلى كونه سبحانه مختاراً تكويناً وتشريعاً.

٢. (مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ): أي ليس لهم أن يختاروا لأنفسهم شيئاً يخالف ما اختار الله لهم.

٣. (سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) يشير إلى تنزيهه عن كلّ ما لا يليق بساحة قدسه، ومنه المنازعة في ملكه، والمشاركة في اختياره.

وتوضيح الآية رهن إيضاح الأُمور الثلاثة، والمهمّ بيان صلة الآية بما قبلها.

أمّا الفقرة الأُولى ـ أعني قوله: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) ـ فتشير إلى أنّه سبحانه مختار فيما يخلق ولا يؤثّر في فعله واختياره شيء؛ لأنّ ما هو المؤثّر أمر موجود وهو مخلوق لله سبحانه، فكيف يكون مؤثّراً في اختياره وسالباً عنه الاختيار مع أنّه سبحانه يقول:(اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْء)؟ الزمر:٦٢.

وبهذا تظهر حال المؤثّر في تشريعه إذ ليس إلاّ شيء موجود وهو مخلوق لله فلا يؤثّر في إرادته واختياره، فالله سبحانه هو المختار في الإيجاد والتقنين.

وأمّا الفقرة الثانية ـ أعني قوله: (مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) ـ أي ليس للعباد أن يختاروا لأنفسهم ما يشاءون ممّا يخالف ما اختار الله تعالى لهم تشريعاً؛ وذلك لأنّه سبحانه خالقهم وربّهم، ومقتضى كونه خالقاً وربّاً لهم ومفيضاً للوجود عليهم حدوثاً وبقاءً، هو اختيار ما اختار الله لهم في مجال التشريع والتقنين، وإلى هذا يشير قوله سبحانه في آية أُخرى:(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِن وَلاَ مُؤْمِنَة إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ).(الأحزاب: ٣٦.)

وأمّا الفقرة الثالثة ـ أعني قوله: (سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) ـ فهي تشير إلى تنزيهه سبحانه عمّا يشرك به المشركون من آلهة، ومع أنّه عزّ وجلّ نهى عن عبادة غيره فهم مكان أن يختاروا ما اختار الله لهم، تركوه واختاروا آلهة مكذوبة للعبادة والتوسّل.

إلى هنا تمّ توضيح الآية، إنّما الكلام في صلة الآية بما قبلها، والذي يمكن أن يقال: إنّه سبحانه قال في الآية ٦٥ من هذه السورة:(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ): أي في الدنيا، ويظهر من بعض الآيات أنّهم أجابوا المرسلين بتقديم ما اختاروه على ما اختار الله لهم، كما يحكي عنهم قوله: (لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُل مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم). الزخرف: ٣١ .

فاختاروا للرسالة الوليد بن المغيرة من مكّة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، والله سبحانه يردّ على إجابتهم واختيارهم في المقام بقوله: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)، كما يردّ عليهم بعد الآية السابقة بقوله: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).(الزخرف: ٣٢.)

كان المشركون يعترضون على رسالة الرسول بقولهم: (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا)فردّ الله عليهم بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْض فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا). الفرقان٧ و ٢٠.

وبما ذكرنا اتّضحت صلة الآية بما تقدّم من قوله سبحانه:(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ).

٦٩. (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ):

أي ربّك يعلم ما يخفونه وما يظهرونه ولكنّه لا يؤثّر في اختياره، فإنّما يختار ما هو الأصلح لحالهم، وبما أنّهم غارقون في الشرك ظاهراً وباطناً فقد بعث الله النبيّين لتطهيرهم من أوساخه.

٧٠. (وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ):

الآية دليل على كونه سبحانه مختاراً دون أن يؤثّر في اختياره شيء، وذلك لأنّه موصوف بصفات سامية تجعله في نهاية الكمال، وهي عبارة عن الأُمور التالية:

١. (وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ).

٢. (لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ).

٣. (وَلَهُ الْحُكْمُ).

٤. (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

أمّا الفقرة الأُولى: فالضمير في قوله: (وَهُوَ اللهُ) كالضمير في قوله: (قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ) وهو مبتدأ خبره «الله»: أي هو المتفرّد بالإلوهية والمستأثر بها والمختصّ بها، ثم يؤكّده بقوله: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) نظير قوله: الكعبة القبلة، لا قبلة إلاّ هي.

وفي الفقرة دليل على أنّ الإله يعادل لفظ الجلالة، غير أنّ الإله عام والآخر خاص، وعند الموحّدين علَم لم يوجد له إلاّ مصداق واحد بخلاف المشركين فعندهم «الآلهة» مكان «إله الواحد».

فالإلهية بما هي مجمع صفات الكمال والجمال تختصّ بالله سبحانه، ومثله يكون مختاراً بالذات لا متأثّراً بغيره.

وأمّا الفقرة الثانية ـ أعني قوله تعالى: (لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ)ـ فهي خبر ثان للضمير؛ وذلك لأنّ كلّ كمال موجود في الدنيا والآخرة مخلوق لله سبحانه، فلو حُمد فإنّما يُحمد خالقه وموجده، فكلّ ثناء لغير الله فهو في الحقيقة ثناء لله سبحانه ؛ لأنّ الأشياء تنتهي إليه وجمالها وكمالها منه سبحانه فهو المحمود في نعم الدنيا والآخرة.

وأمّا الفقرة الثالثة ـ أعني قوله: (وَلَهُ الْحُكْمُ) ـ فهي بمعنى القضاء الباتّ له، لأنّه مالك الأشياء وخالقها فيصير الحكم بيده، ومن حكمه أن يقول:ألا تعبدوا إلاّ الله، كما قال:(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ) الإسراء:٢٣..

وأمّا الفقرة الرابعة ـ أي قوله:(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ـ فتشير إلى أنّهم يُحشرون إليه للحساب والجزاء، فيجازي كلّ إنسان بحسب عمله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ). الزلزلة: ٧ ـ ٨ .

فالله سبحانه بهذه الصفات السامية الجامعة للكمال والجمال فوق كلّ الأشياء، فيكون له الأمر والخِيَرة تكويناً وتشريعاً لا لغيره.

سورة القصص: الآيات ٧١ ـ ٧٥ (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ ... وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

الآيات: الحادية والسبعون إلى الخامسة والسبعين

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ للهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

المفردات

أرأيتم: أي أخبروني، أو هل علمتم؟

سرمداً: دائماً متّصلاً، يقول طَرَفة بن العبد:

لَعمرك ما أمري عليّ بغُمَّة *** نهاري ولا ليلي عليَّ بِسَرمدِ

وهو إمّا من السَّرْد أي المتابعة والإطّراد والميم مزيدة، ويحتمل أنّ الميم تكون أصلية أُخذ من فعلل.

تسكنون فيه: تستقرّون فيه من متاعب الأعمال.

التفسير

تشير هذه المجموعة من الآيات إلى نعمتين كبيرتين: هما النهار والليل، أو الضوء والظلمة، فإنّ لكلّ منهما دوراً في استقرار الحياة، وهما من مواهب الله سبحانه، ويستنتج الإنسان من التفكّر في تعاقبهما على نظام معيّن أنّه سبحانه المدبّر للكون دون غيره، فالحمد والعبادة له لا لغيره.

٧١. (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ):

أي أخبروني أو هل علمتم (إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا): أي دائماً لا نهاية له، (إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)متعلّق بسرمد، أي سرمداً

إلى يوم القيامة (مَنْ إِلَهٌ) مبتدأ وخبر، (غَيْرُ اللهِ) صفة الإله (يَأْتِيكُمْ بِضِيَاء)صفة أُخرى للإله (أَفَلاَ تَسْمَعُونَ) حتى تعرفوا أنّ غير الله لا يقدر على ذلك. ونظير الآية قوله سبحانه:(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَعِين). الملك:٣٠.

ومن المعلوم أنّ حياة النبات والحيوان والإنسان تعتمد على ضوء الشمس، فلولاه لما تفتّحت الأزهار، ولا أثمرت الأشجار، ولا طار طير في الهواء، ولا دبّت على وجه الأرض دابّة، وهكذا. ولا تجد أي أثر للحياة على الصعيد.

٧٢. (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْل تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ):

تحدّثت الآية السابقة عن نعمة الضوء وأنّه لولاه لما دامت الحياة وتتحدّث هذه الآية عن نعمة الظلمة ويقول: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ): أي أخبروني (إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)وأنتم بحاجة إلى السكون والخلود إلى الراحة والهدوء بعد كدح النهار (مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِليل)فدوام الحياة رهن وجود الضياء والظلمة وتبادلهما المنظَّم، فلولا الضياء لانطفأ نور الحياة، ولولا الظلمة لتعب الجسم وتحوّل النشاط إلى خمول، وقد وازن سبحانه بين النعمتين بقدرته وحكمته، فهل آلهتكم المزعومة قادرة على إيجاد الليل؟ (أَفَلاَ تُبْصِرُونَ): أي أفلا تتفكّرون فيما ترونه؟ لأنّ مَن لا يتدبّر بما يراه من الحجج والبراهين فكأنّه لم يرها. التبيان في تفسير القرآن: ٨ / ١٧٣ .

٧٣. (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ):

إنّ هذه الآية كالنتيجة للآيتين المتقدّمتين، حيث تشرح لنا دور الليل والنهار في حياة الإنسان، وأنّ أحدهما خلق للسكون والهدوء والآخر للنشاط والعمل كما يقول:(وَمِنْ رَحْمَتِهِ): أي ومن مواهبه سبحانه الّتي مَنّ بها عليكم أنّه: (جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) حيث يتعاقبان على نصفي الأرض ـ وَفق نظام إلهي دقيق يحكم حركات كلّ من الشمس والأرض ـ ولا يدوم واحد منهما، أمّا الليل (لِتَسْكُنُوا فِيهِ)وأمّا النهار(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)على طريقة اللفّ والنَّشر المرتَّب، (وَ) أمّا الغاية من ذلك فهي (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)هذه النِّعم الكبرى.

إلى هنا تمّ تفسير الآيات الثلاث التي ركّزت على نعمتين كبيرتين هما التتابع الرتيب للّيل والنهار، وأنّ المدبِّر لذلك هو الله سبحانه.

نعم في الآيات أسئلة نجيب عليها:

١. إنّه سبحانه ختم الآية الأُولى التي تكلّم فيها عن نعمة الضياء بقوله: (أَفَلاَ تَسْمَعُونَ)، وختم الآية الثانية التي تكلّم فيها عن نعمة الليل بقوله: (أَفَلاَ تُبْصِرُونَ)، فما هو الوجه في ذلك؟

والجواب: إنّ الملاك في هذين التعبيرين هو صدر كلّ من الآيتين لا ذيلهما، وأنت ترى أنّه يتحدّث في الآية الأُولى عن سرمدية الليل ودوامه إلى يوم القيامة، فينحصر الحسّ المناسب وقتذاك بالأُذن والسماع ولذلك قال: (أَفَلاَ تَسْمَعُونَ)، بينما يتحدّث في الآية الثانية عن سرمدية النهار، والحسّ المناسب للنهار هو العين والإبصار لأنّه الأنسب من سائر أدوات المعرفة.

٢. إنّه سبحانه جعل التقابل في الآية الأُولى بين الليل والضياء وقال: (إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاء).

ولكنّه جعل التقابل في الآية الثانية بين النهار والليل قال: (إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْل)، فما هو السبب في العدول عن النهار إلى كلمة الضياء؟

والجواب: يمكن أن يقال: إنّ الغاية من النهار هو الضياء إذ به تعمر الحياة وتدوم، فلذلك ركّز على الضياء دون النهار، ولعلّه لما ذكرنا نرى سبحانه يصف الشمس بالضياء والقمر بالنور وقال: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) يونس:٥.

وأمّا أنّه عبّر في الآية الثانية بالليل دون الظلمة، فلعلّ الاستراحة رهن الليل لا الظلمة، ولذلك يستريح الإنسان وينام في الليالي المقمرة التي تخفّ الظلمة فيها.

٣. إنّ جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة إنْ تحقق لم يتصوَّر الإتيان بضياء أصلاً، وكذا جعل النهار سرمداً إلى يوم القيامة إنْ تحقّق لم يتصوَّر الإتيان بليل كذلك، أمّا من غيره تعالى فظاهر لأنّه معدن العجز عن كلّ شيء، وأمّا منه عزّ وجلّ فلاستلزامه اجتماع الليل والنهار، إذ لو لم يجتمعا لم يتحقّق الليل مستمرّاً إلى يوم القيامة، وكذا جعل النهار كذلك، وهو خلاف المفروض، واجتماعهما محال والمحال لا صلاحية له لتعلّق القدرة، فلا يراد. روح المعاني:٢٠/١٠٨.

والجواب: إنّ قوله سبحانه مثلاً: (إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) كناية عن عدم وجود الضياء، فسأل عمّن يأتي به، كما أنّ الآية الثانية ـ أعني قوله: (إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)ـ كناية عن عدم وجود الليل، فسأل عمّن يأتي به، وبهذا يندفع الإشكال، حيث تصوّر أنّ الآيتين بصدد بيان حفظ الليل والإتيان بالضوء أو حفظ النهار والإتيان بالليل، فيلزم اجتماع الضدّين من غير فرق، من الله سبحانه أو من غيره، بل صدْر كلّ آية كناية عن عدم وجود ما في الذيل، فسرمدية الليل كناية عن عدم الضياء، وسرمدية النهار كناية عن عدم الليل، فالله سبحانه يقول: مَن يأتيكم بالضياء عند الحاجة إليه؟ ويقول: مَن يأتيكم بالليل إذا مسّت الحاجة إليه؟ لا بمعنى: مَن يأتيكم بالضياء مع وجود الليل؟ أو مَن يأتيكم بالليل مع وجود النهار؟

٧٤. (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ):

تكرّرت هذه الآية بلفظها من دون اختلاف في الآية ٦٢، كما مرّت عليك، وجه الإعادة هو لتكون مقدّمة للآية التالية.

٧٥. (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ):

(وَنَزَعْنَا): أي وأخرجنا (مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) شاهداً يشهد عليهم بما كانوا عليه. والآية من أدلّة وجود الشهداء على الأعمال، وأكثر المفسّرين على أنّ المراد من شهيد كلّ أُمّة هو نبيّها الّذي يشهد عليها بما أجابته فيما دعاها إليه من الحقّ. ولكن الظاهر من بعض الآيات أنّ المراد بالشهيد المطّلع ـ بما حباه الله من منزلة ومنحه من قدرة ـ على حقيقة أعمال الناس، ويصدق هذا على النبيّ وغيره، ويشهد لذلك أنّه سبحانه يعطف الشهداء على النبيين فيقول: (وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) الزمر:٦٩..

فالآية تدلّ على أنّ لكلّ أُمّة في كلّ زمان شهيداً على أعمالهم. ولو كان الشهيد على الأمّة هو نبيّها فمعنى ذلك أنّه لأجل تحمّل الشهادة، يشاهد أعمال الأُمّة حيّاً وميّتاً، سواء أكان فيهم أم راحلاً إلى ربّه، وهذا مقام سام أثبته القرآن لشهداء الأعمال، وسيأتي مزيد بيان حول الشهداء، عند تفسير الآية(٦٩) من سورة الزمر. فالآية تحكي عن موقف من مواقف يوم القيامة يحضر فيه المشركون وشهداء الأعمال فيخاطبهم سبحانه بقوله: (فَقُلْنَا) لكلّ من تلك الأُمم(هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)الّذي يثبت ما كنتم تزعمون من أنّ لله شركاء (فَعَلِمُوا) عندئذ، وتجلّى لهم ـ بعد عجزهم عن الإتيان ببرهان على صحّة ما اعتقدوا وما عملوا ـ أمران:

١. (أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ) لا يشاركه سبحانه في ألوهيّته أحد، أي يتجلّى الحقّ ظهوراً لا ستر عليه، فيرتفع كلّ ساتر عن وجه الحق وكلّ ما يشتبه به الحقّ، فيظهر أنّ ما شاركوه مع الله لم يكن إلاّ افتراء أوهن من بيت العنكبوت، فتكون الآية نظير قوله سبحانه: (وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) النور:٢٥..

٢. (وَضَلَّ عَنْهُمْ): أي وغاب عنهم (مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) من الباطل على أنّ لله شركاء، حيث لم يوجد في المحشر أي أثر منهم. وهذه الفقرة نظير قوله سبحانه: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ) البقرة:١٦٦.: أي ظهر بطلان

ما زعموه سبباً وشفيعاً بينهم وبين الله وسبباً لنيل رضاه.

سورة القصص: الآيات ٧٦ ـ ٧٩ (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ... إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ).

الآيات: السادسة والسبعون إلى التاسعة والسبعين

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَ ابْتَغِ فِي مَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ* فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ).

المفردات

قارون: عَلَمٌ غير منصرف للعجمة والعَلَمية. قيل: هو ابنُ عمّ موسى، وقيل: ابن خالته(عليه السلام)، وربّما يقال: إنّه عمّ موسى.

بغى عليهم: تكبّر وتجبّر.

الكنوز: الكنز في اللغة: المال المدفون في الأرض. وكأنّ المراد هنا المال المدّخر تشبيهاً له بالمدفون في الأرض.

مفاتحه: خزائنه جمع مَفتح، أو جمع مِفتح، وهو المفتاح، وفي الجمع يقال: مفاتح ومفاتيح.

تنوء: تثقل، من ناء به الحمل ينوء إذا أثقله حتى أماله.

العصبة: الجماعة الكثيرة.

القوّة: الشدّة.

لا تفرح: أي لا تبطر.

الدار الآخرة: ثوابها.

على علم عندي: عندي وصف لعلم، أي استحصلتها بعلمي وحسن تصرّفي وذكائي.

التفسير

من أشدّ الأُمور مضاضة وأكثرها إيلاماً للنفس أن يعمد إنسان إلى ظلم أهله وذوي قرباه، وأن يقف في صفّ أعدائهم الذين يضطهدونهم ويذيقونهم ألوان العذاب، كما قال طَرَفة بن العبد:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة *** على المرء من وقع الحسام المهنّدِ

وهذا ما حدث لبني إسرائيل حيث برز من بينهم رجل ثريّ وهو قارون الذي هو من أقارب موسى(عليه السلام) حيث إنّه فارقه وصار أحد ثالث ثلاثة ممّن تصدّوا من الطغاة لموسى(عليه السلام) وكذّبوا بدعوته، فقد قرن الكتاب العزيز اسمه مع فرعون وهامان؛ وقال: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) غافر:٢٣ و٢٤. وكان قارون ذا ثروة طائلة بعثت في نفسه الزهو والغرور، فبغى على قومه وتطاول عليهم وسخّرها لأهوائه وشهواته وأغراضه الشريرة، وهذا ما تعرضه لنا هذه المجموعة من الآيات الكريمة.

٧٦. (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ):

قوله تعالى:(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى): أي كان من بني إسرائيل (فَبَغَى عَلَيْهِمْ): أي استطال عليهم وظلمهم (وَآتَيْنَاهُ مِنَ

الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ): أي كانت مفاتح (خزائن أو مفاتيح الخزائن) أمواله المدَّخرة تثقل وترهق المجموعة من أقوياء الرجال.

قال الشريف الرضي(رحمه الله)(حول هذه الآية): وهذه الاستعارة على القلب ؛ لأنّ المراد أنّ العصبة أُولي القوّة تنوء بتلك المفاتح أي تنهض بها نهضاً متثاقلاً لكثرة أعدادها وثقل اعتمادها، ولكن لمّا كانت هي السبب في نوء تلك العصبة بها على التثاقل من نهضها، كانت كأنّها هي التي تنوء بالعصبة أي تحوجها إلى النهوض على تلك الحال من المشقّة. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٧٨.

وما كان باستطاعة قارون أن يبغي على قومه وهو منهم، لولا أنّه تزلّف إلى القصر الفرعوني، وجعل نفسه خادماً لمصالح فرعون وآله في قوله ضد موسى وهارون(عليهما السلام) ومن اتّبعهما، فمكّن له فرعون في مصر أن يجمع أموالاً كثيرة، ليكون عوناً للقصر الفرعوني على إذلال بني إسرائيل في مصر، وتسخيرهم واستبعادهم. معارج التفكّر ودقائق التدبّر:٩/٤٦٨.

ولمّا كان سلوك قارون مع قومه غير مرضيّ لهم فلذلك نصحوه كمايقول: (إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ): أي نصحوه بالأُمور التالية:

١. (لاَ تَفْرَحْ) يطلق الفرح على السرور كما في قوله تعالى:(وَإذا أذقْنا النّاس رحمةً فَرِحُوا بِهَا). الروم:٣٦. ويطلق على البَطَر وهو الفرح المُفرط المذموم كما في قوله سبحانه: (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، الرعد:٢٦.والإنسان الذي يبطره الثراء ويستخفّه الغنى ويزدهيه المال، يتعامى عن رؤية مساوئه ومعايبه، ويذهل عن تهذيب نفسه وتقويم سلوكه، الأمر الذي يفضي به إلى الشقاء والخسران المبين، ولذلك علّلوا نهيهم بقولهم: (إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ):: أي المفرطين بالفرح المغرورين بزخارف الدنيا.

٧٧. (وَابْتَغِ فِي مَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ):

اشتملت الآية على عظات أربع تكون مع ما تقدّم خمساً:

٢. (وَابْتَغِ فِي مَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ) أي اطلب الدار الآخرة أي نعيمها ودرجاتها بما آتاك الله من الأموال، وذلك بإنفاقها في الموارد التي تخدم الإنسان وتبني الحياة وترضي الله تعالى.

٣. (وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) النصيب هو الحظ وهو كناية عن أنّ نصيبك من الدنيا بالنسبة لِما جمعتَه من الكنوز قليل جدّاً، فجمْع هذه الأموال الطائلة دون أن تنتفع بأكثرها على خلاف العقل.

٤. (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ) وهو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّه داخل في ما تقدّم ـ أعني قوله: (وَابْتَغِ فِي مَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ)ـ والكاف في قوله: (كَمَا) للتعليل كما في قوله تعالى:(وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ) البقرة:١٩٨.. وحذف متعلّق الإحسان لإفادة العموم.

٥. (وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ) بانغماسك في ملذّاتك وبذَخك وإسرافك وغرورك وتطاولك على الناس، مستعيناً بما آتاك الله من مال، وما اكتسبتَ به من جاه، وما ذاك إلاّ لـ(إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ). قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) «من طلب الدنيا مُكاثراً مفاخراً، لقي الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافاً، وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة، ووجهه كالقمر ليلة البدر». بحار الأنوار : ٧٠ / ٢٨ ؛ التفسير الكاشف: ٦/١٠٩.

٧٨. (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ):

صلافته تجاه الناصحين

لم يكترث قارون لهذه النصائح البالغة، ووقف منها موقف المتباهي بغناه، المغترّ بثروته، المُعجَب بمواهبه في كسبها وحيازتها،

الجاهل بتصاريف الدهر وتقلّباته، ولذا (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)بهذه العبارة القصيرة ردّ هذا المُترف المفسد على نصائح المؤمنين المخلصين من قومه: إن ما يمتلكه من ثروات طائلة وما يدّخره من كنوز، إنّما هو نتيجة نبوغه ومهارته، وثمرة عمله ومعرفته بطرق الكسب وتنمية الثروة، ومن هنا جاز له ـ كما يرى ـ أن يتمتع بحرِّية التصرّف فيها كما يشاء، وأن يستغلّها في تحقيق منافعه وتلبية رغباته كما يحبّ ويهوى. وهذا هو منطق جميع المغترّين بالدنيا، الحريصين على تكديس الأموال دون أن يعبأوا بآهات ودموع وآلام الآخرين (فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) الزمر:٤٩ و ٥٠.

ولمّا كان ردّ قارون بهذه العبارة (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ) من غير إسناد الإيتاء إلى الله سبحانه، فيه نوع إعراض عن ذكره تعالى وإزراء بساحة كبريائه، جاءه الجواب من الله سبحانه بصيغة الاستفهام التوبيخي الميزان في تفسير القرآن:١٦/٧٨. (أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا).

والمراد: لو كان السبب لجمع الأموال والكنوز هو علمه وقدرته وليس بإيتاء الله سبحانه، للزم أن تُنجيه هذه الأموال وتدفع عنه الشرّ والبلاء.

وقد أشار سبحانه إلى هذا في موضع آخر فقال: (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاَءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ).(الزمر:٥١)

٧٩. (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ):

الآية تشتمل على أمرين:

الأوّل: استعراض قارون مظاهر ثرائه.

الثاني: تمنّي الجاهلين أن يكون لهم مثل ما لقارون.

أمّا الأوّل فإنّ قارون لم يتّعظ بمواعظ قومه فاغترّ بثروته كما يقول:(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)، وقوله: (فِي زِينَتِهِ) حال من الضمير في قوله: (فَخَرَجَ): أي خرج متبختراً في زينته، مستعرضاً مظاهر ثرائه الفاحش وترَفه الناعم لإرضاء شعوره بالغرور والعظمة، وتكريس مكانته الاجتماعية، وتحقيق رغبته في إخضاع الناس وفرض إرادته عليهم من خلال ثروته، فعندئذ انقسم الناس إزاء هذا الاستعراض المُغري إلى صنفين:

١. صنف اغترّ بما لقارون من الزينة وهم الذين كانت الدنيا أكبر همّهم، كما يحكي عنهم سبحانه: (قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) ولكنّهم لا يعلمون أنّه كم من شخص حظّه في السحاب، وعقله في التراب، كما يقول المثل العربي.

لقد خطف بريق الزينة أبصار هذا الصنف، فعمي عن رؤية حقيقتها ومآلها.

ومن هنا تمنّوا ما تمنّوا، وهؤلاء هم الجهلاء بحقيقة الدنيا، وما في الآخرة من النِّعم الدائمة.

سورة القصص: الآيات ٨٠ ـ ٨٤ (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ... إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).
الآيات: الثمانون إلى الرابعة والثمانين
(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ

لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).
المفردات
الذين أُوتوا العلم: المصدّقون بوعد الله، أو أهل العلم بالله. ويلكم: الويل: الدعاء بالهلاك والعذاب، إلاّ أنّه قد يستعمل في الزجر والرّدع بطريق النصح والإشفاق. ويكأنّ: وَي: كلمة تعجّب، وهي اسم فعل بمعنى أَعجَبُ أو نَعجَبُ. وتأتي للتحسّر والتندّم. مفردات الراغب: ٥٣٥، مادة «وي».
التفسير

٨٠ . (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ):

٢. هذا هو الصنف الآخر الذي يقابل الصنف الأوّل، فهو ينظر إلى الدنيا بعين البصيرة ولا تستخفّه مظاهرها الخدّاعة التي لا تلبث أن تختفي وتزول، وهذا الصنف هم أهل العلم بالله الذين يتطلّعون إلى ما عند الله فحسب، ويعلمون أنّ ما عند الله خير وأبقى (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) وهذه الحقيقة، حقيقة أنّ ما عند الله أفضل ممّا أُوتي قارون، لا يدركها إلاّ القليل من الناس كما يقول: (وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ) والصابرون هم المتلبّسون بالصبر عند الشدائد وعلى الطاعات في مقابل المعاصي.

٨١ . (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ):

لم تشأ الحكمة الإلهية أن تدع البغي والاستكبار والتطاول على العباد يستمر طويلاً، بل شاءت أن تنهي حياة هذا المترف المفسد بالطريقة التي تتجلى فيها قدرة الخالق وعظمته وضعف المخلوق وتفاهة ما يملكه من مظاهر القوّة المادّية التي يتحصّن بها ليكون هذا المصير عبرة للمعتبرين كما يقول: (فَخَسَفْنَا) تدلّ الفاء هنا على أنّ الخسف به وبداره كان عقيب خروجه على قومه بزينته، والخسف انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها، فمعنى قوله: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ): أي خسفنا الأرض مصحوبة مع قارون وداره، فصار قارون وداره مخسوفَين مع الأرض التي هو فيها. لقد هلك قارون مع ثروته فلم يُغنِ عنه ما جمع من مال ولم يحمه أنصاره ولم تنفعه قوّته من دون الله في درء العذاب عنه كما يقول: (فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ) فكما لم يحصل له النصر من غيره لم يتحقّق له النصر بنفسه ويدفع عنها ما حلّ به، كما يقول: (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ). ونعمَ ما قال أبو الفرج السّاوي :

هيَ الدنيا تقول بملء فيها *** حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي

فلا يغرُرْكمُ حُسنُ ابتسامي *** فقولي مُضحك والفعل مُبكي

قال الإمام علي(عليه السلام): «كم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي أُبّهة قد جعلته حقيراً، وذي نخوة قد ردّته ذليلاً». نهج البلاغة: الخطبة ١١٨.

٨٢ . (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ):

إنّ الخسف الذي عمّ الأرض التي فيها قارون وثروته الطائلة أزال الغشاوة عن أعين الذين خُدعوا وتمنّوا أن يكونوا مثله، كما يقول: (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ) وهم الذين فُتنوا بمظاهر موكب قارون قبل أن ينزل به الخسف(يَقُولُونَ) تعجّباً ممّا وقع(وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ).وهكذا أدركوا أنّ توسيع الرزق وتضييقه يخضعان لحكمة إلهية ترتبط باختبار الإنسان وامتحانه في رحلة حياته، ولا يمتّان بصلة إلى رضاه سبحانه أو سخطه.

ولفظة «وَي» تستعمل ـ كما قلنا ـ في التعجّب، فيكون معنى الآية: إنّنا نعجب من أنفسنا كيف كنّا غافلين عن حقيقة أنّ الله هو وحده من يبسط الرزق لمن يشاء ومن يقدر عليه، (لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا): أي أنعم علينا فلم يؤتنا ما أعطى قارون (لَخَسَفَ بِنَا) كما خسف بقارون، لأنّنا تمنّينا أن نكون مثله (وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)لا يفوزون بثوابه ولا ينجون من عقابه.

٨٣ . (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ):

إنّه سبحانه يلخّص ما في هذه القصة من العبر والعظات ويبتدئ بقوله :(تِلْكَ) تعظيماً للدار الآخرة وتفخيماً لشأنها (الدَّارُ الآخِرَةُ) كناية عن الجنة ونعيمها، فهي لمن يتحلّى بوصفين:

١. (لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ): أي لا يتكبّرون على الحقّ ولا على الخلق.

٢. (وَلاَ فَسَادًا): أي لا يريدون فساداً في الأرض بارتكاب المعاصي والآثام. ثم يذكّر سبحانه ويقول: (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ): أي أنّ الدار الآخرة لمن يتحلّى بهذين الوصفين.

والحقّ، أنّه يدخل تحت هذه الآية: (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ) كلُّ عامل وساع إلى تحصيل المال والمنصب والجاه واستغلالها كأدوات للفساد، كل ألوان الفساد كالغشّ، والاحتكار، واللهو، والعبث والإسراف في الملذّات، وسلب حقوق الآخرين، والاستعلاء والترفّع على الناس (وهو في مقدّمتها)، وغير ذلك.

ولا شكّ في أنّ طلب الرئاسة هو مطيّة التكبّر والاستعلاء، ومن هنا قال الإمام أبو الحسن عليّ الرضا(عليه السلام): «ما ذئبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاتها بأضرّ في دين مسلم مَن حبّ الرئاسة». رجال الكشّي: ٤٢٤؛ بحار الأنوار:٧٠/١٥٤، برقم ١٣.

وقال أمير المؤمنين(عليه السلام) ـ منبّهاً إلى أنّ من حاربه في أيام خلافته كان يطلب العلوّ والمفاخرة في الدنيا المستلزم للسعي في الأرض بالفساد ـ : «فَلَمَّا نَهَضْتُ بالأمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ، وَ مَرَقَتْ أُخْرَى، وَقَسَطَ آخَرُونَ: كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ:(تِلْكَ الدَّارُ الاْخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الاْرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) بَلَى! وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَ لكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا!». نهج البلاغة: الخطبة ٣. أراد(عليه السلام) بالناكثين طلحة والزبير لأنّهما بايعاه ونقضا بيعته بخروجهما وكذلك من تبعهما ممّن بايعه، وبالقاسطين معاوية وفئته الباغية، وبالمارقين الخوارج.

نظرة الإسلام إلى الثروة والمال

ربّما يتوهّم متوهّم أنّ الإسلام دين الرهبانية ولا علاقة له بالدنيا وما فيها من الأموال والثروات بشهادة أنّه يندّد بعمل قارون حيث جمع بجهده ثروة طائلة فخسف الله به وبماله وداره الأرض، ولكنّ المتوهّم لا يفرّق بين كون الاقتصاد أصلاً من الأُصول في الحياة وبين كونه هدفاً في مقابل الآخرة. وأفضل دليل على اهتمام الإسلام بالاقتصاد، العقود التي أمضاها وبيّن شرائطها، نظير: البيع، والإجارة، والمضاربة، والمزارعة، والمساقاة، والعارية، والوديعة، وإحياء الموات، والهبة، والصلح، إلى غير ذلك من أُصول المعاملات التي وردت في الشريعة الإسلامية. ويكفي في بيان اهتمامه بالأموال أنّه نهى عن جعل الأموال في متناول السفهاء وقال: (وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا) النساء:٥. ويكفي في ذلك أيضاً أنّه وصف الأموال في الآية بأنّ بها قوام الحياة.

كيف يتوهّم متوهّم بأنّ الإسلام دعا إلى الرهبانية مع أنّه وصف المال بالخير وقال:(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ

تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ).(البقرة: ١٨٠.)

ولم يقتصر على ذلك، بل جعل الغنى عوناً على التقوى وكسب الآخرة، قال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم):«نعمَ العَون على تقوى الله الغِنى». الوسائل:١٢، الباب٦ من أبواب مقدّمات التجارة، الحديث١.

وقال الإمام الصادق(عليه السلام):«نعم العون على الآخرة الدنيا». الوسائل:١٢، الباب٦ من أبواب مقدّمات التجارة، الحديث٢.

وقال(عليه السلام) أيضاً:«غنى يحجزك عن الظلم خير من فقر يحملك على الإثم». الوسائل:١٢، الباب٦ من أبواب مقدّمات التجارة، الحديث٧.

وقال(عليه السلام): «ليس منّا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه». الوسائل:١٢، الباب٢٨ من أبواب مقدّمات التجارة، الحديث١، نقله عن الصدوق في الفقيه.

وقد قبّل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يد سعد بن معاذ وقال: هذه يد يحبّها الله ورسوله. أُسد الغابة:٢/٢٦٩؛ الإصابة:٢/١٣٨. وكانت يده قد بجلت من العمل.

ولا يمكننا نقل الكثير ممّا ورد عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته الطاهرة(عليهم السلام) في دعوة الإنسان إلى كسب معيشته وتوفير حاجياته المتنوّعة، وإلى تنمية الإنتاج، فإنّ ذلك يحوجنا إلى تأليف مفرد، بل نختم المقال بما كتبه الإمام علي(عليه السلام) إلى مالك الأشتر النخعيّ(رحمه الله) لمّا ولاّه على مصر، حيث يوصيه بتهيئة الظروف المساعدة للانتاج ويحذّره من مغبّة أخذ الضرائب من المزارعين قبل الحصاد، ويقول:«وَتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلاَحِهِ وَصَلاَحِهِمْ صَلاَحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلاَصَلاَحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلاَّ بِهِمْ، لاِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِى عِمارَةِ الاَْرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِى اسْتْجلاَبِ الْخَرَاجِ، لاِنَّ ذلِكَ لاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بِالْعِمَارَةِ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَة أَخْرَبَ الْبِلاَدَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلا. فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلا أَوْ عِلَّةً، أَوِ انْقِطَاعَ شِرْب أَوْ بَالَّة بالّة: ما يبلّ الأرض من ندى ومطر.، أَوْ إِحَالَةَ أَرْض اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ». نهج البلاغة: الكتاب رقم ٥٣.

ولعلّنا نستوفي البحث في بعض المقامات، والله الهادي.

٨٤ . (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ):

صلة الآية بما قبلها واضحة، فبعد أن ورد فيها (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)جاءت هذه الآية لتشير إلى سِمة المتّقين، فالمتّقون هم المحسنون، الذين إذا أحسنوا فلهم في تلك الدار خير من عملهم، وإن أساءوا فلا يجزون إلاّ بمثل سيئاتهم. وقد جاء هذا المضمون في غير هذه السورة، قال تعالى: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) الأنعام:١٦٠.. فلذلك يقول سبحانه هنا:(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)وذلك بمضاعفتها له (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ): أي مثلها. وهذا من ألطاف الله سبحانه حيث يجزي على الحسنة الواحدة عشراً أمثالها(وقد يضاعف العدد إلى أكثر من ذلك)، ولا يأخذ المسيء إلاّ بمثل ما عمل.

سورة القصص: الآيات ٨٥ ـ ٨٨ (إِنَّ الذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاد ... وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

الآيات: الخامسة والثمانون إلى آخر السورة

(إِنَّ الذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاد قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَل مُبِين * وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ * وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْء هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

المفردات

فرض عليك القرآن: أوجب عليك تبليغ القرآن والعمل به، وربّما يقال بأنّه بمعنى أنزل بشهادة تعديته بـ«على».
معاد: المكان الذي يعود إليه الإنسان، ويطلق على يوم القيامة لأنّه معاد الكلّ، كما يطلق على البلد الذي هو فيه. والمراد به هنا مكّة.
ظهيراً: معيناً.
يصدّنك: قال الراغب: الصدّ: قد يكون انصرافاً عن الشيء وامتناعاً نحو: (يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا)، النساء:٦١. وقد يكون صرفاً ومنعاً كقوله:(وَ لاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ).(المفردات للراغب: ٢٧٥، مادة «صدد».)
وجهه: ذاته.

التفسير

٨٥ . (إِنَّ الذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاد قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَل مُبِين):
أخرج ابن مردويه عن علي بن الحسين بن واقد قال: كلّ القرآن مكّيّ أو مدنيّ غير قوله: (إِنَّ الذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاد) فإنّها أنزلت على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بالجُحفة حين خَرج مهاجراً إلى المدينة فلا هي مكّية ولا مدنية. وروي عن غير واحد من التابعين أنّ المراد من قوله: (إِلَى مَعَاد)هو مولد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وبلده. ولعلّ هذا التفسير أوضح من تفسيره بمعاد يوم القيامة لأنّه لا يختصّ بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)؛ بل يُحشر فيه الناس جميعاً. إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ الآية مركّبة من فقرتين:
الأُولى: قوله تعالى:(إِنَّ الذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاد).
الثانية: قوله تعالى:(قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَل مُبِين).
وقد مرّ في تفسير قوله سبحانه:(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ) القصص:٤٣. أنّ هذه الآية ومابعدها تشير إلى مواصفات مشتركة بين النبيّ موسى(عليه السلام) والنبيّ محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)وذكرنا في تفسير الآية بعض هذه الصفات المشتركة. ولعلّ كلّ من الفقرتين في هذه الآية يشير أيضاً إلى مورد آخر من موارد المشابهة بينهما، فالله سبحانه أهلك أعداء موسى(عليه السلام) وسلّطه عليهم فصار المستضعفون أقوياء، وذهبت شوكة الطاغين، وهذه الفقرة تشير إلى وعد للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه سبحانه سيعيده إلى بلده مكّة ظافراً قاهراً أعداءه، وهؤلاء الطغاة سيصيرون أذلاّء صاغرين.
كما أنّ الفقرة الثانية تشير أيضاً إلى نوع مشاركة بين النبيّين(عليهما السلام)، فإنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا المقام يعطي النصفة إلى الخصم ويتكلّم بهدوء ويقول:
(رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى)يريد نفسه ولكن لا يصرّح باسمه(وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَل مُبِين): أي صناديد قريش وطواغيتهم كما فعل ذلك النبي موسى(عليه السلام)حيث قال: (رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى) يريد نفسه (وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ) القصص:٣٧. أيضاً يريد نفسه ولم يذكر العِدل المخالف لكونه معلوماً.
وبذلك تبيّن أنّ أكثر ما جاء في قصة موسى(عليه السلام) وفرعون يشابه قصة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مع قومه، وأنّه سبحانه ذكر كلّ ذلك لغايات منها تطييب نفس النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وتقوية عزيمته في إبلاغه الرسالة .
٨٦ . (وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ):
ذكر سبحانه في هذه الآية نعمة من نعمه على النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنّه لمّا وعده في الآية السابقة بانتشار دعوته وإذلال الطغاة المتجبّرين الذين وقفوا في وجه الدعوة وصاحبها موقفاً عنيداً، ذكر نعمة أُخرى وراء هذه النعمة وهو أنّه سبحانه

شرّفه بإلقاء الوحي إليه وأنّه لم يكن يرجو ذلك كما يقول:(وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ): أي لم تكن تتوقّع وتنتظر تفاصيل ما سيوحى إليه ـ وإن كان هو عالماً إجمالاً بنبوّته ـ وهذا ما يدلّ عليه قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ) الشورى:٥٢..

وقوله تعالى: (إِلاَّ رَحْمَةً)استثناء منقطع، أي لكنّه أُلقي إليك (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)، ويشير إلى هذه الفقرة قوله سبحانه في موضع آخر:(وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) الشورى: ٥٢..

ولمّا أفاض البيان في النعم التي أنعمها على النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) عاد البيان القرآني إلى مقتضيات تلك النعم، إذ لكلّ منصب ونعمة مسؤولية، ومسؤولية ذلك المقام الشامخ ـ أي كونه متلقياً للوحي ـ التكاليف التالية:

١. (فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ): أي معيناً لهم، وفي هذا أيضاً نوع مشابهة لقصة النبيّ موسى(عليه السلام)، الذي حكى عنه سبحانه ما عاهده عليه: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ).(القصص:١٧.)

٨٧ . (وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ):

تشتمل الآية على ثلاثة تكاليف:

٢. (وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ) لمّا نهاه سبحانه عن أن يكون (ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ)كذلك نهاه في هذه الآية عن الانصراف عن القرآن النازل إليه، فنهاه أن يتقبّل منهم ما فيه صدّ عن آيات الله، فقد جاء في كتب السيرة أنّ رؤساء قريش جاءوا واقترحوا عليه أُموراً كثيرة من الثروة والزوجة والمقام حتى يترك رسالته.

روي أنّ رؤساء قريش حاولوا تطميع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فذهبوا إلى بيت أبي طالب وفيها ابن أخيه، فقالوا: يا محمد إنّا بعثنا إليك لنكلّمك، فقد شتمت الآباء وعِبت الدين وسببتَ الآلهة وسفّهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فإن كنت إنّما جئت بهذا تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنّما تطلب الشرف فينا فنحن نسوّدك ونشرفك علينا، إلى آخر ما اقترحوه على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

فدار الحديث بينه وبين صناديد قومه فقال: أُريد منكم كلمة واحدة، ففزعوا لكلمته، فقال القوم: كلمة واحدة؟ نعم وأبيك وعشر كلمات، وقالوا: ما هي؟ قال: قولوا: لا إله إلاّ الله، فثقل ذلك على القوم فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولوا: (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) ص:٥.. انظر: السيرة النبوية لابن هشام:٢/٣٠ـ٣١، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ .

ثمّ إنّ تقييد النهي عن الصدّ بقوله: (بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ)إشارة إلى تماميّة الحجّة عليه(صلى الله عليه وآله وسلم)، قال سبحانه في غير موضع: (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ) البقرة:٢١٣..

٣. قوله تعالى:(وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ): أي استمر على تلك الدعوة فلا تصرفنّك أعذار القوم عن الدعوة إلى الربّ. وتعليق الدعوة بالربّ إشارة إلى أنّ الربوبيّة تقتضي اختصاص الدعوة به، فإنّه ربّ والإنسان مربوب، فهو يلبّي حاجته في كلّ زمان فيكون مستحقاً للدعوة لا غيره.

٤. قوله تعالى:(وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وفُسّر الشرك بما في الآية التالية.

٨٨ . (وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ):

قوله: (وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ) هذا هو التكليف الخامس. وأُريد من الدعوة العبادة، أي لا تعبد مع الله تعالى إلهاً آخر، وإذا أُطلق الدعاء في حقّه سبحانه يراد به العبادة كما في قوله سبحانه:(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) غافر:٦٠.. ترى أنّه سبحانه عبّر في صدر الآية بالدعوة وفي ذيلها بالعبادة فدعاء الله سبحانه

عبادة له.

وأمّا دعوة غيره، فإن كان الدعاء بما أنّه إنسان يعين إنساناً آخر بحول من الله وقوّته سبحانه فهو التوحيد ذاته، وأمّا لو دعاه بما أنّه يقوم بالعمل بنفسه من دون حول وقوّة مفاضة من الله، فهو الشرك عينه.

وبذلك ظهر أنّ دعوة غير الله بأي نحو كانت بأن يقول: يا محمد انصرني، ويا حسين اشفع لي عند الله، فهو ذو جهتين حسب ما مرّ، وأمّا المسلمون فلا يدعون غير الله إلاّ على الصورة الأُولى. كيف؟ وهم يتلون ليل نهار قوله سبحانه:(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

وهناك خلط من الوهابيّين في أمر الدعوة، فتارة يفرّقون بين الحيّ والميّت، فدعاء الحيّ عندهم أمر جائز، ودعاء الميّت أمر غير مشروع ومزيج بالشرك! لماذا؟ لأنّه عاجز عن إنجاز دعوة الداعي.

ولكن القائل غفل عن أنّ العجز ـ على فرض ثبوته ـ آية كون الدعوة لغواً لا شركاً، فمن تردّى في البئر واستعان بالمارّة يكون دعاؤه أمراً عقلائياً، ولو استعان بأحجار البئر يكون دعاؤه لغواً لا شركاً.

وربّما يفرّقون بين المقدور وغير المقدور، فلو طلب أمراً مقدوراً فهو التوحيد عينه، وأمّا لو طلب أمراً خارقاً للعادة غير مقدور عادة فهو شرك، لكن عزب عن القائل بأنّ القدرة والعجز ليسا مناطين للتوحيد والشرك، بل يُعدّان مناطين لكونهما مفيدتين أو غير مفيدتين.

وحصيلة الكلام: بما أنّ القوم لم يدرسوا ملاك التوحيد في الشرك في العبادة صاروا يتخبّطون تخبّط الأعشى، فتارة يميلون إلى القول الأوّل (التفريق بين الحيّ والميت) وأُخرى إلى الثاني (التفريق بين المقدور وغير المقدور)، وتفصيل الكلام في موضعه.

إلى هنا تمّت الخطابات الموجهة إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن الواضح أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) لا يمكن أن يخالف شيئاً من تلك النواهي، فما الفائدة؟

والجواب: إنّه من باب «إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة» فالخطاب موجّه، في الظاهر، إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، والمراد من يتحمّل مسؤولية الدعوة إلى الله من المؤمنين به. وهذا المعنى مروي عن الإمام جعفر الصادق(عليه السلام)، حيث قال:«إنّ الله بعث نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) بإيّاكِ أعني واسمعي يا جارة». تفسير القمي:٢/١٢٤؛ تفسير نور الثقلين:٤/١٤٦ـ ١٤٧.

ويمكن أن يقال: إنّ لله تعالى أن ينهى عبده عن أي شيء قبيح حتّى مع عدم صدوره عنه لعصمته. ولا شكّ في أنّ النهي عن أمر ما يُبرز شدّة قُبحه ويُلهب حماسة المخاطب للمضيّ في طريق محاربته واستئصاله.

والآن بقي الكلام فيما وصف الله سبحانه به نفسه في هذه الآية، وهو عبارة عن أوصاف أربعة:

١. (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ).

٢. (كُلُّ شَيْء هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ).

٣. (لَهُ الْحُكْمُ).

٤. (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

إذا تدبّرت في مفاد هذه الصفات الأربع تقف على أنّ الجميع علّة للفقرة السابقة، أعني قوله:(وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ): أي العبادة مختصّة بالله سبحانه، لماذا؟ لأجل هذه الوجوه، وهي:

الأوّل: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ)، فإذا كانت الألوهية مختصّة به ولم يكن في صحيفة الوجود إله غير الله، فلابدّ أن يكون هو المعبود لا غيره .

الثاني: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ) أُريد من الوجه، الذات، إذ لا معنى لهلاك كلّ شيء حتى غير الوجه من الله، بل المراد كلّ شيء عُرضة للهلاك والفناء إلاّ ذاته تقدّست أسماؤه، ويدلّ على أنّ المراد من الوجه هو الذات، قوله سبحانه:(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ) الرحمن:٢٧. فإنّ قوله: (ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ)وصف للوجه، بشهادة رفعه، لا للربّ، وإلاّ لكان مجروراً، ومن المعلوم أنّ الموصوف بالجلال والإكرام ذاته لا وجهه، حتى الوجه المتناسب لله حسب زعم القوم.

يقول الشريف الرضيّ(رحمه الله): ومن الدليل على أنّ المراد بوجه الله هاهنا ذات الله سبحانه قوله: (ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ) فكأنّه قال: ويبقى ربّك (ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ)، ألا ترى أنّه سبحانه قال في خاتمة هذه السورة يعني سورة الرحمن. (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ) قال: ذي الجلال والإكرام، ولم يقل ذو لأنّ اسم الله غير الله، ووجه الله هو الله، وهذا واضح البيان. تلخيص البيان في مجازات القرآن:٢٣٦.

وأمّا وجه كونه دليلاً للنهي ـ أعني: (وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ) ـ هو أنّ المفروض هلاك ما سوى الله حتى الآلهة المكذوبة، والأُلوهية تنافي الهلاك وهو العدم.

ثمّ إنّ المراد بهلاك كلّ شيء هو اختلال النظام السائد حسب ما يحكيه القرآن في سائر السور، لا بمعنى انعدامه، فإنّ المفروض أنّه سبحانه يُخرج الإنسان من قبره، ولازم ذلك بقاء التراب الذي يخلق منه كما يحكي عن جمع القمر والشمس يوم القيامة، إلى غير ذلك ممّا يدلّ على بقاء المادّة وانهدام الصور، كما يقول: (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) الزمر:٦٧..

الثالث:(لَهُ الْحُكْمُ) إذا أُريد من الحكم هو الحكم تشريعاً وتكويناً واختصاصه به فهو يدلّ على أنّه الإله دون غيره، وعند ذلك يجب أن يكون هو المعبود دون غيره.

وبعبارة أُخرى: الحكم سواء كان في التشريع أم التكوين هو من شؤون الإلهية، فإذاً (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ)فلا يُعبد إلاّ هو.

الرابع: (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) عند البعث والحشر فيجزيكم بأعمالكم إنْ خيراً فخير وإنْ شرّاً فشرّ، فإذا كان المرجع هو الله سبحانه، فهو الموجد ومعه لا يعبد غيره، إذ الخلائق بأجمعها راجعة إليه في مسيرة تكاملها ولا دخل للأصنام والأوثان في هذا المسير.

***

تمّ تفسير سورة القصص

الفهرس